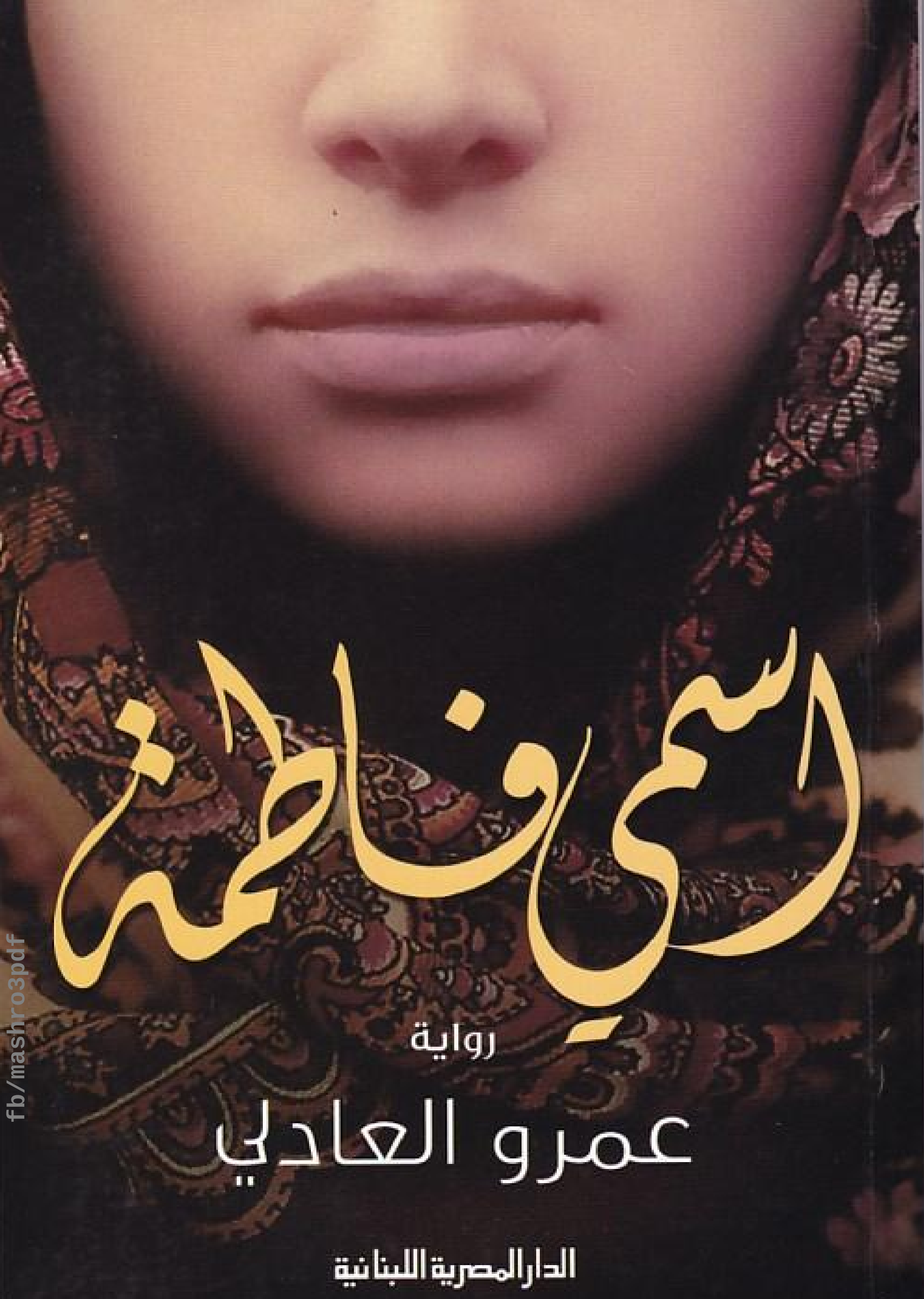

اسمي فاطمة
رواية
عمرو العادلي
الدار المصرية اللبنانية



رواية

العادلي، عمرو.

اسمي فاطمة: رواية / عمرو العادلي

.- ط1.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2017.

320 ص؛ 20 سم.

تدمك: 5 - 113 - 795 - 977 - 978

1- القصص العربية

أ- العنوان 813

رقم الإيداع: 2152 /2017

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: ربيع ثان 1438 هـ - يناير 2017م



عمرو العادلي

الدار المصرية اللبنانية

إهـــداء

إلى إلهام وناهد

الركن الذي يُضيء عائلتي الصغيرة، بلا صخب.

وكانت تقول الحقيقة كما تتذكرها

چوزيف روديارد كيبلنج

دفعتني يده بعنف.

لم أهتم كثيرًا باقترابي من القفص، تجاهلتُ الجلبة وتصويب الكاميرات تجاهي، المكان أمامي مكتظ بالناس الذين يتناوبون بين الهمس والضجيج، أسمع أصواتهم متداخلة، مشوّشة، وكأن كل ذلك يحدث على سطح كوكب آخر.

بحثت في رأسي عن صور قديمة لتُخرجني من هذا المشهد بأقصى سرعة، رأيتني في مكان يشبه القاعة، يتكدس أمامي أشخاص يشبهون البشر، وأنا أقف أمامهم متهمة.

تخيّلت أن لي حياتين؛ واحدة أتمنى حدوثها، وأخرى تحدث لي بالفعل، الخط الوهمي الفاصل بينهما يهتز بشكل دائم، يذوب ويتلاشى كلما تأملتُ الناس من حولي، محاولات التركيز المستمرة جعلتني متأكدة أنهم موجودون بالفعل، وأنني لستُ سابحة في دهاليز حلم. لوهلة، أحسستُ بأني أعيش كابوسًا طويلًا متقطعًا، يتم توزيعه على الأيام بلا إنصاف.

في الحياة التي أتمنّاها أرى نفسي لا أزال طفلة، تنسدل على كتفيها ضفيرتان طويلتان، يغلف الكون من حولها غموض جميل، تحلم بحوض سمك مُلوّن وقفص به عصفوران جميلان ينقران الحَب.

جميع الكائنات منسوجة من خيالٍ شفاف، تتحرك من حولي ألوان متداخلة كأنها فاضت عن أحلام، وورود حمراء وزرقاء منثورة فوق سحابة برتقالية بعيدة.

أما في الحياة التي تحدث لي بالفعل فأنا مُكبّلة. أمامي قضبان حديدية سوداء، أرى رؤوس الجالسين موجّهة ناحيتي بثبات، عيونهم تحدق فيّ، نظراتهم تليق بامرأة مُتهمة في جريمة قتل. لم أبدُ أمام نفسي سيئة. كنت كمن سقطت في لعبة خيالية ولم يعد باستطاعتي العودة للواقع مرة أخرى. فك عسكري قَيْدي ودفعني باتجاه القفص، ثم أغلق الباب الذي بلا سقف.

مرّة أخرى، هزتني يده، لم أسمع نفسي وأنا أنطق باسمه، قلتُ بصوت مجروح غاب عنه الصوت: «إياد. من الذي ألبسك هذه الطاقية البيضاء الناصعة؟».

بداية، أنا أعرف ذنبي، ولا أنوي الدفاع عن نفسي، فأنا لا أجيد الكلام.

انتظرتُ طويلًا حتى امتلأت المنصّة برجال عجائز نظيفين، رغم الجو البارد؛ شعرت بدفء عندما نظرتُ في عيني إياد من خلف العيدان الحديدية، لم يكن يعنيني ما دبّره القضاة من كلمات مكتوبة في أوراق كثيرة أمامهم. كنت أهتم بأن أكشف عن كل شيء. ما سوف أقوله أهم بكثير مما سيقولون، فهم ليسوا سوى أشخاص يؤدون

دورًا ما، أما أنا فقد عشت كل لحظة بطعمها طازجًا في حلقي، بمُرها الذي طغى على كل حلو.

لمحتُ الخنزير في منتصف القاعة، دوره في القصة لم يأتِ بعد، ما إن تأكدتُ من ملامحه حتى تمنيت لو يفتحون المحبَس لأراه عن قرب، أتأمل ملامحه وأسأل: «ما الفائدة الحقيقيّة من أن يُخلق كائن مثل هذا؟» لن أبدأ حكايتي بالخنزير، ليس هذا هو الموضوع، فالموضوع لم يبدأ بعد.

البداية كانت مع خالد.

لا..

البداية كانت مع إياد.

اختلطت البدايات في رأسي، وكأنه لابد أن يكون هناك دائمًا ما يصلح بداية، وكأن كل هذه التشابكات المعقدة يجب أن تُقسَّم إلى بداية ووسط ونهاية كما يحدث في الأفلام، ولكن الحكاية كانت غير ذلك بالمرّة.

اقترب إياد محمولًا على كتف أخي منصور، خاله.

إياد، لا أدري هل نطقتُ باسمه أم أنه فقط عَبَرَ خيالي؟ هو الوحيد الذي دنا مني أكثر مما هو مسموح، لامس العيدان الحديدية السوداء، تسللتْ أصابعه لتلمس كفي، وقف أمام الكاميرات المنصوبة لي بالمرصاد، كان رَجُلِي الأخير بين كل الواقفين، لم أشعر بأني أحتاج

لأحد بعد أن رأيته، شعرت بدفء إضافي عندما كان يلاعبني فيمنع عني تطفّل المصورين.

«هوب يا هوب» لقد سمعتُ هذه الكلمات من قبل، لكن أين؟

دق أحد الجالسين على المنصة بدقماق خشبي فجلس الحضور وخفَّت الجلبة، فتح بعض الجالسين بجواره أوراقًا وقالوا كلامًا، سعلوا وعطسوا وشربوا من زجاجات مياه نظيفة أمامهم.

وقفت مجموعة من الناس في الصف الأول، أقسموا، ثم قال كل منهم حكايته، كانوا بالنسبة لي كائنات سوداء في ليلة مُظلمة، لم أرَ ملامحهم ولم أسمع مما قالوه شيئًا، وكأنهم يتحدثون عن امرأة أخرى غيري. كنت واقفة في القفص، ممنوحة لهم، لكني لست معهم، سارحة في محميتي الطبيعية، ذاكرتي التي تحتفظ بكل شيء طازجًا.

بقليل من التذكر كان الشريط كله يعاود المرور.

أحاول قدر استطاعتي أن أفتح عيني أمام الكاميرات، حتى أبدو وكأنني لا أخشى تصويرهم، كنت حريصة على ألا تُلتقط لي صورة وأنا مُطرقة للأرض أو مغمضة العينين، كي لا يُكتب تحت صورتي في صحف اليوم التالي عبارات من نوعية «ملامح القاتلة» أو «نظرة الندم» أو أي اختراعات صحفية أخرى. لم أجد من ينصفني فأنصفتُ نفسي بوقفتي المتماسكة وعيني المفتوحة. أقول بداخلي جملة واحدة وأظلُ أرددها: «لستُ تلك المرأة التي تظنون».

كان جسدي كله باردًا عدا رأسي، أشعر بضغط خفيف على رئتي، أهملتْ أنسجتي التفاعل مع العالم الخارجي، غدا عالمي كله داخليًا، تموج في رأسي عمليات حسابية معقدة أحاول رصدها طوال الوقت.

بعد أن انتهى كل من وجب كلامهم جاء دوري، طلب منّي صاحب الدقماق أن أتحدث إليه بصدق. شعرت بسخونة وتمدد في جسدي كُلّه، كأني أقترب من احتراق للغلاف الجوي.

كل ما قالوه كان خارج الموضوع، فالحكاية بالكامل عندي أنا.

أتحسس تاج السنديان الأخضر فوق رأسي، أبحث عنه ولا أجده، فقط شال أبيض مُلحق بملابس الحبس البيضاء، يحتفظ ببقايا شعر محلوق. كان جسدي حاضرًا في القاعة، وعقلي غائبًا تمامًا عنها، غير منشغلة إلا بما أود قوله قبل أن يصدر أي حُكم ضدي، بدت الحكاية في دماغي كبرعم نباتي صغير، لا يوحي بشيء واضح، ولكن بداخله كل الخصائص المرفقة مع الحكاية، تتقاذف الصور أمامي غير منتظمة، وأنا أحاول ترتيبها قدر استطاعتي.

1

البداية كانت في قريتي، بدت ذاكرتي مبعثرة، غير متأكدة من أصالة المكان في رأسي، فبعد ما مرَّ بي من أحداث بات التذكر يتبع الأهواء أكثر من التزامه بالحقائق، ذلك إن كانت مثل هذه الكلمات موجودة بالفعل، الأهواء والحقائق.

كنتُ أبول في فراشي حتى سن الثانية عشرة، حدثت بعد ذلك تغيرات كثيرة في جسدي وروحي، تراقبها أمي، وأحسها أنا دون تعليق.

أخذني أبي إلى الطبيب، كنتُ خجلة من مجرد تخيّل الكشف على بطني أو ظهري، لا أود أن يعبث بجسدي أحد، أو حتى يحاول لمسي، لحسن حظي كان الطبيب يشبه إسماعيل يس، ممثلي المُفضَّل، لا أدري هل كان يعرف ذلك أم لا؟ لم أشعر بأنه غريب عني كما توقَّعتُ، كان مثل كل الأبطال الذين ينتهون من أداء أدوارهم في الأحلام فيذهبون بأرواحهم الخفيفة إلى الأفلام.

عندما دخلتُ ترك مكتبه واقترب مِنّي، ومن فمه الكبير خرج سؤال:

«هل تعرفيني؟»

وأتأمله جيدا:

«نعم. أنت إسماعيل يس»

يبتسم الرجل، ينبهر ويفتح فمه، وينهرني أبي بنظرة جانبية.

يمد الطبيب يده ويصافحني، يجذب ستارة سرير الكشف البيضاء فأطلع، لكنني لا أنام، يُخرج من دولاب قديم جهازًا يشبه اللاسلكي، يقترب ليضعه على بطني، لكنني أبعد يده بالجهاز الأسود المستطيل. يدفع أبي كتفي برفق، فأنام وأنا خائفة، أضم ركبتيّ إلى صدري وأنكمش، قبل أن يُعلّق أبي على تصرّفي يمد الطبيب يده ويشدني، فأصبحُ في وضع الجلوس فوق السرير، يتظاهر بأنه يصافحني، ثم ينزلني ويُجلسني على كرسي مقابل لكرسيه، أتأمل ملامحه الكبيرة فيما هو يسألني بلطافة:

«ما اسمك؟»

ويرد أبي:

«فاطمة»

يقول الطبيب:

«دعها تتكلم وتعبر عن نفسها بلسانها»

أقطع كلامه، وأقولُ:

«فاطمة. فاطمة طاهر»

فينظر إلى أبي ويبتسم:

«كنت تريد أن تحرمنا من سماع هذا الصوت الرقيق؟»

وأسمع موسيقى ناعمة تنبعث من راديو على مكتب الطبيب، يلف الزر بإصبعه قليلا فيعلو الصوت، ويسألني:

«كم مرّة تأكلين في اليوم يا فاطمة؟»

يرد أبي:

«مرتين»

يرفع إسماعيل يس حاجبيه:

«دعها ترد»

وأكرر الكلمة نفسها:

«مرتين. فأنا لا أطلب الطعام كثيرا»

يبتسم:

«يبدو ذلك على نحافتك ونظرات عينيكِ. هل لديكِ هوايات تمارسينها؟»

«هوايات؟»

أرد على سؤاله بسؤال.

كان يكتب كل الكلام في دوسيه أخضر أمامه، أخذ يرعش القلم بين إصبعيه، فكر قليلا ثم قال:

«هل تحبين إلقاء الشِّعر أو ممارسة لعبة ما؟»

ويكمل أبي الرد على الأسئلة:

«فاطمة خطها حلو»

لم يعلق الطبيب على تطوّع أبي بالإجابة بدلا مني، اكتفى بالنظر إليه ومط شفته السفلى وفرد كفيه كعلامة تعجب، كان في هذه الحركة بالذات قد تحول إلى إسماعيل يس تماما. سرعان ما استعاد وقاره وسيطر على مكانته ونظر تجاهي:

«هل تحلمين كثيرا يا فاطمة؟»

أهز رأسي بالموافقة دون رد، وأسأل نفسي: «كيف عرف إسماعيل يس ما لا يعرفه أبي؟»

كنتُ كالمنومة بينهما، يخرج من داخلي صوت هامس، كأنه يغني، لا أشعر بما يحدث من حولي بشكل مكتمل، وكأن ما أراه نصفه حقيقة ونصفه الآخر بقايا حُلم، فالأحلام توفر القدرة على تخطي العوائق، تعفيني من خوض طُرق الكلام الملتوية، وينتابني فجأة شعور بالارتباك.

يعود الطبيب لطرح الأسئلة:

«وهل عندما تستيقظين يخرج معكِ أحد من أحلامك؟»

لم أفهم السؤال، فيرد أبي:

«ما علاقة مثل هذه الأسئلة بتبولها في الفراش يا دكتور؟»

ويطلب من أبي أن يلتزم الصمت، يُقرِّب منه فمه الكبير كي لا أسمع، ولكنني أسمع:

«مع ابنتك الحالمة لا تنفع مثل هذه الصراحة الواقعيّة أبدا»

«حالمة؟»

قالها أبي ثم صمت، أبعد أذنه مؤقتا عن الفم الذي يقدم له النصائح، سحب الطبيب ورقة من دولابه القديم، وشدَّ قلمًا من جيبه، قدمهما إلي برقَّة بالغة:

«اكتبي يا فاطمة ما يحلو لكِ هُنا. أريد أن أرى خطك الحلو»

أخذتهما منه بصمت وهدوء، وضعت الورقة على منضدة صغيرة بين الكراسي، عندما أسندتُ سن القلم عليها رفض الكتابة، لكنه كان مطيعا جدا في الرسم، وبدأت الملامح تجري كأنها ترسم نفسها، لم أفكر في رسمة محددة قبل أن أبدأ، صنع القلم بعض التفاصيل، لم تكن لي سيطرة كاملة على تحديد الانحناءات وتظليل الحواف، وبدأ حجم الوجه في التشكّل.

تحدث أبي مع الطبيب، لم أسمع من كلامهما شيئا، فقد كنتُ مندمجة فيما أفعل، كتابة الملامح بديلا عن الكلمات. بعد أن انتهيتُ من الرسمة خبّأتها خلف ظهري وابتسمت لإسماعيل يس فابتسم،

وأبي يراقب رد فعله، يمسك الرجل الورقة ويتأملها جيداً، تلمع عينه قبل أن يصافحني وينحني أمامي قليلاً، ثم في حركة مباغتة يُقبِّل ظهر يدي، تصرّف جعل بدني كله ينتفض، وشرايين حديثة النمو ترتعش في أعماقي، خاصة عند منطقة البطن. ثم شعرتُ بإحساس معاكس تماماً بعد ثوانٍ قليلة، كأنني أغرق في بحر من حرج، تمنيتُ لو تبتلعني الأرض، ورأيت السرير ينزل معي، فكيف لممثل مشهور أن يُقبّل يدي؟ وقف أبي وعلى ملامحه مباراة بين مشاعر متضاربة، رفع حاجبيه عندما علّق ممثلي المُفضل رسمتي فوق صدره وقال له:

«هل يمكن لك أن ترسمني بهذه السرعة والمهارة مثلما فعلتْ فاطمة؟»

وينظر إليَّ أبي:

«حلوة الرسمة يا فاطمة»

«حلوة فقط. إنها رسمة بديعة»

يحاول أبي أن يجاريه في الكلام فيسألني:

«كيف تذكَّرتِ ملامح إسماعيل يس دون أن تكون صورته حاضرة أمامك؟»

ويضحك الطبيب:

«هي لم ترسم إسماعيل يس يا أستاذ طاهر. فاطمة رسمتني بعد أن خلطت ملامحي بملامح ممثلها المُفضل. وهذه موهبة فنية باهرة»

«الرسم؟»

يسأل أبي ويجيبه الطبيب منتشيا كأنه سكران:

«لا. الخلط. الخلق والتبديل. التوليف المستمر بين أشياء غير متجانسة. وهذه الموهبة هي التي تجعلها تنفصل عن العالم الذي يعرفه منْ حولها. فتخلق عالمها البديل. تأكل فيه وتشرب وتلعب، تصنع ما يحلو لها وتقيم صروحًا من العلاقات المفترضة. ولا ينقص مثل هذه الحياة البديلة إلا الإحساس بالراحة الكاملة حتى تصبح شبيهة بالحياة التي نعرفها. لذلك يبتل فراشها كل صباح. هل فهمت؟»

قمتُ وتركتهما يتجادلان حول موهبتي، لمحتُ في ركن الغرفة كرسيًا هزازًا، في هدوء تام جلستُ دون استئذان من أحد، عندما بدأ الكرسي في الاهتزاز بي كان أبي وممثلي المُفضَّل يتحركان، يميلان مع حركتي، ثم أصبحا يرقصان، ورأيتُ السقف يقع فوق السرير، بعد مدة لم أتمكن من حسابها غابت غرفة الكشف تماما، بقيت الموسيقى المنبعثة من الراديو وحدها، ووجدتني في مكان آخر، ذهني صافٍ، قادرة على متابعة أدق التفاصيل دون كبح، ملامح أشخاص قابلتهم في مكان ما، ألوان الملابس التي يرتدونها، يرتفع فوق رأسي سحاب أبيض، أتبعُه دون إرادة كاملة. وقبل أن أتمكن من الطيران مع السحاب تفاجئني هزَّة قوية، أفتح عيني فأجد يد أبي ممسكة بمسند الكرسي الهزاز، وأرى فمه يُفتح ويُغلق، يصلني صوته بعد أن ينقطع صوت الموسيقى:

«هل نمتِ يا فاطمة؟»

وأرى مرة أخرى ممثلي المُفضّل يبتسم، كانت أسنانه البارزة تساعده على التبسّم بشكل دائم، أشار صاحب الوجه البشوش بسبابته إلى أعلى الجدار، فرأيتُ الصورة التي رسمتُها مُعلّقة في برواز فوق مكتبه. كان ينتظر أن أثني على ما فعل أو أشكره، لكنني انشغلتُ في أمر أهم، من بين ثقوب الكرسي الهزاز الذي أجلس عليه؛ لمحتُ بعض التسرّب يظهر بوضوح أسفل قدميّ، وملابسي أيضا، رأيتها مبلولة، كنتُ في غاية الأسف، ليس لأنني بُلت في العيادة، ولا لأن أبي والطبيب تابعا كل التفاصيل أثناء غفوتي، لكن سبب خجلي الأكبر هو أنني منذ دقائق قليلة كنتُ كبيرة جدا في نظرهما. أصبح عقلي منكمشا داخل رأسي، ولم أعد أشعر بوزني.

جذب أبي ذراعي فلم أطاوعه، منعني خجلي من أن يرى ممثلي المُفضل ملابسي مبلولة، فقد قبّل يدي منذ قليل، اضطراب خفيف كان يسري كالمخدر في أعصابي، أحسستُ بفجوة تبعدني عن المكان، وقبل أن ينبهني أبي يضغط إسماعيل يس على كفّه:

«ابنتك كنز كبير يا أستاذ طاهر. حافظ عليها. أنا سعيد جدا برؤيتها. أمّا عن سبب مجيئك بها فالعلاج أسهل مما تتخيل»

أسند كفيه إلى مكتبه وكتب كلاما في ورقة، ثم نزعها من دفتره وأعطاها لأبي:

«أعطها هذا الدواء لمدة شهر. وستختفي جميع الأعراض المزعجة. ومن حظي السعيد أنني سأراكما بعد شهر. لكن أرجوك اهتم بفاطمة. فهناك من لا يطول ظفرها»

كانت كلماته كثيفة تتجاوز استيعابي لها.

يأخذ أبـي الورقة وينظر إليها كأنه سـيفهم المكتـوب، يقترب مني الطبيب ويضغط بإصبعيه شفتي السفلى في حركة رقيقة.

سِرتُ بصحبة أبي وأنا لا أشعر بالأرض أو الناس من حولي، رأسي خفيف بلا ضغط أو وزن، مسحوبة أكثر مِنّي ماشية، تتراكم مناظر غير واضحـة فوق بعضها. وقبل أن نصل إلى البيت يتخدّر رأسـي، ويهمد مخي تماما عن طرح الأسئلة.

ويخيل لي أنني سمعتُ صوت أبي:

- «إسماعيل يس مات من زمان».

2

«فار جسدكِ ومَسَّكِ الخرّاط يا فاطمة»

في سن الرابعة عشرة سمعت هذه الجملة أكثر من مرّة بصوت أمي، لم أفهم من كلامها شيئًا واضحًا آنذاك، لم أستطع تكوين صورة عمّا تقصده الكلمات. كنت فقط أشعر أن جسدي يقاوم بعض الأحاسيس القديمة ببطء، يتحرّر ولم يعد ينتمي لجاذبية الطفولة، وروحي باتت تستغرق وقتًا أطول في الأحلام، كنتُ أجهل عالمي الجديد المُقبلة عليه، تحددت مسافات أبعد بيني وبين الناس، رسمت خطوطًا وهمية تحدد علاقتي بالمحيطين بي، محاذير لا تنبع من داخلي، بل اخترعتها من حزمة التعليمات التي أتلقاها عن طريق أمي ليل نهار.

أيضًا، النظرات الصامتة التي كانت تخصني بها «خضرا» علّمتني كثيرًا. لم أحدثكم بعد عن خضرا.

كانتْ تصغرني بسنتين، ليستْ أختي، تعيش معنا في البيت منذ وعيت، ترتِّب الدار مع أمي وتطبخ لنا، والمُقابل ليس إلا لقمة وهدمة ونومة، يعاملها أبي مثلما يعاملني تقريبا، كانت هناك بعض المفاضلة قليلًا لصالحي، تزيد مساحة تمييزي لدى أمي، عندما يتحدث أبي عن خضرا يقول كلمات التعطّف: «مسكينة. بنت ناس»، وعندما كانت

تأتي سيرتها على لسان أمي في ساعات الرضا تقول كلامًا شبيهًا بذلك، وفي ساعات الغضب لم تكن تناديها إلا «مقصوفة الرقبة»، عاشتْ معنا خضرا وأصبحتْ جزءًا من عائلتنا الصغيرة، رغم أنني لا أعرف شيئًا عنها سِوى ما يقوله أبي وما تحكيه أمي، ماتت أمها ولا أحد يعرف شيئًا عن أبيها وبقيتْ بلا أهل، لم أشعر بأنها أختي، لكني كنتُ أحبها جدًّا.

عندما بلغتُ السادسة عشرة بدأ إحساس وجود حياتين يخايلني، كان الفرق بينهما يتماهى بالليل فقط، يهتز الخط الفاصل عند الظلام، ويتلاشى نهائيًا عندما آدخل في نسيج حلم، تتجاذبني ألوان ورود حمراء وزرقاء، تتراقص على ملاءة سريري، تجذبني منها دائما مشاعر حزينة، كنت أدخل في مقايضة ليليّة لتبديل الواقع بالخيال، لكنها دائمًا تكون غير مُرضية بالنسبة لي.

تمنيتُ أن تكون لي صديقة غير خضرا، واخترت من الكائنات القطّة، تنام بجواري، أسمع مواءها وتسمع كلامي، ألعب في شعرها حتى أنام، وتهز بذيلها قدمي حتى أصحو.

أصبحتُ أتذكر الأشياء متقطعة، لا يستمر حدث كامل في رأسي، تخفي أمي عنّي كراريس الرسم كي لا ألوثها برسوماتي التي لا تعجبها دائما، تُشجعني على التفوق في كل المواد عدا الرسم والدين، فهما لا يضافان إلى مجموع الدرجات.

نشأت العلاقة بيني وبين أمي في صورة الآمر ومُنفِّذ الأمر، أتظاهر بطاعتها، وعندما تنام أخرج من تحت مرتبتي الكراريس والألوان،

أرسم كل ما يقابلني من وجوه، عندما تخلَّصتُ من جميع الملامح التي أعرفها عن طريق الرسم؛ اتجهتُ إلى الشجر والطير والبيوت الطينية القريبة، ثم بكل الصبر كنتُ أرسم أحلامي، وهذه الرسومات على وجه الخصوص لم تفهمها أمي، فقد رسمتُ ملامحها ذات مرَّة بشكل يرضي خيالي، شعر هائش ونظرة قرفانة، لم تغضب مني عندما وقعت الرسمة في يدها بالصدفة، تأملتْها جيدًا ثم ضحكتْ، لم يمنعها ضحكها من تحذيري:

«سيلحس الرسم دماغك كما لحست كتابة الخواطر دماغ أبيكِ».

كان أبي مدرس ابتدائي، المدرسة التي يعمل بها قريبة جدًّا من البيت، خابت أحلامه بسبب واقعية أمي، فقد كان يخطط لتخصيص غرفة يمارس فيها مغامراته الأدبية، صالون أدبي يتناقش فيه مع أصدقائه، سَنَّه على غرار صالون العقاد وقهوة نجيب محفوظ، لكن أمي كانت سبَّاقة بأن تحطم له كل خططه، فقد جعلت من الغرفة نفسها مخزنًا للكراكيب.

أما بيتنا فصغير مثل أغلب بيوت قريتنا، محاط بأوراق الأشجار الذابلة وفضلات الحيوانات والطيور، أمامه مباشرة أحجار مهشمة وأطلال ساقية قديمة منغرسة في الأرض، باختصار، كان بيتنا قريبًا من بقايا كل شيء.

لا أعرف عن قريتنا الكثير، ربما بعض معلومات كالتي تملأ كُتب الجغرافيا في المدارس الابتدائية، فقريتنا، تحدها من الشمال الترعة

الكبيرة التي يسمونها بحرًا، ومن الجنوب طريق أسفلتي طويل يصل إلى القاهرة التي يسمونها مصر، أما شرق قريتنا وغربها فكان بساطًا أخضر على مدد الشوف، تتخلله صومعة عابرة أو برج حمام. تتوقَّف الدواب أمام اللون الأخضر، تغريها النجيلة وعيدان البرسيم الطالعة، أغلب هذه الأراضي أصبح الآن بيوتًا مثل بيتنا، كان اللون الأخضر يبتعد من أمام عيني كلما كبرتُ.

نشأتُ على رائحة الطباشير والحبر، وورق الكربون في كل مكان، مع مرور الأيام اكتشفت لأبي طموحًا آخر غير أمل الترقي في المدرسة حتى يصبح ناظرًا. كان يكتب القصص ويرسلها للنشر في المجلات الأدبية. نُشرت له قصة ذات مرة في جريدة سكندرية تصدر بغير انتظام اسمها شمس المنارة، اشترى من الجريدة التي نشرتها عشرين نسخة، وزعها جميعها على أقاربه وأصدقائه، لم تبق منها إلا نسختان فقط، واحدة محشورة بين الكُتب فوق مكتبه يتصفحها كل بضعة أيام، أما النسخة الأخرى التي يحتفظ بها تحت مرتبة سريره؛ فكان يقول بأنَّه يدَّخرها للأجيال القادمة. لم أعرف معنى التقدير الأدبي إلا من تذكري لنظرته التي أوصل بها الخبر لأمي، كنتُ في الثالثة عشرة وأخي منصور أصغر مِنِّي بسنة، يومها، تابعنا فرحة أبي ولمعة عينيه، قرأ لنا القصة بتعبيرات جسدية تمثيلية، ونبرة صوت مهزوزة بعض الشيء. كان يقرأ وقع صوته في أعيننا، يرتبك وتغيم نظرته كلما قال له محدثه إنه لم يسمع باسم هذه الجريدة من قبل.

أما أمي فلم تكن تعترف بموهبة أبي من الأساس، وقد اختصرت مشروعه الأدبي كله في كلمة واحدة «تخاريف»، وعلى العكس من أبي الخيالي كانت أمي شديدة الواقعية، دماغها مشغول بالحسابات ومصروف البيت والطعام، كل ما هو ملموس فقط يشغلها، أما الخيال فلم تقم له أي وزن، بل كانت تزدريه وتسخر منه، والحق يُقال، إن هذه الصفات الأصيلة في أمي جعلت بيتنا مستورًا بشكل دائم، فكل قطعة أثاث عندنا تجولت في دماغها أولًا قبل أن تستقر في أحد أركان البيت، وكذلك خزين الطعام ومؤونة البقالة، موجودة دائمًا تحت الطلب وفي أي وقت، لكن واقعيتها جعلت بعض تصرفاتها فظة، كانت نظراتها قاسية، وكلماتها أيضا. رمت أمامي ذات مرّة صورة لأبي، صورة قديمة مع الخنزير، يضع الخنزير يده على كتف أبي، وأبي يبتسم ابتسامة يشوبها الرعب والانهزام:

«بسبب الخنزير يمكن أن يضيع مستقبلك أنتِ وأخيكِ منصور. وربما مُستقبل خضرا أيضًا».

كانت أمي تطلق لقب الخنزير على عمي الكبير، مُختار، الذي تتهمه دائمًا بالسطو على ميراث أبي، تقول إنه اشترى منه نصيبه في الأرض بثمن أقل كثيرًا من سعره الحقيقي، كانا أخوين، ترك لهما جدي اثنين وعشرين فدانًا، استحوذ عمي على عشرين فدانًا وحده، بأي حق؟! لا أعرف، لا تُجيب على مثل هذه الأسئلة إلا الحكايات، حدث ذلك قبل أن أولد بسنوات، لم أر شيئًا من ذلك، ولكن حال أبي يثبت صحّة

كلام أمي. فقد كان يُعرف من ملابسه لكثرة استخدامها، وبيتنا كله لا يُكمِل قيراط مبانٍ. أما عمي، فكانت له سِنتان أماميتان من الذهب، وساعة فضية بغطاء له نقوش بارزة كدرقة سلحفاة، مربوطة بسلسلة طويلة يخرجها من بطنه، وملابسه أيضا، جلاليبه كشمير بخطوط مذهّبة، أو عباءة جوخ بقطان حريري عريض. أمّا بيت عمي فقد كان يحتل نصف شارع، والغرفة المخصصة له وحده تزيد مساحتها على مساحة بيتنا كُلِّه.

برغم كرهها لعمي، تستضيفه أمي بشكل يليق بالكِرام، أما هو فقد كان عطوفًا عليّ وعلى أخي منصور بشكل لا يمكن أن أتصور معه مسألة سرقة الميراث. حتى وقت قريب لم أكن أعرف على وجه الدقة من الذي أطلق عليّ اسمي؟ بعد أن أصبح سريري جافًّا في الصباحات؛ عرفت بأن عمي مُختار هو من اختار لي اسم فاطمة، واختار اسم أخي منصور أيضًا.

آه. نسيت أن أضيف شيئا، عمي مختار هو الذي جاء بخضرا وجعلها مقيمة معنا بشكل دائم، قال: «هذه البنت بلا أب» وعندما امتعضتْ أمي قال لها: «لماذا تعجبين يا حُسنة؟ فسيدنا عيسى أيضا بلا أب، ربنا قادر على كل شيء. اهتمي بها. البنت منكسرة. وستخدمكم بكل إخلاص» سمعتُ هذه الكلمات من أمي كثيرا، عندما تتحدث عن عمي كانت تبدو كأنها تمثل دورًا في فيلم، فأنا لا أسمع مثل هذه الحكايات المُثيرة إلا في التليفزيون.

3

المـرة الأولى التي قرأتُ فيها قصة لأبي كانت صدفة، قصاصة من ورق وجدتها ملقاة فوق مكتبه الذي ينوء برزم الورق وأفرخ الكربون. لـم أفهـم الكثير وقتها مـن معنى القصَّـة، ولكن كان ترتيـب الكلمات يوحـي بأن من كتبه شـخص خيالي، لم أسـتوعب المعاييـر التي كانوا يقيسون عليها ما يصلح للنشر، ولم أعرف حتى الآن ماذا يعني أن تنشر قصة لشخص ما. وهل تستحق ورقة في جريدة مجهولة كل هذا السهر والعناء؟

أكلتْ حروف اللغة عافية أبي وبددت بصره، تنازلت نصف أسنانه عن لثتها، وتركت المهمة لذرية ضعاف لا تسـتطيع قضم البقسـماط، لبـس نظارة وأقلع عن وضع الفازلين على شـعره الذي وقع هو الآخر كأسـنانه، أصبح يليـق عليه لقب «رجـل كبير» قبل أن يبلـغ الأربعين. عندما كبرتُ سـنتين كان هو قد كبر عشـرا. خلف غبار الطباشير أضاع نصـف عمره، وها هو يحاول في النصف الآخر أن يصبح أديبا، قراءته للكتب بشكل مستمر جعلته موجودًا معنا بجسده فقط، أما عقله فدائمًا في مكان آخر.

تهت بين ممرات أمي الواقعية وصروح أبي الخيالية.

حين أشرع في سرد التفاصيل أنسى أشياء مهمة، فالوقائع تجر خلفها سربًا من الأفكار ذات الصلة.

لم أتكلَّم عن نفسي بشكل كافٍ حتى الآن. اسمي فاطمة، لا أعرف على وجه الدقة لماذا اختار لي الخنزير ذلك الاسم؟ واختار لي كذلك اسم الدلع «فَطّومة». يعتقد مَنْ حولي بأنني طفلة مُنطوية لقلّة كلامي، ولكن الواقع كان غير ذلك بالمرّة، فالعالم الذي ينمو بداخلي لا تسعه السماء بكواكبها ولا الأرض بطبقاتها. أنظر من ثقب طفولتي على المرأة التي سأكونها، كان تكوين صورة عن مرحلة لم تأتِ يُعد عملًا شاقًّا، فأستعيض عن ذلك بالفرجة على الأفلام، خاصة الأبيض والأسود. حفظتُ أفلامًا كاملة بتتابع أحداثها، كنتُ أُمثِّل منها بعض المشاهد وأنا ألعب مع البنات، وأقلِّد رقصات خليعة تنبهني لقدراتي الخاصة. فعلتُ ذلك كثيرًا وأنا وحدي في البيت، تمنّيتُ أن تصبح ملامحي كزبيدة ثروت في فيلم يوم من عمري، ومفاتني كسعاد حسني في فيلم خلي بالك من زوزو.

لا تغيب عن ذاكرتي دائمًا مساحة كبيرة خضراء خلف بيتنا، لعبت فيها كثيرًا مع منصور عندما لم نكن نهتم في الكون كله إلا بالجري واللعب، وخضرا تجلس مبتسمة تتفرّج علينا، بدأ وعيي يتشكل حول بيتنا، وكأنّه عالَم مُصغّر لكل ما أعرفه عن الحياة، حول السنديانة الضخمة نلف ونجري، يكسر منصور غُصنًا نحيفًا ويعطيه لي، ألفّه

برفق فوق نار القوالح المتوهّجة حتى يستدير ويصبح على شكل طوق صغير، أضعه فوق رأسي ويُعجب به منصور، يطلبه ولا أعطيه له، أشعر كأني مَلِكَة، ولا يجوز أن يكون الولد ملكًا، يجري ورائي وله هدف واحد، نزع التاج الأخضر من فوق رأسي، أطلب منه أن يقطع غصنًا آخر من السنديانة العجوز لأصنع له تاجًا، ويرفض، فالأولاد لا يريدون أن يتعبوا في شيء. هو يريد تاجي الجاهز هذا، وأتمسّك به، ألفُّ فوق إطاره ضفيرتي الطويلة كي لا يستطيع خطفه من فوق رأسي، يجري منصور ورائي، أسبقه ولا يمكنه اللحاق بي، نطوف حول البيت طوال النهار حتى ترانا أمي، فتعطي منصور جاروفًا ومقطفًا وتعطيني مقشة، أكنس قن الدجاج وما حوله، ثم أركب المقشة وأزحف بقدمي في الأرض النديّة حتى أترك مجال البيت نهائيًا، ومن خلفي يركب منصور أيضًا، أشعر بأن المقشة تُسرع بنا، يهيأ لي بأنها سوف تصعد كالبساط إلى السماوات البعيدة، تتلوث أحذيتنا بالروث، نُلقيها في الترعة لتنظفها المياه، نصطادها بعد ذلك بعود غاب ننزعه من على الشاطئ. ثم نجلس نتابع أسراب أبو قردان البيضاء وهي تطوف من شاطئ إلى آخر. تعبر المراكب الصغيرة وتقف على أعواد الكافور. وعندما ينتصف الليل يجمعنا الكبار ويحبسوننا داخل الجدران لننام. كنت أحسد السحالي التي تصنع جحورها بنفسها لتدخلها وقتما تشاء، وأود لو يأتي الغد سريعًا لنطوف أنا ومنصور حول البيت من جديد.

4

الآن، كُسِر مجداف العودة بالزمن، لم يعد باستطاعتي إلا التجديف للأمام، فيما عقلي منشغل بالربط بين المرحلتين، رضيتُ في النهاية بأن أكبر وأصبح امرأة، وأن تكون لي خبرة أتحدث عنها مع البنات. تركت الطفلة التي كانت بداخلي لتسكن أشخاص صِغار غيري، ملابسها لم تعد تناسبني، انفصلتُ عنها بمسافة كبيرة، كنت أتذكرها أحيانًا عن طريق كلمة منفلتة أو ذِكرى مُلحة.

تغيرات متتالية كانت تحدث لي ولا تحدث لأخي منصور، فالفرق بيننا سنة واحدة في شهادات الميلاد، ولكن الفرق الفعلي أنني أصبحتُ مؤهلة للزواج والإنجاب وهو لا يزال طفلا.

في سن السادسة عشرة كنت أتصور بأني أقع كل يوم في غرام رجل مختلف، أحلم به لليلة ثم أنساه في الصباح، حدث ذلك ذات مرة مع صديق أبي، وحدث أيضا مع جزار كنت أقطع منه كيلو لحم، ثم أحببت صبي الجزار الذي يصغرني بسنة، انشغلت به لمدة ثلاثة أيام كاملة، كانت هذه هي أطول مدة قضيتها وأنا أفكّر في شخص واحد،

ولكني نسيته بعد أن رأيت الجزار الكبير يصفعه على قفاه، وعندما تأملتُ الجزار نفسه، حبي الأول، اكتشفت فيه عشرات العيوب، فله كرش صلب كأنه خزان لعظام الذبائح، وأسنانه مهشمة ولسانه يطرد الزبد الأبيض فوق شفتيه طوال الوقت.

بين كل شخص أفكر فيه والشخص الذي يليه؛ كنتُ أُشبِه كوب كريستال فرغ منه سائل، وهو دائم الانتظار ليملأه سائل جديد. تَشكَّلت كلمة «رجل» في خيالي من خلال الأحلام والهواجس والفرجة على الأفلام القديمة، وكذلك من خلال تأملاتي الصامتة في قريتنا الصغيرة، إحساس غامض ينتابني عندما أدقق النظر في الحقول المحروثة وعيدان الذرة الطويلة، عندما تنبسط الأرض الخضراء وأشم رائحة الفول والبرسيم، أرى الحُفر والطين والبِرك، العيال الذين يُشبهون بعضهم بعضا، والعيال الذين يشبهون آباءهم، كنت أتجول في القرية كصياد لا يعرف شيئا عن فريسته، أعود وأنا لا أسمع إلا صوت نبض قلبي ووقع خطواتي. أعرف بأني سأقابل من أبحث عنه في مكان ما. ولا تسألوني كيف كنت أعرف.

تأكدتُ يوم أُصيبتْ ساقي بأني أمتلك شيئا لا يملكه الرجال، شيئا يلهثون وراءه. الرجل الأول، صديق أبي، كان يعلمني كيف أركب الحصان، كنا جميعا في حقله، نحتفل بشم النسيم، أكلنا الرنجة والبصل وشربنا كل ما معنا من ماء بارد، بعد ذلك سحب الرجل حصانه أمامنا، قام صديق أبي المُضيف ودعاني للركوب، رفعني

بيديه الكبيرتين، تدلت قدماي إلى جانب واحد، جلس خلفي وقدماه منفرجتان، جعلني أمسك اللجام في يدي، ومشى الحصان ببطء لدقيقة واحدة ابتعدنا خلالها عن رائحة الرنجة، بعد دقيقة أخرى كان صديق أبي يعدل من وضعية اللجام فيمسك يدي مع السير، وأنفاسه الحارة تلفح أذني من الخلف، تُطيِّر بعض شعيرات ظهرتْ من تحت الإيشارب القصير. حكى لي كيف اشترى هذا الحصان، وكيف يعتني به ويحممه. كانت كلماته رقيقة تشبه الوشوشة. توقف عن الكلام عندما مرَّت فرسة بجوارنا، فتوقف الحصان عن السير وتسمَّر في مكانه، ثم سرعان ما ألقى بنا على الأرض وجرى خلف الفرسة، قفز فوقها، أمسكها من الخلف بكل قوته، استقر بداخلها، غاص ولم يبق منه شيء. قام الرجل ينفض ملابسه، وأنا الْتوَت ساقي، لكني لم أشعر بها، خرجتْ مني صرخة أعلى مما كنت أتوقع، لم أهتم إلا بالصورة، تركز اهتمامي في شيء أكبر من الألم، الحيوانين العاشقين اللذين غاص أحدهما في الآخر.

وقت كبير أنفقته وأنا أفكر في علاقتي بالأشياء، جاء بي أبي إلى هنا لنحتفل بشم النسيم، ومن قبلنا جاء صديقه إلى المكان نفسه، وصديقه جاء بالحصان، والحصان جلب الفرسة التي جاء بها صاحبها إلى هذا المكان دون موعد سابق، وسألت نفسي سؤالًا أخيرًا: لماذا جاء يوم شم النسيم في ذلك التوقيت بالذات؟

في تلك الليلة البعيدة حلمت حلمًا غريبًا، رأيتني وقد أمتطيتُ ظهر حصان له خمسة قوائم، تحرث حوافره الناس والبيوت، مرّ كأنه طيف،

وكأن كُل مَـنْ حوله خيالات كبيرة شكّلها ضوء ضعيف، على صدري تستقر بندقية معلقة بسير متقاطع، يحتل من كتفي حتى خصري، أرى أمامـي ملامح جميع مـن أعرفهم، ثم أراني أخلـع البندقية عن رقبتي، وأصـوِّب فوهتيها إليهم، أهددهم بأني سـأقتلهم جميعًـا إن لم يقولوا لي الحقيقة.

5

لا أستطيع قول شيء عن حكايتي إلا من خلال ما تحمّلتْ ذاكرتي تخزينه، ومضات واهنة سرعان ما تتبخر كالسبرتو. كنت أحاول أن أرى ملامحي الحقيقيّة، وليس القناع الذي يريدون أن يلصقوه بوجهي.

لكي تستقيم الحكاية لابد أن أرويها منذ بداياتها البعيدة، منذ حركة الرحيل الأول، عندما تركتْ نطفتي مستودع أبي واستقر بها المطاف في أحشاء أمي، كانت في التاسعة والعشرين، وأبي في السابعة والعشرين. لازمتْ هذه العقدة أمي طوال حياتها، كانت تشعر بسبب فرق عامين بأنها أمه وليست زوجته، لم يحرمها هو من ذلك الشعور الغريب، كانت تجلس بشعرها الأبيض أمامنا أنا ومنصور وخضرا في الأماسي الصيفية، ينظر أبي إليها، وعندما تلمح نظراته الحزينة تضع شالًا فوق رأسها أو تتظاهر بالانشغال بشيء معتاد من أمور البيت.

خلال العشرين سنة هي عُمر زواجهما؛ كنت ألحظ ترقبًا طويلًا بينهما، لا يرد أبي مباشرة على استفسارات أمي، وهي أيضًا، تتصنع عدم السمع، وتفضحها بصَّتها التي تستقبل الكلام مع أذنها. لم أكن متأكدة من سبب المشكلة الحقيقية بينهما، ولماذا جاء زواجهما على

هـذا النحو؟ هي أكبر منه بسـنتين، عندما كانتْ تصلـح أُمّا؛ كان يلعب بالطوب في الشـارع، أو يخلع ملابسـه وينط في الترعة، وبدأتُ أقارن بين شـكل أمـي قبـل زواجها فـي ملابسـها الأنثوية وأبي فـي ملابس الأولاد، هـي اكتملـتْ أنوثتهـا وظهـرتْ معالمهـا، وهـو بالـكاد خط شاربه. لهذه الأسباب كان من الضروري أن تكون الزوجة أصغر بكثير من زوجها.

في هذه السن كنتُ منشـغلة بالتنقيب عن نفسـي المطمورة تحت ركام العادات القاتلة، بحثتُ عن نفسـي التي سأكونها في الشخصيات التي تـدب الأرض من حولي، قـررتُ قرارًا خفيًّا بأننـي لن أتزوج إلا من رجل يكبرني بسـنوات كثيرة، عندما نبتـتْ مثل هذه الأفكار بدأت التغيـرات الداخلية تطـرد الطفلة التي كنتها وتلقي بهـا بعيدًا، وتجلب المرأة التي سـأكونها وتُقربها من خيالاتي وأحلامي، اسـتحوذ الكائن الجديد على مشـاعري المتناقضة، تصرفاتي كأنها تصدر عن شـخص آخـر غيري. كنـتُ أدّخر من مصروفي المحدود لمدة شـهر لأشـتري حمالة صـدر صغيرة تناسـب التفاحتيـن البارزتين حديثـا، أُغلقُ عليَّ الغرفـة وأخلـع كل ملابسـي، ثـم أرتـدي الحمّالة فقـط، أضغط على التفاحتيـن بقبضتـيّ، أتأمل شـعري بعـد أن أفك «التوكـة» التي تقيده، ألفُّ مرتين وأرى نفسي من الأمام، أعطي ظهري للمرآة وأنظر بنصفي الأعلـى فأرى التـواء خصري وبـروز مؤخرتي، كأني مصور يسـتمتع بالتقـاط الصور المثيرة، تتجول عيني بين الحمالة والبروزات الجديدة

التـي طرأتْ ولا أفهمهـا، اجتاحتني رغبة في معرفة كل الأسـرار دفعة واحـدة، كنـت أخرج مـن الغرفة بعد أن أعود لسـيرتي الأولى، أشـعر وكأني شربتُ من بحر، وما زادني الارتواء إلا مزيدًا من العطش.

بعـد أن أسـرح في الملكـوت أعود مـرَّة أخرى لواقعـي الأرضي، أرى أمي وهي جالسـة، صامتة أغلب الوقت، أعطى ذلك لها رهبة في قلبي لا أسـتطيع تجاوزها حتى الآن، كانتْ تتغلب على ملل الساعات الطويلـة بـأي عمل بالبيت، حتى ولو كان تافها، تندمـج فيه بإخلاص وتفانٍ يسـتدعي الغرابة، كأن تركز اهتمامها في تجميع بعض الكراسـي من ركن البيت اليمين إلى رُكنه اليسـار، ثم تعيدها دون سـبب واضح مرة أخرى إلى اليمين، أو وهي تشترك مع خضرا في تقطيع قشر البطيخ بالسـكين فـي حجم فصوص الثوم وتضعه مـع الأرز المبلل بالماء في قـن الدجاج، تدخـل صامتة وتخـرج صامتة، لو زارنا شـخص غريب لاعتقد بأنها خرساء. كان أبي يرد على الصمت بصمت مضاد، كأنهما يوفيـان نذرًا ودينًا بالصوم عن الكلام، الصوت البشـري الوحيد الذي كان يدب الحياة في أركان البيت هو صوت أخي منصور.

بدأتُ أسـأل نفسـي أسـئلة لم تخطر على بالي من قبل، كان أغلبها مرتبطا بمعنى الحياة.

لـم أكـن متأكدة من شـيء ما تمـام التأكـد، ويقيني تنقصـه العافية التي سـرقها الخيال، كنت أركِّب رؤوس شخصيات من أحلامي على أجساد أشخاص أعرفهم، بل أبدل رأس أبي على جسد أمي والعكس،

أستخرج من أحلامي أحلاها، أصطفي منها رجلًا وامرأة وأتابع حياتهما التي رسمتها في دماغي، أتخيل لهما قصصًا تكون أكثر تفاؤلًا من الواقع الذي أعيشه بالفعل، فقد كان بيتنا كئيبًا، لا تُقال فيه كلمات رومانسية كتلك التي تملأ الأفلام العاطفيّة، فعندما يضحك أبي في وجه أمي لا تُجاريه بنفس الحيوية، وأظل في حيرة، أحاول التوفيق دائمًا لضبط النغمة.

لم أستطع منع نفسي من التساؤل: لماذا تزوج أبي من أمي وهي تكبره بعامين؟ لم أصدق بأن القدر وحده هو ما جمع بينهما. انفلتت من جدتي لأمي كلمة مبهمة قبل أن تموت بأيام:

«لم يكن لأبيكِ أن يطول ظفر أمك لولا ما حدث».

انحصر همّي كُلّه في كلمة واحدة، قلَّبتها كثيرًا على جميع الاحتمالات «ما حدث»، ما هو ذلك الشيء الذي حدث ولا أعرفه؟

لم يتكشَّف لي الأمر ناصعًا إلا قبل زواجي بأيام..

حكاية جدَّتي ليست هي الموضوع، ولكنها كانت ضمن مقدمة مثل مقدمات الكتب التي كان أبي يحتفظ بها في مكتبته. أمّا الموضوع نفسه فسيأتي بعد قليل.

6

بـدأت الحكايـة تدخل في الجـد عندما بلغتُ الثامنة عشـرة، تقدَّم لخطبتـي شـخصٌ لا أعرفه، قالت أمي إنه من جيرانـنا القُدامى، ولكنه سـافر إلـى القاهـرة مـع أبيه منـذ كان طالبًـا، تخـرَّج في كلية الشـرطة وأصبـح ضابطًـا برتبة رائد، وابـن الجيران هذا اسـمه خالد، وسـامته معقولة، تعطيه البدلـة البيضاء وجاهة لا تخطئها عين، وأنا، كما كانت أمي تقـول «جوهرتي في وجهي». وبالفعل، ما جذب خالد إليَّ كانت ملامحـي الطفولية كما قال لي فيما بعد. ولكن هل الثمانية عشـر عاما التي عشـتها تصلح للعيش بجوار الاثنين والثلاثين عاما التي عاشـها؟ عكس ما حدث مع أمي التي قالت رأيها سريعًا:

«خالد ابن حلال. ضابط شرطة محترم وعارفين أصله وفصله».

فـي اليـوم التالـي قالـت لـي السـبب الحقيقـي وراء قبولهـا خالد زوجًا لي:

«لا أريـد أن تُخطئـي مثلي. عندما تكـون الزوجة أصغر من زوجها ترمي حملها كله عليه. لكن لو كان حالك مثل حالي سـيصبح زوجك هو ابنك البِكري».

لماذا كانتْ أحلامي أكبر من واقعي.

أرى الدنيا مُغلَّفة بطبقة من أمنيات ضبابية ملونة، ساعدتني كلمات أمي في تخيل أنني أحب خالد فعلًا، لم يكن حبًّا بالمعنى الناضج المفهوم، بل كان مقترنًا برغبة عارمة في لبس فستان الفرح، والذهاب إلى الكوافير بزفَّة، والخروج من الاستديو بزفَّة، أركب سيارة مُزيَّنة ببوكيهات ورد من الأمام ومن الخلف، أدعو صديقاتي وأغيظهن، فأغلبهن لم يخرجن بعد من مرحلة البكاء أمام الأفلام العاطفية أو لعب الحجلة في الشارع. كنتُ أحلم بالتصوير في الاستديو وأنا أمسك بوكيه ورد أحمر، لقطات كبيرة تزين جدران عش زوجية أرتبه على مزاجي، أتخيل عرائس كبيرة ملونة تطير في فضاء غُرفة نومي المنسقة، سأجعلها أفضل شقة في الدنيا، مطبخي يوضع فيه شفاط لطرد الروائح غير المرغوب فيها، وحمّامي به معطر برائحة الياسمين ليجلب أحاسيس مُنعشة، وغرفة نومي، سأعلق فيها لمبات ألوان الطيف، سبعة ألوان بعدد أيام الأسبوع، كل يوم بلون مختلف ورائحة مميزة، أمَّا السرير فيلف ويدور بمزيكا، تنطلق فور لمسه والاستلقاء عليه، سأضع صور الفرح في ألبومات غالية لتحفظها، تُفتح وتُغلق بموسيقى رقيقة تناسب كَمّ الابتسامات في الصور.

لم تكتفِ أمي بالموافقة المبدئية على خالد كعريس لي، ولكنها أصرت على سماع رأيي دون مواربة، سألتني قبل الرد النهائي على طلب يدي:

«ما رأيك يا فاطمة؟ أنا أرى بأن خالد لا يعيبه شيء..».

استيقظتْ كائنات أحلامي كلها في ثانية واحدة، حضرتْ أمامي فجأة أحاديثي مع البنات عن عريس المستقبل، كل واحدة منهن راحت تُشبّه عريسها المنتظر بممثل أو مغنٍّ، وكان بعضهن يحتفظن بصور لهؤلاء الفنانين كنوع من البُشرى بما سيحمله لهن المستقبل، كان خيالهن يجمح بلا لجام، فيتخيلن رجالاً يحملوهن ويطيرون، وكلمات الأغاني تختلط في رءوسهن مع تفاصيل الواقع، فيصنع ذلك الهجين كائنات حالمة تسبح في أبخرة ملونة وعطور.

«لماذا لم تردي عليَّ يا فاطمة؟».

تسألني أمي مرَّة أخرى، وأتذكر زميلاتي البنات من جديد، كنتُ الوحيدة التي ستحلم بملامح محددة بدءًا من اليوم، ملامح خالد، لم يكن وسيمًا كالشباب الذين يحبون الفتيات في أفلام السينما، ولم يكن يشبه الأشرار أيضا في الأفلام نفسها، له شنب رفيع يليق بمدرس ابتدائي لا ضابط شرطة، وجهه مستدير ويقص شعره على طريقة «البانك».

«الناس ينتظرون ردّك يا فاطمة».

«هو لا يعيبه شيء يا ماما».

«لا تتعبيني معكِ. نعم أم لا؟».

كان يجب عليّ الاختيار دون مواربة، تقافزتْ أمامي صورة لليلى، جارتنا التي تكبرني بأربعة عشر عاما ولم تتزوج حتى الآن، يقولون إنها كانت أيضا جميلة، ذلك قبل أن يترهل جسدها وتنمو شعيرات تحت أنفها لا تُخطئها عين، بعد أن تخطَّت ليلى الثلاثين بعامين فقدت الأمل في الزواج، اقتصرت حياتها على خدمة أبيها المسن في بيت صغير مقابل لبيتنا، كنتُ أرى صورها القديمة ولا أصدِّق بأن تلك الفتاة الصبوحة الرشيقة هي نفسها ليلى الكئيبة المترهلة.

«أنا داخلة أعمل لهم شاي».

قالت أمي وتركتني أسرح بعيدًا عن الناس والأشياء، تملَّك منّي الخوف، فصورة ليلى عادت تجتاحني من جديد، لا أعرف لماذا ثبت خيالي صورتها وهي تنزل السلالم بصعوبة تناسب امرأة بدينة، تحمل سلّة السوق الخضراء وتلف حول رأسها طرحة سوداء، يقول لها البائع الأسعار وهو يناديها «يا مدام». كانت الكلمة تخنقها وتشعرها بضيق دائم، مع مرور الأيام وتكرار اللقب أصبح الضيق مؤقتا، ثم سرعان ما تعودتْ عليه.

بعد قليل مرّت أمي أمامي وأنا شاردة، كانت تحمل صينية الشاي، قلتُ لها:

«شكله حلو».

«إذن أنتِ موافقة؟».

«لا زلتُ أفكر»

«دلع بنات»

«أشوف»

«ماذا نقول للناس يا فاطمة؟»

«شكله ابن حلال»

«موافقة؟»

أومئ برأسي دون كلام، تضع أمي صينية الشاي على رُخامة المطبخ:

«خلاص رجعي الشاي. وأنتِ تعرفين ماذا سنعمل لهم بدلا منه».

بعد أن خرجتُ إليهم بكئوس الشربات تغيّرت نظرتي للحياة، فقد كنتُ حتى الدقائق القليلة الفائتة بنتا عادية، ولكني الآن أصبحتُ عروسًا.

7

لـم تتكلَّم أمـي كثيرًا مع أبي في مسـألة زواجي مـن خالد، ولكنها أصـرَّت على ضـرورة موافقة الخنزير، عمي مُختـار. قالت إن زواجي لن يتم إلا بموافقته، ولابد أن نذهب إليه في زيارة خاطفة.

ارتدتْ فستانا نبيتي قليلا ما كانت تلبسه، فهو مخصص للمناسبات المهمة فقط، قالتْ إنها ورثته عن أمها. تعطَّرتْ وانتعلت حذاءً بكعب عـالٍ لا يليق بالتجول في الشـوارع الطينيَّة الضيقـة. وقفتْ أمام المرآة وهي تُعدِّل من وضعيَّة «الكورسيه» تحت الفستان ليشد بطنها ويُظهر تناسق صدرها، وسألتني:

«أظن تمام؟».

وأهز رأسي دون إجابة.

تسـحب شـالًا خفيفًا روز وتضعه على رأسـها، تُبيِّن من تحته قُصة صغيرة تصـل لحاجبها. نخرج من البيت، تغيب الشـمس وتبدأ ظِلال الناس والجدران تنبسط على الأرض، من البعيد، بدا بيت عمي كقلعة تضيئها شـموع كبيرة، سـرعان ما أظلمـت الشـوارع الضيقة وظهرت

الإضاءة قويّة فوق أعمدة البيت الخارجيّة، المنظر مناسب تمامًا للفكرة المُسْبقة في رأسي عن البيت وصاحبه.

كانت أمي تخطو بأنوثة وكِبر، وأنا أتابع نظراتها المُصوَّبة باتجاه البيت الكبير، نصل بعد قليل، تقف أمي شاردة وهي تتأمَّل نافورة رخاميّة تستقبل الزوار أمام مدخل البيت، تخلع نعليها وتبقى بالجورب، تضم كفيها أمام المياه المنسابة من النافورة وتغسل يديها ثلاث مرات، ثم تمدّ يدها المبلولة تحت شالها الروز الخفيف، تُمسِّد شعرها من غبار الطريق وتعود إليّ مرة أخرى:

«أظن أننا جاهزون الآن للدخول».

خلف النافورة كان هناك حارس نعسان في يده بندقيّة، ما إن رآنا حتى هبَّ واقفًا، يبدو من نظراته أنه كان يعرف أمي ولا يعرفني، فأفسح لنا الطريق، مشت أمي بأنفة في اتجاه الدخول، كأنني أراها للمرة الأولى، فقد كان من الصعب عليَّ أن أفكر فيها كأنثى، لها ما للإناث من دلال، في هذه المرَّة تسللتْ إلى نفسي رائحة زهو تفوح منها، يُشبِه منظرها زهرة تعرف أنها تتفتَّح، كانت جميلة دون تكلّف برغم اقترابها من الخمسين، تحمل حُسنها معها دائما أينما ذهبتْ، كما يحمل عمي مُختار مِسبحته الطويلة أينما جلس. أعطاها عدم التزين الكامل زينة أخرى من نوع خاص.

سبقتْني بخطوة، غمرتها هالة من الضياء عند الدخول، التفتُّ إلى جواري فرأيتُ نورا أزرق أُضيء فجأة وتماهى مع فُستان أمي النبيتي

وشالها الروز، شعرت كأني أغوص في حلم. مشينا فوق أرضيَّة فيها عناقيد من ضوء أبيض يُفضي إلى بهو كبير. رأيناه جالسًا كما هو، لا يمر عليه زمان ولا تشيب له شعرة، عمي مختار. يجلس مقرفصًا وفي يده مسبحته العنبر، يدوِّرها بين أصابعه، تُصدر صوتًا كطقطقة حطب جاف يشتعل. كان وجهه مدوَّرًا وممتلئًا كأنه أكل وحده خروفًا كاملًا، تلمع ناصيته وترتجف شفتاه بتبتل وخشوع الورعين. اقتربتْ أمي من مجلسه وقالتْ:

«فاطمة تقدَّم لها عريس».

لم يتغير شيء في قسماته. ولكن سرعة دوران المسبحة ازدادت قليلًا وهو يقول:

«عريس؟! بسم الله ما شاء الله. تعالي يا فطّومة».

فرد ذراعيه على وسعهما كما يفعل شخص كبير مع طفل يحبو، جلستُ إلى جواره فضمني بقبضتيه الكبيرتين وطبع قُبلة أبويَّة على جبيني. جلستْ أمي بعيدا عنه وقالت:

«جئتُ إليك كي أشورك وآخذ رأيك».

ابتسم عمي ابتسامة عريضة، سرعان ما تحوَّلتْ ملامحه إلى مؤشر الصرامة وقال:

«لا يخيب رجاء من توكل على الله يا حُسنة. خالد مناسب جدًّا لفطّومة؛ لأنني أنا من أرسله. لكني برغم ذلك كنت أنتظر هذه الزيارة؛ لأتأكد من أنني لا أزال كبيركم».

لم أفهم من كلام عمي شيئًا، كيف تأتي أمي إليه كي تستشيره في العريس الذي أرسله ليخطبني؟ كان الغريب في الأمر أن أبي لا يهتم بأمرنا مثلما يهتم عمي مُختار، فعمي منشغل بتغيير العالم في الواقع، أما أبي فيغيره في خياله فقط.

ربت عمي على كتفي بحنو واضح:

«أم خالد قبل زيارتكم كانت عندي. وتكلمنا في كل التفاصيل. ستتزوج فطومة ويكفي هذا القَدر من التعليم. لا تنسي يا حُسنة بأن ليلى خريجة جامعة».

ثم طرقع بإصبعيه، فجاء ولد نظيف الملبس ووضع أمامنا كأسين من عصير لم أذق مثل طعمه من قبل، تجرعتْ أمي كأسها كله مرة واحدة، وأنا لا أزال في منتصف الكأس أُخمِّن هوية هذا المشروب غريب الطعم، يقوم عمي ويترك أمامه طبقا كبيرا فيه أصناف شتى من الفاكهة، يحجب عنَّا جسده الكبير نصف أضواء المكان، يمسك في يده تفاحة قبل قيامه ولا يأكل منها، لكنها كانت كعصا يشير بها عند حديثه:

«طبعًا سوف تقولين إن فطومة صغيرة على الزواج».

ثم يلقي بالتفاحة في حجر أمي الجالسة، تلتقطها بيدها وتنظر إليها مليًّا دون أن تأكل منها:

«لن أقول لك ذلك. لكنني سوف أسألك لماذا اخترتَ لها خالد بالذات يا مختار؟».

ويبدو أن السؤال لم يَرُق لعمي فتجول حولنا وهو يجرجر عباءة ثقيلة مطرزة بالقصب والقطان المُذهَّب:

«خالد ضابط شاطر، وأي ضابط لابد سيصبح لواء، وهل تحلم امرأة في مثل هذه الأيام أن يكون زوج ابنتها لِواء؟».

لم ترد أمي، ويُكمل عمي:

«ثُم. أنتِ تعرفين يا حُسنة أن كل شيء مكتوب. عمرنا ما نختار. نحن فقط أداة في يد العليم الخبير. لكن نقنع أنفسنا بأن الموضوع كله في أيدينا».

ثم التفت إليّ وحمل صوته نبرة شجن:

«وأنتِ يا فطومة. سوف أنبسط جدا لو عرفتُ بأنكِ سعيدة في حياتك. ربنا يتمم عليكم الفرح».

لم تأكل أمي من التفاحة، ولم أمد يدي إلى أية فاكهة، لكننا خرجنا كما دخلنا من البيت الكبير، تشعر أمي بأنها فعلتْ ما عليها وزيادة، وأنا لا أرى داعيًا لمثل هذه الزيارة من الأساس.

أتأمل ملامح عمي الكبيرة، لا أتذكر أول مرة عرفت فيها بأن لي عمًا خنزيرًا، كنتُ صغيرة لدرجة أنه يحملني على ذراعه، دخلنا سينما، لا أتذكر الفيلم، بل أتذكره، كان فيلم ضربة شمس، المرة الأولى التي دخلت فيها السينما، لا أعرف أين كان موقعها، لكن بعض مشاهد الفيلم تعاود المرور أمامي كأني رأيتها بالأمس، نور الشريف

يجـري بالكاميرا، وتجري من خلفه سيارة، لكنـه كان ماهرا في القفز فوق سـور، لم تصدمه السيارة، أفلـت بكاميرته، لا أعـرف لماذا كان يجري، لكني أحببتُ ذكاءه، واللبانة التي كان يمضغها، لذلك يسمونه بطلًا. لمـاذا لا يصبح جميع المتفرجين أبطالًا؟ شـاهدت الفيلم كثيرا بعد ذلك في التليفزيون، لكن كان للسينما طعم آخر.

خرجنـا مـن بيت عمي أنـا وأمـي شـاردتين، لا أعرف فيـمَ تفكر، ولكنـي أتذكـر جيدا فيمَ كنتُ أفكر، تشـغلني فكرة اهتمـام عمي بأمي أكثـر من اللازم، كانتْ مشـاعري تتصلب عند هذه النقطة كلما فكرت فيها، لا أسـمح لخيالي بتجاوزها والاستمرار في رسم أحداث وهمية عن علاقة ما بين أمي وعمي، لكن كيف يمكن لعلاقة أن تنشأ بين اثنين يتربصان ببعضهما بعضا بشكل دائم، فأمي تسمي عمي «خنزير»، وهو يناديهـا باسـمها دائما وكأنها ابنتـه، لكن في لحظات معينة لم أسـتطع تخيـل حياتـي بدون شـخص قوي يهابـه الجميع، وهذا الشـخص في خيالي دائما كان عمي مُختار. أما أبي، فحياته الشاعرية جعلته منسحبا بشـكل دائـم، لا يقوى علـى هش ذبابـة إلا بعد أن يستشـير مَنْ حوله، وكانـتْ علاقتـه بأمـي علاقة صامتـة تغيب عنهـا حيوية الحيـاة، حتى الكلمـات فاتـرة، يسـتعين بكلمـات يحفظها مـن تراكيـب الجُمل في كُتب مكتبته الصغيرة، وترد عليه أمي بُجمل حيّة من الحياة، توضح له الفرق الكبير بين دخْلنا الهزيل وما ننفقه؛ لذلك السـبب بالذات كانتْ تغلبه دائما وتمارس عليه سُلطة الواقع، ولا يستطيع خياله الضعيف أن يقاوم، فيرد بكلمات غير مترابطة تشـبه الأشـعار المتكلّفة، أو يصمت

ويختفي من أمامها. نشأتُ في حيرة بين الأسلوبين، كنتُ أحب قوة أمي وثقتها في نفسها، وفي الوقت نفسه أشفق على أبي بشكل دائم.

نترك خلفنا بيت عمي والشوارع الفسيحة المليئة باللبلاب وأعواد الكافور المنسَّقة، عند أول الشارع تقف السنديانة الكبيرة كحارسة أبديَّة. نصِلُ بعد قليل إلى شوارعنا الضيقة التي تميزها رائحة فضلات الطيور، أعرف أننا اقتربنا عندما أرى دوامات الناموس حول أعمدة الإضاءة الشاحبة، تسير أمي بخُطى بطيئة وهِمَّة أقل بكثير من لحظة ذهابنا، أمشي من خلفها تتعثَّر خُطاي في الظلام، وكعب أمي العالي لا يتعثر، ينغرس في الأوحال التي يمتلئ بها الطريق ثم يخرج سليما، مُستقيما يدق الأرض من جديد.

8

«لماذا وافقتِ بسرعة على العريس؟ فاطمة لم تزل صغيرة».

قال أبي فيما كانت أمي تكتب ورقة بما سنحتاجه للعُرس في الأيام القادمة.

«اختاره لها أخوك مُختار».

يتفحّص أبي بين أصابعه ورقة كربون هالكة:

«ما دام هو من اختاره فعلى بركة الله. مختار أكبر منّي بعشرين سنة. وأكيد يعرف المصلحة أكثر».

قال أبي هذه الكلمات كمن ينفي عن نفسه تهمة كبيرة ويلصقها بشخص أقوى، كان يتعامل بطيبة زائدة مع كل ما يخص عمي مختار، إذا أغضبه لسبب تافه كان يؤنب نفسه لليالٍ طويلة، لا يغمض له جفن إلا بعد أن يذهب إليه ويسمع منه كلمة «سامحتك يا طاهر» ويتعجب كذلك من تبجح أمي وطول لسانها على أخيه الأكبر:

«يجب أن نشكره على وقوفه بجانبنا».

يقول أبي وهو منشغل بأوراقه وكربونه، تخرج كلماته من قشرة المخ، بلا عُمق أو ثقة، أحاديث قزقزة اللب كما كانتْ أمي تقول:

«لو يطول يجعلنا كلنا خدامين فلن يتأخَّر. وفي الآخر يطلب منا أن نشكره، لا أعرف على ماذا!».

ترد أمي بمثل هذه التعليقات المُستفزَّة دائما، وأبي يزيد من غضبها بصمته المعتاد.

هكذا بمنتهى السهولة، يختار لي عمي مختار خالد عريسًا، كما اختار منذ تسعة عشر عاما أمي كي تصبح عروسا لأبي. فلم يكن مُقدرا لأمي أن تتزوج من مُدرس ابتدائي كما حدث بالفعل، فتح المأذون دفتره ليعقد زواجها من شخص ميسور يعيش في القاهرة؛ ولكن فوجئ الجمع الموجود في عقد القران بجلبة تحدث بالخارج، اجتاز جدي لأمي وزوجته عتبة الدار ليجدا عمي مختار يقف أمام الباب ومعه أكثر من عشرة رجال يركبون البغال والحمير، ما إن خرج المدعوون ليشاهدوا ماذا يحدث بالخارج؛ حتى طوَّق الرجال بدوابهم الدار التي لا تزال أمي بداخلها. خرج العريس المفترض وهو يتظاهر بالتماسك، ومن خلفه خرج أهله ينظرون، ولكن عمي مختار لم يعطهم فرصة كبيرة للتفكير:

«لو كانت حياتكم تعزّ عليكم فلابد أن تنصرفوا من هنا حالا. حُسنة لن تكون لأحد غير طاهر أخي».

وعندما كان العريس وأهله لا يزالون في مرحلة الاندهاش، اقترب عمي وأشهر في وجوه الجميع مقروطته القصيرة ذات الفوهتين، أخرجها من عِبه فجأة وضرب بها طلقات طائشة دوت في الهواء، شق صوت الأعيرة الناريّة السكون الليلي في القرية الصغيرة، ساد الصمت لثوانٍ قليلة، ثم أطلق عمي مختار عيارا مُصوّبا بدقّة إلى رأس حمار يركبه أحد رجاله، اختل توازن الحمار ثم ألقى بالرجل الذي يركبه أرضا، سرعان ما جذب الحمار المحتضر أنظار الجميع، ظلوا يتابعون تشنجاته حتى فاضت روحه. لفّ عمي بالبغلة البيضاء التي يركبها دورتين حول الحيوان القتيل:

«أنا عندما أريد أن يموت أي كائن فلابد أن يموت. المسألة في مٌنتهى البساطة».

اقترب أبو العريس الذي لم يُدوّن المأذون اسمه في دفتره بعد وقال:

«وماذا تريد منّا يا مختار؟».

يرفع عمي بندقيته الصغيرة في الهواء دون أن يطلق منها أعيرة أخرى:

«العروس التي تتزيّن بالداخل هي عروس أخي طاهر وليس أي شخص آخر. ومن يعترض على كلامي فليسمعني صوته».

طالت بين الجميع همهمة دون كلمات واضحة، لم يُنْهِ تبادل الحديث إلا صوت عيار واحد أطلقه عمي في الهواء وهو يهتز بزهو

فـوق ظهر دابتـه، تاهت ملامح أهـل العريس بين الموافقـة والرفض، كمـا تتـوه ملامـح البغل بيـن الحمـار والحصـان، وأخيرا، اسـتجمع أبـو العريـس شـجاعته وقال وهـو ينظر في عينـي البغلة البيضـاء التي يركبها عمي مختار:

«نؤجل هذا الكلام فيما بعد».

دارت البغلة ومن فوقها عمي دورات سـريعة حول الحمار القتيل، ثم قفز قفزة واسعة فوق جثة الحيوان الملقاة على الأرض:

«فيما بعد؟ لا. الآن».

تشـاور العريس المُفتـرَض مع أبيه وأمه ولم يـردوا على عمي، بل دخلوا إلـى دار أمـي كيفما خرجـوا، واقتـرب جدي لأمي مـن البغلة البيضاء أكثر مما يجب:

«حُسنة لطاهر».

هكذا قال عمي مختار حاسمًا القضية.

صمت جدي ولم يرد، وبعد أن استجمع شتاته قال:

«طاهر ليس غريبًا عنًا. ولن نجد لحُسنة عريسًا أحسن منه».

ابتسـم عمي مختار ورفعت البغلة التي يمتطيها رأسـها عاليا. شـدّ سير اللجام وهو يسأل جدي:

«وأين ذهب العريس القديم وأهله؟».

أمسك جدي بلجام البغلة التي يمتطيها عمي وأشار إلى باب داره:

«دارنا لها بابان يا مُختار. الباب الكبير الذي تراه هذا للخروج والدخول. ومن الخلف هناك باب آخر للهروب».

بعد أيام قليلة انطلقت زغاريد وظهرت نساء يحملن أقفاصًا وأسبتة محملة بالشربات وزجاجات ماء الورد وأكياس السُّكر. وظهر أبي في نهاية الموكب يلبس جلابية جديدة وشالا أبيض. يمشي بزهو والدواب تحرسه بأمر من عمي الكبير.

خليط من حكايات امتزج فيها ما حكته أمي بما قالته جدتي، وما صرَّح به أبي بما لمَّح به عمي.

مرَّ أمامي الشريط كما رسمه خيالي. كان أبي لا يزال يتابع ورقة الكربون بعينه ويتفحصها بين أصابعه، صمت ولم يُكمِل الحوار مع أمي عن رأيه في عريسي، خالد، اكتفى بأنها ستفهم من تلقاء نفسها أن السكوت من علامات الرضا.

9

وبدأت الاستعدادات للزفاف.

في صباح اليوم التالي أيقظتني أمي مبكرًا، بعد صلاة الفجر مباشرة، قبل أن يفرش النور الشوارع وتحط العصافير فوق الأشجار. شيئًا فشيئًا تتضح تعرجات الشارع مع ظهور خيوط الصُّبح الأولى، كانت البيوت نائمة في شبورة بيضاء.

أنتظر مع أمي قُرابة الساعة.

يقترب صوت طبل كأنه مستوحى من حلم، يزداد الصوت ويدخل إلى أرض الواقع عندما تبدأ صُفرة الشمس في تلوين الأرض.

يمر قرد في عنقه حبل، يتبعه رجل في يده رِق، ومن خلفهم عروس خشبية طولها أكثر من ثلاثة أمتار، لها قدم واحدة، تلبس تولّلي مزين بخرز، قدمها عبارة عن جريدة طويلة يمسكها رجُل بدين وطويل، يرفع رأسه ليتابع حركة العروسة في الأعالي، تظهر طعنة طولية قديمة عند أسفل ذقنه، بجواره زوجته تدق بعنف على طبلة صوانها الفخار مكسور. في ساحة مترِبة يتوقف الموكب ولا تتوقف المزيكا، يمد الرجل طاولة خشبية، يسندها إلى عكازين من حديد، يفرد فوقها

سجادة، ثم يلقي ببضاعته، يدلقها من الأكياس فوق الطاولة، ملابس نساء، حلي وأدوات زينة، مكاحل ولبان حلبي ومناديل مطرزة.

لا يتوقف دق الطبل ولا رعشة الرق، والقرد لا يزال يرقص، النساء يتجمعن أمام الطاولة، يفاصلن ويشترين، أو يفاصلن ولا يشترين. الدق شغال والقرد أنهكتْ مفاصله من القيام والقعود أمام البضاعة، يتجمع عيال حفاة يفركون أعينهم من أثر النعاس، يشاهدون الموكب كما لو كان من بقايا أحلامهم. تزداد أعداد الزبائن، وتعلو الجلبة.

«الشامي يا فاطمة».

كثيرًا ما سمعتُ عنه، كل البنات اللاتي يستعددن للزواج يعرفن الشامي. من صلاة الفجر وحتى بعد صلاة الجمعة، يبيع أغلب ما معه من بضاعة ثم يعود إلى قريته ويستعد لسوق جديدة في قرية أخرى.

أفرك عيني وأنا أتأمل بيتنا من بعيد، وكأنه خرج معي من المنام، الدنيا تلف بي وترقد من جديد في خدر الصبح اللذيذ.

لم أر الشامي وبضاعته كما تراه أمي، بل رأيتُ الساحة التي فَرَشَ فيها طاولته، كانت هذه الساحة الكبيرة التي تتوسَّطها السنديانة الضخمة هي أفضل مكان للعب، خلف البيت كُنَّا نقف، أنا والبنات، ينادونني «بطَّة» نقطع ملابسنا القديمة ونجعل منها ثوبا واحدا كبيرا، ثم نحشو ما يفيض من قصاقيص في الثوب فيصبح دمية، نطلق عليها اسم «العريس» نتقاذفها بين أيادينا، تطير في اتجاه السماء، تصغر في

أعيننا، ثم تكبر من جديد أثناء نزولها، تسقط في يد إحدانا فتصبح هي العروس، في المرة الأخيرة سقط العريس في يدي، والبنات يهللن: «بطة عروسة. بطة عروسة».

وسط المشترين تندس أمي، تقلب في القمصان المقوَّرة وتختار دستة. ترفع من فوق الطاولة مكحلة واحدة وكيسًا كاملًا من اللبان الحلبي. عندما تبدأ عملية الشراء الفعلية ينسحب الشامي ويقف على حافة المشهد، يرقبنا من بعيد بعين حارس، يتناول من يد زوجته الطبلة، يدق بيده القويَّة فيوقظ النائمين، يذكرني هذا الرجل بفريد شوقي في فيلم الفتوة، لا يليق عليه دور زكي رستم في الفيلم نفسه.

تبدأ زوجة الشامي في الدخول والتزاحم، تتباسط في عملية البيع، تتساهل في الفصال ولو حتى بنصف الثمن، تتحايل في إخراج البرايز والجنيهات من أعباب النساء بأي طريقة، ولو بالرقص لهن، كانت ترفع القمصان على صدرها حتى تقنع إحداهن بأن طوله مناسب، أو تسدله على ظهرها لتقنعها بأن عرضه معقول. تُجيد الكلام عن الألوان والقصَّة، تُحلِّي البضاعة في عيون الزبائن، تقترب من أمي، تلمح دستة القمصان في يدها، وأدوات الزينة الأخرى، الصيد ثمين، تُدبّر كلمات تناسب الثمن:

«دعيني أختر لكِ. ولن تندمي».

وتقول أمي قبل أن تبتلعها البائعة في دائرة السوق:

«أخذتُ ما أريد».

وتتلاحق الكلمات على لسان زوجة الشامي المُدرَّبة:

«هذه البضاعة ليست من مقامك يا ست».

تضحك أمي وهي تتأمل القمصان وتُجرِّب ريشة المكحلة على كفها. تُفرِّجها البائعة على بضاعة جديدة، «لا تخرج إلا للغاليين» كما قالت، كانتْ تضعها في أكياس جانبية غير موجودة على الطاولة.

لم تكن أمي في حاجة للمزيد من كلمات تحلية البضاعة، فهي تحتاج لما اشترته بالفعل، انتبهت زوجة الشامي للنسوة المترددات في عملية الشراء بعد أن أعطت لزوجها ما حصَّلته من البيع.

تركنا سوق الملابس المتنقل واتجهنا إلى البيت، دق الطبلة يبتعد، ورعشة شخاليل الرق، وفصال المشترين، تهدأ دوامة الغبار تحت أقدامنا.

ندخل فنجد خضرا في انتظارنا، تأخذ ما معنا من مشتريات وترصّها فوق أرفف في غرفتي الصغيرة، تتسمَّر أمي في مكانها كأنها تذكّرتْ شيئًا مهمًّا:

«خضرا يا فاطمة. نسينا أن نشتري لها حاجة معنا».

لم أرد، كنتُ أتخيل أن كل المشكلات لها حلول ما دام هناك من هم أكبر مني، وبالفعل، قدمتْ أمي حلًّا سريعًا:

«الدستة نأخذ منها قميصين لخضرا. ثم نشتري لكِ غيرهما في المرة القادمة».

فردتْ أمي قميصًا أحمر وآخر روز على كتفي خضرا:

«حلال عليكِ. نفرح بكِ عن قريب. قولي إن شاء الله».

تبتسم خضرا وتلمع عينها بالفرحة. نسيتُ أن أقول شيئًا مهمًّا، لا أعرف كيف فاتني، كانت خضرا خرساء لا تسمع، لا يمكنها إلا نُطق اسمي بطريقتها «طومة».

10

قَبِلتُ الزواج من خالد كإحدى حقائق الطبيعة، فعمي وافق وأبي تَبِعهُ، وأمي تلوّح لي بصورة ليلى، جارتنا العانس، لم يكن الأمر يشبه الاختيارات المعتادة، فكفّته رجحت بمجرّد التفكير فيه، وإذا استثنيتُ اللعب مع العيال ومعاكسات أولاد جيراننا المراهقين؛ فسيكون خالد أول رجل في حياتي، أول شخص حقيقي يطرق بابي طالبا الزواج.. الزواج، كلمة كبيرة جدا مقارنة بالثمانية عشر عاما التي عشتها.

كانت شخصيتي لا تزال مهزوزة تجاه العالم، وأملي أن يثبّت الزواج هذه النظرة ويمنعها من الاهتزاز، فخالد مجرّب وواعٍ وسبقني إلى هذه الحياة بأربعة عشر عاما كاملة. كان للزواج شكل الحياة الخيالية، شيء مثالي غير محدد المعالم، كحكايات الأحلام وأفلام النهايات السعيدة.

قالت أمي إن الحياة الحقيقية تختلف كل الاختلاف عن الأحلام وأفلام التليفزيون، كانت كلماتها تشدني برباط دائم، تلصقني بالواقع الأرضي، وتبعدني بقوة عن محبتي الجنونية للرسم، تسرقني من أحلامي الملونة والفُرجة على الأفلام، فأنا لا أجيد الكلام.

كثيرًا ما تناسيتُ مرارتها مع أبي، فلا يحمل أيٌّ منهما ذكريات مبهجة للآخر، وكثيرًا تساءلت: كيف أمكنهما أن يناما على سرير واحد وينجبا ولدًا وبنتًا؟ أغلب مشكلاتهما ارتبطت بفرق السن، هذه التفصيلة الصغيرة نبتتْ منها كل الخلافات. وهل يستطيع أبي أن يقول لأخيه الكبير لا؟ رضيت أمي به كقدر محتوم، وأنجبت له بنتًا واحدة، أنا، ثم توقف النول عن غزل البشر لمدة بسيطة، وبعد عام وعدّة أيام جاء أخي منصور.

لم أكن أتوقّع أن تعطيني الأيام أفضل ما لديها، ولكني تمنيتُ أن أفلت من مشاجرة حتمية كل يوم بين أمي وأبي، فعدم الوفاق الدائم بينهما جعلني أفكر مرات كثيرة في ترك البيت، وعندما تقدَّم خالد لخطبتي، وجدت ذلك سببًا مقنعًا لهروب شرعي سيباركه الجميع.

عندما جاء خالد لقراءة الفاتحة جاءت أمه معه، كانتْ تُشبه الهوانم في الأفلام القديمة، ظلت صامتة أغلب الوقت، لكنه صمت الوقار لا التكبر، وعمي مختار يعطي للمجلس هيبة وقيمة إضافية، أخي منصور يلعب كالأطفال حول البيت، تجبره أمي على حمل صناديق الكوكاكولا هو وصديقه ويدخلانها إلى المطبخ. يخرج أبي إلينا ويده ملوثة بحبر الكربون الأزرق، لا يجد له مكانًا في الصالة الضيقة فيجلس على الأرض، بالضبط تحت قدميْ عمي مختار، تشده أمي وتجلسه مكانها، ثم تُخرج الكوكاكولا للضيوف.

في هذه الجلسة التي طغت فيها المراسم على المشاعر؛ كان كل شخص يريد أن يخرج للباقين في أفضل صورة، حاولنا جميعا تمثيل

دورنـا على أكمل وجه، أمـي تباهي بحلاوتها أم خالد، وأبي يعاني في التوفيق بين ما يشعر به حقا وما يستطيع إظهاره، وخالد يوافق بهزَّة من رأسـه علـى كل الكلام من جميع الأطراف لتمر الليلـة بإتمام الخطبة، أمـا عمي مختـار فيعيش في برزخ خيالي، لم أشـعر يوما بأنه أخ لأبي، فأبي يصلح عاملًا في وسيّة، وعمي صاحبها.

بعد أن تم الاتفاق على تفاصيل الزواج سمعتُ صوت عمي:

«مبـروك يـا أولاد. الدُّخلة بعد شـهرين بإذن اللـه، وأول ثلاثة أيام ستقضيانها معي في البيت الكبير. ثم تذهبان إلى مصر».

ويرد أبي:

«عين العقل يا مُختار».

تقف أمي وتقول بصوت عالٍ:

«لا».

كلمة واحدة أجبرت الجميع على الإنصات لها والوقوف المُفاجئ، تنبه أبي وكأنه أفاق من حلم طويل، وتابعتْ أم خالد الحوار دون كلام، ووقف عمي وبين أصابعه تطقطق حبات مسبحته الكهرمان:

«لا! لماذا يا حُسنة؟!».

تنظر أمي في عينيْ عمي وتُديم النظر:

«لا وخلاص».

ثم تنصرف من المجلس.

لا يدقق أبي في حوارهما، يجلس عمي ويعود لسيرته الأولى، يعبث بين أسنانه بعود قش في غيظ مكتوم، يضغط نواجذه، يمشط بأصابعه لحيته الخفيفة متظاهرًا بعدم الاكتراث بما قالته أمي.

بعد الاتفاق على تفاصيل الفرح يخرج خالد مع أمه، يقف بجوار سيارته البيجو التي ركنها أمام البيت قبل دخوله، تقترب منها عنزة وتشمها، لا تجذبها رائحة البنزين، فتنصرف لترعى في الحقول وتبحث عن شيء يثير فضولها. كانت فكرة وجود سيارة لدى خالد فكرة مغرية بالنسبة لي، فالسيارة تُسهِّل حاجات أحلم بها، سنتجول في القاهرة وأتعرَّف على كل جزء فيها، سنذهب للسينما عشقي الكبير، سنتفرج على الأفلام قبل عرضها في التليفزيون. وفيما أتأمل سيارة خالد؛ كانت العنزة عائدة وفي فمها بعض عيدان برسيم.

في اليوم التالي سألتُ أمي:

«لماذا لم توافقي على أن نقضي الأيام الثلاثة الأولى في بيت عمي مختار؟».

نظرت لأعلى بِكِبْر:

«ليس كل ما يحدث يُقال يا فاطمة. لكني سأقول لكِ».

وبدت مهمومة كأنها ستقول شيئًا خطيرًا:

«عمك أصر على الطلب نفسه ليلة زفافي، ووافق أبيكِ على أن نقضي ثلاث ليالٍ في بيته الكبير، ثم..»

«ثم؟»

«ثم بَص علينا من فوق».

«بص. من فوق؟»

«أقول لكِ ذلك كي تحترسي».

«أحترسُ من ماذا؟».

«تحترسين من كل شيء..»

ثم تركتني في حيرة وانصرفتْ.

في تلك الليلة أخرجتُ ألواني وأوراقي البيضاء، استدعيتُ ملامح عمي مُختار، رسمته، كانتْ هي المرَّة الثانية التي أرسم فيها وجهًا بهذه الدقَّة، وفيما ألوِّن عينيه المخيفتين نِمتُ.

11

إحساس غامض يشدني لألتصق بالمرآة، أتمنى أن تصبح كل الأشياء من حولي مرايا، الشجر والأرض والناس، لأعرف التغيرات التي تطرأ عليّ بشكل مستمر، لا أشعر بأنني أُشبِه الناس في شيء، أرى أمام المرآة صورتي تعكس كل الرؤى والألوان والروائح المأخوذة من نفسي، ثم تعطيها لي على هيئة ناس وأحداث وزمن يمر، يبقى هذا التصور ينسخ عالمي الداخلي بشكل مستمر.

سوف أصبح امرأة عن قريب، كيف أدخلُ إليها بتلك الروح الزجاجية؟ ومتى بالضبط ستموت طفلتي في نفسي؟ لماذا لم أرفض الزواج، أو على الأقل أؤجله قليلا؟

لطالما طويتُ أحاسيسي ونحَّيتها جانبا، كي لا يشعر أحد بما أحسه، لا أحب الكلام الكثير والمبررات المعروفة، فاللغة الخاصة بي تُصنع بداخلي فقط، كأسرار لا يجوز لأحد أن يطَّلع عليها، دائما أفضِّل غلق الباب من الداخل، بالترباس، عندما يفاجئني أحد ويفتح عليّ الباب أشعر بأنني عارية، أبي كان أو أمي، حتى ولو كانت خضرا.

وقفتُ أمام التسريحة أتأمل نفسي ومادتها الشفافة، أرى فيها طيبة ظاهرية مُكبَّلة، وأدرك دون وعي مني أن الجانب الشرير المترسب

في أعماقي يغذيه الصمت، وأن الكلام حتى ولو كان نفاقا؛ فهو يمنع صاحبه من خلع قناعه الأصلي.

منحنية للأمام قليلا أنظر إلى تفاصيلي، سأصبحُ امرأة بعد أيام قليلة، أحاول الإنصات لنغمتي الداخلية المبحوحة التي لا تخرج مني أبدا، صوت صامت له بريق الألوان ورهبة الأحلام، أما نبرتي التي يجب أن يسمعها الناس فلا أفضِّل أن تغادر جوفي.

أضع يديّ فوق ردفيّ المتماسكين بغير امتلاء، نحافة خصري تعطيني الفرصة لوضع يدي بطمأنينة وثقة، أهز صدري وأملس على عنقي الناعم الفارع، أراه في المرآة عنق ممثلة مشهورة، ربما نادية لطفي، فسعاد حسني عنقها أقصر مما يجب، أخذتُ من أمي هذا الشَّبَه الملوكي، فكلانا لا تتأمّل الأرض كثيرا، هامتانا مرفوعتان حتى ولو من أجل النظر إلى لا شيء.

أُخرج كل ما عندي من ملابس وأقف أمام المرآة، أنظر لفاطمة الأخرى التي تحملق فيّ بتحدٍّ، أجرِّب شكلي بألواني الجديدة، أرتدي الفساتين التي أهملتها بسبب صغرها، أراها لا تزال تناسب نحافتي، لكنها قصيرة جدا، تشبه موضة نجلاء فتحي وصفاء أبو السعود أيام صباهما، أُسند يديّ على ردفي كلما بدلت فستانًا، لا أعرف لماذا أستمتع بهذه الحركة؟ أتابع ملامحي ولفتاتي تفصيليا أمام المرآة، كشخص يود أن يُفرِّج نفسه لشخص آخر، تنوعت صورتي بين أحجام ملابسي القديمة وألوانها، وتغير شكل شعري بين طريقة لفّه وربط

التِوَك، وتبدَّلتْ وقفتي وطولي بين الأحذية والصنادل ذات الكعوب المتفاوتة، أثبّت اللقطة مثل تمثال لا يُحرِّك إلا عينيه، أتأمل الثبات والصمت، أغمض عيني ولا أزال أراني.

توصلت أثناء رحلة بحثي هذه إلى أنني حلوة، أعرفُ ذلك، والناس أيضا يعرفون، ولِمَ لا؟ فشعري الخروبي الذي يتجاوز ظهري بشبر يغيظ كل البنات، وأنفي في حجم نبقة، وشفتاي المكتنزتان تحبسان الدم داخل تجويفهما السري، لكن ما يطير عقولهن كان خصري، أو بالأدق نحافته، لا أحد يعرف شيئا عن الكورسيه الضيق الذي أربطه على بطني كل ليلة قبل النوم، ولا عن كوب الماء الساخن الذي أتناوله بعد استيقاظي كل صباح.

أتأمل ملامحي جيدا، أتذكر كلمات أمي: «جوهرتك في وجهك» وكلمات أمي تجر في ذيلها كلمات خالتي تحية: «الوجه الحلو جوهرته العين. وعينك ناعسة وحورا يا فاطمة» وعندما أسألها عن معنى هذه الكلمات كانت تضحك، تمعن النظر إلى ملامحي ولا ترد.

بين تبديل الملابس أسترق استراحة قصيرة وأنظر لنفسي وأنا عارية، أتأمل كل التفاصيل، ثُم أرقص، ألِفّ وأدور بعد أن يأخذ جسدي حريته الكاملة، يداي مفرودتان على ذيل فستان وهمي، فستان نبيتي له خصر نحيف مضموم وذيل كبير يفرش غرفة، هكذا رأته عين خيالي، عندما ألفّ يطير شعري، يلتصق بعضه بعنقي، تعجبني الحركة فأكررها أكثر من مرة، ثم أتوقف وأسحب شعري للأمام ليغطي صدري بالكامل،

وأشعر بأنني في حلم حُلو ولا أميل للتمسك بالعالم الواقعي الدائر خارج غُرفتي، أو حتى الاعتراف به، لا أستمتع بسماع أصوات الناس، أتفرج على الحياة من الخارج، لا أريد التفاعل معها أو الانغماس فيها وأخذها على محمل الجد.

أعود لملابسي الواقعية التي خلعتها منذ قليل، كنتُ شبه مستيقظة، شبه غافية، أشم رائحة عرقي المختلط بعطري، تركتُ مرآة التسريحة والغرفة، وعادت نصائح أمي تطن في أذني وتشغل رأسي، أفكر في مشكلاتي الأرضية كما يفعل الواقعيون، أتخيل عمي الكبير وهو ينام على بطنه فوق السطح ليرى جزءًا من جسد أمي العروس، ألم يكن يعرف بأنه سيرى جزءًا من جسد أخيه العريس فوق البيعة؟

لماذا لا يوجد عضو في الجسم اسمه الخيال؟

وتذكرتُ شيآن أثناء مغادرة الغرفة، الأول، أن النسخ البشرية المنقحة لا يمكنها ترك الأحلام أبدا؛ لأن الأرض الطينية الملوثة بتجارب الآخرين لا تليق بنقائهم، والثاني، أنهم لو اضطروا لترك الأحلام فلن يجدوا مكانا يعيشون فيه إلا الأفلام.

12

قـال القضـاة كلامًا إضافيًا، اسـتمعوا لرجل جاء يصحبـة أبي، بعد أن انتهـى مـن مرافعته سـحب الرجل البديـن دقماقه الخشـبي ودق به مرتين، فتبدلت الهيصة بهسهسة، ونظرات وغمز، ثم غرقت القاعة في الصمت من جديد.

* * *

وافق الجميع على خالد عريسًا لي، لم تبق فقط إلا المراسم.

أجلسـوني على كرسـي عالٍ مُذهّب، حنوا يـدي وقالوا: «ضميها» وحنوا قدمي وقالوا: «لا تحركيها».

صوت التسـجيل العالـي يعلن أن في البيت فرحًـا، أغنيات خضرا محمـد خضر والعربي فرحان البلبيسـي، البنـات يُغيّرن هذه الأغنيات ويضعن شرائط جديدة لعمرو دياب، وعمر فتحي، أما النسـوة اللاتي كان من الصعب عدهن لكثرتهن؛ فقد كن ينافسـن التسـجيل بصوتهن العالي وتصفيقهن الجماعي المنضبط:

«هوب يا هوب

دوبني دوب

حرير التوب

هوب يا هوب»

صوت العيال العالي يقطع تركيزي في أشياء أخرى. كنتُ أفكر في أمي، فهي مخزن تجاربي في هذا العالم؛ لذلك رنَّت كلماتها في أذني طوال الأيام الماضية:

«زوجكِ هو الكبير صحيح. لكن أنتِ مَنْ تحتوينه، تصبرين عليه. الرجال كلهم لا يصبرون على شيء..»

الصوت يعود ليبدد ما أفكر فيه:

«العود ريان

هوب يا هوب

مرعى الغزلان

هوب يا هوب»

احتشدت الكلمات في رأسي، تزاحمت وتداخلت حروفها، اختلط صوت التسجيل بغناء النسوة بهيصة العيال. وصل الرجال بالمزامير والنقَّارات، صوت الجماعة كان أقوى:

«يا مليح اللون

هوب يا هوب

طِلع المكنون

هوب يا هوب»

يصنعون لخضرا دائرة صغيرة تستوعب جسدها الطفولي، ترقص كما يرقصن، وتصفق كما يصفقن «أوب. أوب» وتسخن المباراة بين الرقص والغناء:

«صدر العايق

هوب يا هوب

رمان طايب

هوب يا هوب»

كانت خضرا تقفز كعصفور وليد يحاول الطيران؛ ربما لأن الإصبعين الصغيرين في قدميها يركبان فوق الإصبعين المجاورين.

انتهت ليلة الحنة، وجاء سريعا وقت يجب عليَّ أن أودع فيه جميع مَنْ حولي.

في اليوم التالي امتلأ الشارع بالزينة وامتلأ قلبي بالخوف، فالحياة القادمة جديدة في كل شيء. اجتاحتني أحاسيس متضاربة، فرحة مختلطة بتوجس، رغبة عاطفيَّة لا تعرف طريقًا واضحًا، بدأ قلبي يخفق عندما نظرتُ خلفي فوجدت أمي تحمل ذيل الفستان، وأم خالد تنثر المِلبِّس وحبَّات الشيكولاتة فوق رؤوس الضيوف. خرجتُ من الكوافير فوجدتُ بانتظاري سيارة فخمة مزيَّنة من الأمام ببوكيه ورد كبير، ومن الخلف بشرائط زينة ملوَّنة، رأيت زميلات الدراسة حولي ككائنات صغيرة، ورأيتني قد تجاوزتهن بعدد غير قليل من السنين الضوئيَّة، فأنا عروس، وهن لا يزلن مجرد بنات.

حمَلتْ أمي متعلقاتي الخفيفة ووضعتها في سيارة ميكروباص بمساعدة أبي، شنطة يدي وأحذيتي، فستانها النبيتي المخصص للمناسبات المهمة الذي ورثته عن جدتي، لم تنس كذلك أن تضم لمقتنياتي الإكليل الذي صنعتُه من غصن السنديانة، تاجي الذي كنت ألعب به مع منصور وأرفض أن يخطفه من فوق رأسي.

جاء عمي بسيارته المرسيدس وفتح شنطتها، أخرج منها رصّة فطائر كبيرة، والدُّهن المُعبأ في برطمانات زجاجية، تسبح في شبورة الدهن الأبيض قِطع لحم محفوظة، وفي أسبتة صغيرة بط وإوز معد للطهي، وحمامات مطبوخة بالفعل، وبعض عبوات عسل نحل.

يقف أبي ويلوح بيده فأنزل وأترك خالد، يتجه ناحيتي ويحتضنني، يقبلني من رأسي ويبكي، لم تكن أمي تبكي، للحق، كانت متأثرة قليلًا، يقف أخي منصور مع أصحابه، يضحك معهم وهم يعبئون السيارة الميكروباص بباقي متعلقاتي، أما عمي مُختار فجلس في سيارته بعد أن أنزل منها المؤونة الغذائية، كان يلف سيجارة ويبصق في الأرض قطع ورق قضمها بأسنانه من بوز السيجارة.

كان أكثر من تعلقتْ به عيني هو أبي، الرجل الذي كاد عمره أن يفنى وراء غبار الطباشير.

بدأت السيارة التي تقلنا، أنا وخالد، في التحرّك، وبدأت الحقول تتجاوزنا للخلف. أثناء متابعتها لمحتُ بدلة خالد البيضاء مُعلَّقة فوق شماعة في سقف السيارة، النسر الذهبي النائم، رتبة الرائد تتحرّك من أقل هزّة، رفع خالد يدي وقبّل ظهر كفي برقّة، قطع استرسالي عن

صوري التي تتدفق على رأسي من الماضي، الصور التي بدأتُ في تذكرها منذ ركوبي السيارة.

كنت قد رتبتُ حياتي مع خالد في دماغي، بدأتُ أخطط لكل شيء في معيشتي المستقبلية، متسلحة بنصائح أمي وبعض أفكار قديمة وهواجس، كل ما أعرفه عن سكني الجديد أنه في القاهرة، منطقة تُدعى حي الزهور. كم هو جميل أن أسكن في مكان مليء بالزهور، أستيقظ على رائحة فُل وأنام على رائحة ياسمين، أقطف في كل صباح ورقة من وردة وأضعها خلف أذني ثم أخلد للنوم، لكنني لن أنام وحدي منذ الليلة، ستشاركني أنفاس خالد في سريري ثماني ساعات في اليوم، كم هو مغرٍ هذا الشعور، ومُربك في الوقت نفسه.

نظرتُ خلفي فلم أجد السيارة الميكروباص، ولا سيارة عمي المرسيدس، كُنَّا نسير وحدنا في الطريق، الليل يغلِّف البيوت الصغيرة بالظلام، وخالد يقود السيارة بملامح ثابتة على رُبع ابتسامة وشرود، لا أدري إن كان شاردًا في الطريق؛ أم في حياته الجديدة معي، كثيرًا تخيلتُ أن أصعب شيء في الحياة هو رسم تصورات صحيحة عن الآخرين، فأنا الآن أجلس بجوار شخص لا أعرف عنه الكثير، بل لا أكاد أعرف عنه شيئًا، ومع ذلك يجب عليَّ أن أقضي معه ما تبقى من عمري.

التفتُّ إليه فنظر إليَّ وابتسم، لمحت بعض شعيرات خلف أذنه لها جذور بيضاء، تأملتُ شعره من الأمام فرأيته خفيفًا جدًّا، ومصبوغًا أيضا. حاولتُ قدر استطاعتي إبعاد أي أفكار يمكن أن تؤثر على بهجتي المتوقعة خلال الساعات القليلة القادمة. سرحتُ في تخيل ما

تبقى من الليلة، وكيف يمكن أن تكون بداية العلاقة بيني وبين خالد ناعمة ورومانسية، ذكرى تصلح لأن نستعيدها في الأوقات الطيبة.

أخذني صوت خالد من عالمي الداخلي عندما قال:

«حمدًا لله على السلامة. فاضل عشرة كيلو بس».

مساحة قريتي بالكامل لم تُكمل الكيلو متر، فكيف لخالد أن يتكلَّم عن العشرة كيلو مترات وكأننا بالفعل قد وصلنا؟ كانت مثل تلك الحسابات الكبيرة من أكثر الأشياء التي تزعجني، فعقلي لم يعتدها بعد.

تسلَّح كِلانا بالمظاهر، أحاول أن أبدو أمامه جميلة وناضجة، وأنني اختيار صائب لن يجد أفضل منه، ويحاول أيضًا أن يبدو بمظهر الرجل الكبير العاقل الذي سيتحمَّل مسئولياته في جميع الأحوال، عندما أرهقني التفكير عُدتُ للبحث عن الحقول الخضراء التي تقلَّصت وظهرت بدلًا منها عمائر طويلة ليس بينها فراغات كافية. اختفت الأشجار التي كانت تضمنا على جانبي الطريق، وابتعدت رائحة حرق القش، طارت من حولنا الأتربة في دوامات تحمل فتات أوراق وأكياس، وبدا الجو كله معبقًا برائحة كاوتش يحترق، تصنع أعمدة الإضاءة ظلالًا فوق الأسفلت اللامع، والطريق الذي كنا نسير فيه وحدنا أصبح مزدحمًا بسيارات من كل شكل ولون، ورأيت لافتة كبيرة مكتوبًا عليها «القاهرة 3 كيلو».

13

بعد أن تركنا اللون الأخضر نهائيًا، ملأ الجو لون لا لون له، شيء بين الرمادي والبيج، كان منظر الهواء من خلف زجاج السيارة يشبه ثلجًا متسخًا. ربما تجمَّع كل ذلك بفضل الرؤية التي رسمها الهاجس بداخلي، كنت أعرف ذلك جيدًا، فمن المؤكد أن حي الزهور الذي نحن ذاهبان إليه أفضل حالًا من هذا الطريق الأسفلتي الذي يتعرج كثعبان أسود لا نهاية له، حتى ولو كان حيّنا الجديد مفروشًا بالأسفلت هو الآخر؛ فتكفي الزهور الكثيرة التي تملؤه، مؤكد أن رائحتها الطبيعية ستتغلب على رائحة حرق الكاوتش وصهد الأسفلت.

توقف خالد بالسيارة أمام لافتة كأنها كُتِبتْ خصيصًا من أجلي..

«مرحبًا بكم في حي الزهور».

أثناء عبور خالد للبوابة الحديدية رأيتُ رجلًا يلبس أسمالًا مهلهلة ومتسخة يجري وراء سيارتنا، يقول كلامًا غير مفهوم، أتأمله من شباكي، شعره طويل وبه كتل جامدة من الوسخ، يبتسم ويقترب، تظهر أسنانه بلون الكبريت ورائحته لا تطاق، ينتبه خالد فيضغط على «الكلاكس» بقوة وينصرف الرجل المجذوب، فوجئت بخالد يسب رجل الأمن الذي يقف عند البوابة بشتائم قاسية، ثم يقول:

«كيف تترك مثل هذه الأشكال تدخل هُنا؟».

يقف الرجل منتبهًا ولا يرد، يؤدي تحية مذعورة لخالد وترتعش الكلمات على لسانه:

«لا مؤاخذة يا باشا. لن يتكرر ذلك مرّة أخرى. حتى شوف يا باشا ماذا سأفعل لسعادتك به».

يجري المجذوب أمام السيارة وتظهر جلابيته مشقوقة من خِصره وحتي أسفل قدميه، لا يظهر جسده من ملابسه، فكلاهما بلون التراب، ويجري حارس الأمن من خلفه، يقع «الكاب» الأزرق من فوق رأسه، يلتقطه ويعاود الجري خلف الرجل المتسخ، يمسكه من قفاه ويعود به إلى بوّابة حي الزهور.

لم أجد أية زهور من حولي، فقط شجرة ذابلة قصيرة لم أتبين نوعها في الظلام. أشار خالد إلى شقتنا في الدور الخامس، أطل رأس امرأة في الظلام من دور علوي، وسمعتُ زغرودة اخترقت السكون، كان هذا الصوت هو أول شيء مبهج بالنسبة لي في الحي الجديد، ورأيت طيفًا أبيض يقف فوق سطح العمارة، منظر يبدو لرجل يلبس جلابية بلون السحاب وطاقية بيضاء ناصعة، تأملتُ السطح مرة أخرى فلم أجد شيئًا، يبدو أن طول السفر وغبار الطريق قد أجهدا عقلي وشتتا تركيزي، رؤيتي مهزوزة مشوشة. كنتُ أصدق صوتي الداخلي بشكل كبير، أعتمد على نبرته كثيرًا في تفسير الأشياء التي لا أفهمها، أو التي تبدو لي مرتبطة بمستقبل غير معلوم.

وصلت السيارة الميكروباص المحملة بمؤونة شهر العسل قبلنا بقليل، فمحركها لا يزال يدور ويدخن، أنزلتْ حمولتها وانصرفتْ بسائقها، ووقفنا أنا وخالد أمام المصعد، أدخل البواب وزوجته متعلقاتنا الكثيرة، ضغط خالد على زر الدور الخامس، وقبل أن يصل الأسانسير فوجئنا بصوت قوي من الخلف، التفتُّ فرأيت حوالي عشرة رجال بملابس عسكريّة يحملون سيوفًا، تتقدمهم فرقة موسيقية محدودة، طبلة وآلة نفخ نحاسية كبيرة وأكورديون، كانوا أربعة ضباط عن يميني ومثلهم على اليسار، تقدم أحدهم وحدَّث خالد بصوت مبتهج:

«اللواء محمود الشيمي أوصى على الفرقة منذ يومين، وقال لابد أن نفرح معك».

ابتسم خالد وضغط بقوة على كفي، كأنه يباهي بي الفرقة الموسيقية واللواء الذي أرسلها.

استوقفونا وأحاطونا بكل الفرحة الممكنة، طوقونا بأكاليل كبيرة من الورد، صورونا ونحن نضحك، كانتْ مفاجأة سارة غير متوقعة.

على صوت دق الطبل والنفخ في الآلة النحاسية تجمَّع بعض الجيران في مدخل العمارة، ورأيتُ امرأة طويلة وممشوقة، ترتدي فستان سهرة وتصفق بحماسة، تأملتها جيدا وعرفتُ من تسريحة شعرها القصير أنها هي نفسها المرأة التي زغردت من الدور السادس عند دخولنا الحي. طلعنا السلالم أنا وخالد ونحن نعافر وسط الزحام،

كنا مضغوطين بين الفرقة الموسيقية والجيران، أعضاء الفرقة يرتدون بذلات بيضاء ويشهرون السيوف لأعلى، يرقصون بها في منظر مهيب، يحركونها ذات اليمين وذات الشمال أمام وجوههم، طلعنا السلالم ولم نركب الأسانسير، أخذ الطريق للصعود أكثر من نصف ساعة، عند كل دور يقفون بنا ويرقصون، وفي الدور الخامس الذي تقع فيه شقتنا توقفنا طويلًا، أصرَّ قائد الفرقة أن نرقص رقصة رومانسية على أنغام أغنية شادية «مكسوفة منك». لم يكن خالد يجيد الرقص، حركاته المتشنجة وهزَّات رأسه العنيفة كانت تقول ذلك بوضوح.

شعرت أنني أمثل في فيلم يليق عليه اسم «السعادة القادمة».

أفسح الجميع وصنعوا دائرة كبيرة في المدخل رقصتُ فيها وحدي، أخرجتُ مخزوني الخيالي على أرض الواقع. كانتْ أفضل اللحظات التي مرَّتْ عليَّ عندما صنع الجيران طوقًا من الأيادي والورود حولي أثناء رقصتي، لم أشعر بالزمن الذي مرَّ بي وأنا على هذه الحال، لم أدرِ إلا وأنا مرفوعة بين ذراعي خالد، خفتت أصوات الموسيقى والتصفيق وبدأت عيون الحضور ترمقنا بأقصى طاقة لها، رجال الفرقة يتأملونني، والجيران أيضا. ضرب خالد باب الشقَّة بقدمه ودخلنا، كانت مُضاءة بالكامل، كأنني خطوتُ إلى النهار.

14

دخلتُ إلى عالمي الجديد وفي رأسي تدور عشرات الاحتمالات والتصورات، وزَّع خالد ابتساماته على الواقفين بالخارج، ثُم وارب باب الشقَّة في وجوه ضيوفه وجيراننا الجدد، كانت علامة فارقة عندما مد يده على مقبض الباب وأغلقه برفق، تباعدت الأصوات الخارجية، اختفت تماما، ولم يبقَ إلا صوت أنفاسنا، أنا وخالد فقط، أنا متوترة، وهو يتصنَّع الهدوء.

مشيتُ خلفه بخطوة واحدة، تجاوزنا العتبة، فوضى من الأصوات الداخلية اجتاحتني، لم يقترب مني كل هذه المسافة من قبل، كنت أستطيع حساب الفرق بيننا بالسنتيمتر، هربت منه إلى الداخل، فقد رأيته أكبر سنًّا مما عرفته، وأكبر حجمًا أيضا، لجزء من الثانية شعرت بأني لا أعرفه، حاولت أن أثبِّت انفعالي لتمر الليلة كما تمنيت، تبخر الواقع الوردي من خيالي، ولم تبق إلا نظرات خالد النهمة لشيء أتوقعه ولا أعرف شيئًا عن تفاصيله:

«قومي نصلي ركعتين؛ شكرًا لله».

فاجأتني الجملة، ولكنني نفذْتُ ما طلبه كما أوصتني أمي، بعد الصلاة المُتسرِّعة أطفأتُ جميع الأنوار وأضأتُ شمعة على شكل دبدوب صغير كنت قد أحضرتها ضمن مقتنياتي الشخصيَّة، فأطفأها خالد بنفخة واحدة، حاولت أن أرسم جوًّا رومانسيًّا يصلح كمدخل لتعارف جسدي وشيك، فأنا لا أجيد الكلام.

لم يعطني خالد فرصة، حملني وضمني إلى صدره كما يحدث في الأفلام، فبدا طرزان وبدوت طفلة بين ذراعيه، كانت هذه الحركة المباغتة هي أقصى ما يستطيع فعله بسبب الإرهاق طوال اليوم، ارتخت ذراعاه فتسربتُ من بينهما، وعدتُ لأوقد الشمعة من جديد، لم يطفئها خالد هذه المرة، لكن وقار الرجال عاد إليه فجأة وهو يقول:

«أنا جُعتُ جدًّا».

لم تكن لديَّ رغبة في الطعام، قل مخزون اللهفة بداخلي، تسربت المشاعر الرومانسية قليلًا، جلستُ عارية الرأس بالفستان الأبيض، دخل خالد من خلفي، وقفنا أمام المرآة، كانت هي المرة الأولى التي أقتربُ منه كل هذه المسافة في الواقع، اقترب أكثر منها في خيالي فقط، ويحدثني صوتي الداخلي من جديد: «يبدو خالد أمامي الآن كشخص كبير، كأبي».

لفت نظري حوض سمك جميل موضوع بأناقة فوق منضدة رخامية، تسبح فيه ثماني سمكات ملونة برقَّة وانسيابية، وفي مدخل

البلكـون قفص مُعلّق وبـه عصفوران، يتقافزان بنشـاط، ينقران الحَب من تحت أقدامهما ثم يتناوبان القفز فوق أسلاك القفص يمينا ويسارا، كان وجود مثل هذه الكائنات مبهجا بشكل ما.

فـي هـذه الليلة نظـرتُ كثيرا فـي المـرآة، كانت ملامحي لا تزال تحتفظ بدهشـة من انتقل مباشـرة من ظهر سـفينة إلى موج البحر. أمَّا ملامـح خالـد فكانـت مهمومة، لا تعبر عن شـيء مفهوم بقـدر ما هي غامضة ووقورة، لم أغضبه، التزمتُ حتى الآن بنصائح أمي:

«لابـد أن يشـعر زوجك بأن البيت كان خاليًا وأنـتِ التي ملأتِه. بل ويشعر بأنه هو نفسه كان خاويًا قبل أن تخطي بابه».

بدأت أُسـرِّب جزءًا من مخزوني القديم، أحلام الصحو وخيالات الطفولـة، بعـد أن أكل وتفرجت عليه؛ أخرج من جيبه ورق كوتشـينة، لعبنا دورًا واحدًا، قال لي: «أنتِ تُشبهين البنت» وقلت له: «وأنت تشبه الشايب» غضـب منـي، وصالحته، قبّلتـه، كان أول الغيـث، قبلني من فمـي ولـم أعترض، جريت منه، فجرى ورائي حتى هدّه التعب، جلس على كرسـي الأنتريه، يغمر العرق وجهه ويدخل في عينه، أخرجت له لسـاني، ودورت قبضتـي على كفي إمعانا في غيظـه، فتصنع الغضب، لكنه أحـبّ هذه الحركة الطفوليَّـة، اقتربت منه فانتهز المسـافة القليلة وخطفني بيديه القويتين، لا أدري كيف وجدت نفسي في هذا الوضع،

خالد شبه نائم على الكرسي وأنا نائمة فوقه، كانت الشمعة بعيدة قرابة المتر، نفختها بقوة الرغبة؛ فأظلمت الدنيا من حولي.

اختفى حساب الزمن في تلك اللحظات، تبدلت الساعات والدقائق بالترقب والخفقان، لمحتُ بريق فستاني الأبيض وهو ملقى بعيدًا عني، وملابسي أيضًا، بعيدة جدًّا عن جسدي، بالكاد يمكنني تحديد موقعها من الغرفة، ثم شعرت بمحاولات الامتلاء، يقترب مني كائن جديد بكامل حيويته، ولكن المحاولات المستمرة لم تصب الهدف، برغم خوفي فإن محاولاته صنعت في قلبي مسرَّة من نوع جديد، أفقتُ على صوت خالد المتحشرج كأنه خارج من خلف غيوم:

«أنت..».

لم يكمل جملته، اعتدلتُ أمامه وأنا أبحث عن ملابسي البعيدة، أعدتها لسيرتها الأولى وأصبحتُ كما كنت منذ ساعة، فستان أبيض وشعر فوقه تاج مزين بفصوص ذهبية كحبات القمح، بعد مرور وقت لا أعرف كيف مر؛ عاد خالد يجمع جملته من شتات بعيد:

«هل أنتِ لستِ..؟»

ثُم سمعتُ صوته مضغوطًا ومُفرغًا، كأنه صادر عن غير فمه:

«أين سائلُكِ الأحمر؟».

لم تشغلني كلماته كما كان يتوقع، فهو لم يبلغ عُمقي بعد، أنا أشعر أكثر منه بذلك، ولكنه ثار كطفل يريد إثبات جدارته في جولة مصارعة، أو فوزه بلعبة ما، ارتعش شاربه وغمر شعيرات رأسه عرق غزير، فَقَدَ خالد وقاره في لحظات، ولم يعد هو الشخص المبتهج الذي حملني بين ذراعيه منذ ساعتين.

بدأت أُجري مقارنات بين ما أحسستُ به منذ قليل وبين عمري الماضي كُلّه، لم أشعر بذلك الإحساس الذي كانت البنات يتحدثن عنه في جلسات الضحك والغمز، كيف تتكوَّن لدى الأنثى الرغبة في الرجال؟ متى تبدأ؟ وكيف تموج؟ وفي أي وقت يتتابع الموج العنيف حتى يهدأ في النهاية ويستقر؟ منذ أن وضعتُ الفوطة تحت ملابسي وأسئلتي أضعاف ما أحصل عليه من إجابات، بل تكاد كمية الأسئلة من كثرتها تخنق كل الإجابات وتسخر منها، فأغلبها تكهنات بلا خبرة يقولها أي شخص، لا قاعدة في المسألة ولا يقين في الإجابة، تضاربت التفاصيل في رأسي عندما تركني خالد ووقف بالبيجامة في البلكون، انشغلتُ في موضوع آخر له علاقة بما كنتُ أفكر فيه منذ قليل.

تذكَّرتُ يوم أن ساقني أبي مع بنات لا أعرفهن، بنات من قرى أخرى مجاورة، لا يربطنا إلا تقارب أعمارنا فقط، كل أب يسحب ابنته في يده، ذهبوا بنا إلى عيادة مظلمة في منطقة نائية ومتسخة، بيت مهجور تحيط به الغيطان من كل جانب، كنَّا قبل الفجر بقليل،

ومـن فوقنا سـماء وطيئة لا يمنـع انطباقها علينا إلا آدخنـة كثيفة، يطير فيها فتات أسـود تبقى من حرق القش، ندخل كأسـراب الأسـرى إلى مدخل البيت المهجور، كل أب حريص على تسـليم ابنته بيده، ليعبث بملمس عِفَّتها شـخص غريـب لا يعرفه، وربما لا يتأكد من شـطارته. كانـت كل بنـت تدخـل تقـف قليلاً قبـل أن يأتي دورهـا، ترتجف، ثم تبكـي كأنها ذاهبـة إلى مقصلة، وبعـد قليل، تخرج وهـي تبكي أيضا، لكنهـا قبل الدخول تسـير على قدميها، وعند الخـروج تكون محمولة بين أربعة أذرع، الأب وشـخص آخر غير معروف، له بنية المصارعين وسـحنة المجرميـن، كان الرجـل الجهيـم يؤكـد علينـا طـوال الوقت ضـرورة إخفـاض الصوت، ثـم يتبـع التعليمـات بجمل كررهـا كثيرًا «لا نريـد فضائـح. على فكـرة الفضائح لكم قبل أن تكـون لنا»، عندما جاء دوري دخلت دون بكاء، إحساسي الداخلي كان أقوى من البكاء، تجمدتُ بعض المشـاعر وتبلدتْ عندما تخيلتُ نفسـي محمولة فوق أربعة أذرع، بأي ذنب يحملونني وقد كنتُ داخلة على قدمين عفيتين؟ عندمـا يأتي دوري سـأجري بـلا وجهة محددة، سـأجذب كفي من يد أبي، أهرب إلى الغيطان وأركض حتى أصل للغيوم السـوداء التي تظلل السـماء، أو أصاحـب جنيّة في عُمق البحر. جاء دوري ولـم أفعل شـيئًا ممـا دار بداخلـي، بل امتثلتُ كما فعلتْ غيري مـن البنات المغلوبات علـى أمرهن، دخلتُ المكان القذر، الذي كان يشـبه ورشـة للحدادة،

مواسير عمودية وأفقية مُلقاة في جميع الأركان، وقفتُ ولم أجد ما أقوله، فبادرني الرجل الذي أرهقته الحالات السابقة:

«اطلعي يا ماما هُنا. حطي رجلك هذه هنا ورجلك تلك هناك».

أنظر إلى المكان الذي يُشير إليه، فأجد الحديدة المستديرة التي من المفترض أن أضع عليها قدمي اليمنى بعيدة جدا عن اليسرى، سيصبح حوضي مفتوحًا في أقصى اتساع ممكن، كان هذا الجهاز الحديدي البدائي مخصصًا لحالات الولادة. كنتُ أعرف أن هذا الرجل الذي أراه للمرة الأولى، وذاك الرجل الجهيم الآخر؛ مهمتهما الأساسية هي إيلامي بقطع جزء من لحمي قالوا إنه حساس وخطر، لكن الفرق كبير جدًّا بين المعرفة النظرية والحقيقة؛ أن أعيش هذه الحالة الجماعية من الآلام. اقتطع الرجل جزءًا من أنوثتي، تحايلتُ حتى لا أشعر بشيء مؤلم جسديًّا، ربما ما لحق بي من إهانة هو الذي علق بذهني، فبعد أن علّقاني على حديدهما المترامي أغمضتُ عيني وسرحتُ في قصص أبي الجميلة، حكى لي ذات مرة عن شخص ورِع أرادوا قطع قدمه فطلب منهم أن يقطعوها أثناء صلاته، حاولتُ أن أصِلَ إلى مثل تلك الحالة من الوَجْد الروحي لتمنع تأثري بالآلام، ابتعدتُ بكل مشاعري خارج إطار هذا البيت المهجور، لم أر الشفرة وهي تُجتث مِن لحمي، ولم أر وجه الرجل الجهيم وهو ينظر بين ساقيَّ كما كنت متصورة، غابوا جميعًا عن المكان وحضروا في أمكنة أخرى بعيدة، وطرتُ بقوة

لا أعرفُ منبعها، أصبح جسدي هشًّا، ورأيت روحي فراشة تضرب بجناحيها وتخرج عبر كسر صغير في شيش الشباك القذر، تجولتُ بالخارج وأخذتُ رحلتي كاملة، لم أنتبه إلا عندما هزت اليد الجهيمة قدميّ وهي تنزلهما من فوق المواسير الحديدية، خرج الرجل الضخم وهو ينادي على أبي، وفيما كان يستعد لحملي بين ذراعيه الكبيرتين؛ رفضتُ يده، كان الألم قد بدأ يتسرَّب إلى أوصالي وأشعر بانقباض مُرتبط بنبض قلبي يخفق بين ساقيّ. تحاملتُ وخرجت بصحبة أبي وحده.

15

عُدتُ إلى خالد من جديد، قلتُ وأنا شبه مخدرة:

«نحاول مرَّة أخرى الصبح».

لم يرد عليَّ، ظل سارحًا لمدة طويلة قبل أن يقوم ويتركني، يفتح درفة دولاب بمفتاح ضمن مفاتيح كثيرة في يده، يُخرج منها شريط فيديو ملصوقًا عليه ورقة بيضاء مكتوب عليها «فيلم شادر السمك» لمحت اسم الفيلم فقلتُ:

«أنا أُحب هذا الفيلم جدًّا. أحمد زكي ممثل عبقري».

لا يرد خالد، يتجه إلى جهاز الفيديو ويغوص الشريط في الفتحة العريضة السوداء، يبتلعه الجهاز فيمسك خالد بالريموت، وقبل أن يجلس بجواري يتحرر من البيجامة الساتان البيضاء، ويبقى فقط بالبنطلون، يجذبني إلى صدره ويعبث في شعري بأصابعه، ثم يلعق شحمة أذني وأشعر بحرارة لسانه ولعابه، يمسك بالريموت ويبدأ الشريط في الدوران، التفتُّ إلى صورة التليفزيون في انتظار ظهور أحمد زكي أو نبيلة عبيد، لم يظهر أحد من الممثلين الذين أعرفهم، بل رأيتُ خادمة آسيوية تكنس مكانًا ضيقًا في غرفة بها سرير، ثوانٍ قليلة

تمر حتى ينقض رجل من الخارج على الخادمة ويُجردها من ملابسها، لا تمانع الخادمة، فقد خلعتْ لبس الخادمات وخلع هو أيضا ملابسه، وبدأت بينهما مباراة لم أرَ شبيهًا لها من قبل إلا في الأحلام، لكن الأحلام كانت أجمل، مقدماتها أطول وبها مشاعر رومانسية وورود فوق سحاب له أجنحة بيضاء، أما بطلا شريط الفيديو فكانا عنيفين، كأنهما عدوان، وخالد يضغط على زر الإيقاف ليثبّتَ لقطات معينة، ويده الأخرى تبحث عن دور شبيه بما يراه على الشاشة، أحسستُ بأصابعه تتمشى على ظهري، ثم تنزلق لأسفل، العنف والصراخ على الشاشة انتقلا إلى خارجها بسرعة غريبة، تحوَّل خالد إلى كائن يتشنج ويلهث ويفرز مزيدًا من اللعاب والعرق، بدأتُ أكره العملية كلها بسبب تعثره ومحاولات تقليده لما يراه على الشاشة، أمسكتُ بالريموت وأغلقت الجهاز، عُدتُ إلى خالد وأنا أبحث عن بداية حقيقية معه، البدايات في كل شيء تكون صعبة، فالمشكلة نفسها واجهتْ أمي، قالت لي إن أبي لم يقم بمهمته المفترضة إلا في الليلة الثالثة.

حاولتُ تخفيف الضغط عن خالد:

«عادي. كل الناس تقريبًا يحدث لهم ذلك في الليلة الأولى».

انطبعت ملامحه بخليط من الحرج والعزة، فأعطاني ظهره الذي كان يلمع من العرق في الضوء الضعيف:

«الصبح سوف يأتون ليروا الأمارة».

قال ووقف صامتًا عند مدخل غرفة النوم.

اقترحتْ عليه أن نجرح إصبعينا بشفرة موسيّ لكي نلون القماشة البيضاء التي يريدون أن يروها حمراء، اعتبَرَ ما أقول حلًّا بديلًا عن امتلاكي ما يريد، حاولت إقناعه بأنها مسألة وقت، لم يقتنع، جذبني بعنف، حاول معي مرة أخرى، تسربت حيويته للمرة الثانية دون أن يبلغ الهدف، كنتُ أعطيه ظهري وهو يلعق شعري وعنقي، فوجئت بأظافره تنغرز في جلد كتفي بعنف غريب، يده الكبيرة طوّقتْ رقبتي وحكّت السلسلة الذهبية فيها حتى تركت أصابعه أثرًا بلون وردي، كانتْ نبضات قلبي تضطرب، وهُيِّئ لي بأنني في حضن شخص غريب لا يحبني، تبدّل هذا الشعور قليلًا عندما شعرت بوخز متتابع، محاولة الدخول الثالثة أرهقتْني جدًّا.

يقوم خالد والهياج يظهر في كل تصرفاته، يتصنع الهدوء ويزفر، ينظر إلى الحائط وأنظر للمكان نفسه فأرى كرباجًا أسود صغيرًا مُعلَّقًا في مسمار، يقترب منه ويمد يده، يُنزله من فوق الجدار وينظر إليّ بعين تلمع في الضوء الخفيف الآتي من الخارج، يرفع الكرباج لأعلى وهو قريب جدًّا منّي، يكاد قلبي يتوقف عن أداء مهامه، تخرج صرخة لا أدري إن كانت تخصني أم سمعتها من شخص آخر، كان نصفه الأعلى عاريًا يغمره العرق، ملامحه محتقنة ويده ترفع الكرباج لأعلى ارتفاع ممكن، في أقل من ثانية يهوي الكرباج بجواري على الأرض، بجواري تمامًا، يكاد يلامس أصابع قدمي، ثم أخذ يضرب السرير بقوة غريبة، حتى أن الحشية القطنية خرجت من إحدى المخدات.

وقفت أرتعد كعصفور غمرته السيول، وهو يضحك: «ما رأيكِ؟ هل أنفع مدرب أسود؟ أنا مزاجي غريب يا حبيبتي. لكن هذا لا يمنع أنني أحبك جدًّا يا فطّومة».

عندما حاول أن يبرر تصرفاته الغريبة كي يحدّ من خوفي خفتُ أكثر، خاصة عندما سمعتُ اسم الدلع الذي يناديني به عمي مختار «فطّومة» كان ينطقه هو الآخر وعينه لامعة ومرعبة. علّق خالد الكرباج كما كان ومد يده تحت السرير، أخرج طوقًا حديديًّا يشبه ما كانوا يطوقون به رِقاب العبيد في أفلام العصور الوسطى، دائرتان واحدة كبيرة والأخرى صغيرة وبينهما سلسلة حديدية، وضع الطوق الكبير في رأسي فانزلق إلى عنقي، وأمسك بالصغير في قبضته، حاول أن يجرّني، لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أصفعه على كتفه بكل قوّتي، خلعتُ الطوق عن عنقي وألقيتُ به بعيدًا، ارتديتُ الروب وجريتُ في اتجاه البلكونة وأنا أسمع ضربات قلبي بكل وضوح، لم يخرج من الزرع الصناعي الذي يملأ المكان أي نسمة هواء، وقفتُ بشعري المهوش وأنا لا أزال ألهث، توقف تفكيري لمدة لم أشعر بها، ثم بلا وعي توجهتُ إلى باب الشقة، فتحته ووقفتُ أربط حزام الروب، فُتِحَتْ شُرّاعة زجاجية صغيرة من الباب المقابل، أطل منها رأس امرأة عجوز، نظرت المرأة وضحكت: «ألف مبروك يا عروسة». وقفتُ صامتة ولم أرد عليها، كنتُ أتأمل ملامح العجوز المرتعشة، وباب شقتها الذي يغزل العنكبوت نسيجه الهش فوق أركانه، والتراب الذي يغمر قبضته،

ألا تخرج هذه العجوز من شقتها أبدًا؟ وإن كانت لا تستطيع الخروج، فهل تستطيع أيضًا منع ضيوفها من الدخول؟ شعرتُ بأنني أكلم نفسي، فقد أُغلقت رفة الشُّرَّاعة الصغيرة. عندما عدتُ للداخل وأغلقتُ الباب رأيتُ خالد نائمًا على كنبة الأنتريه، والتليفزيون مفتوحًا وشريط الفيديو يدور في الجهاز، استسلمتُ للصور والأصوات الصادرة بسبب الإرهاق الشديد الذي بدأ يتسرَّب إلى أوصالي، أكملتُ الفيلم وحدي، واكتشفتُ بأن كل ما قام به خالد من تصرفات غريبة وشاذة؛ ما هو إلا فقرات منقولة حرفيًا من هذا الفيلم العاري.

ما أزعجني في طلباته الغريبة أنها لم تَرِد في أحلامي، فكل فتاة تبحث دائما عمن يحقق لها أحلامها على أكمل وجه، وكلما تطابق الواقع مع الحلم اطمأن قلبها.

تمددتُ على الكنبة ورحتُ في سُبات بعيد، لا أدري هل نمتُ بالفعل أم أنني مستيقظة وأفكر، اختلط العالمان فأنتجتْ هذه الحالة كائنات مشوَّهة لا تستقر على حال، وأحداث مجتزأة من مختلف مراحل العمر. أدركتُ بأنني كنت تحت تأثير سلطان النوم عندما استيقظت فلم أجد زوجي بجواري، سمعتُ صوت الدوش، خرج خالد بعد قليل وهو يلبس روبًا جديدًا مُعطرًا، يبتسم ابتسامة المحتاج، جلس إلى جواري وربت على كتفي وقال:

«لا تغضبي مِنِّي يا فاطمة. لقد كنت مثل السكران ولا أدري ماذا أفعل».

داعب شعري من جديد، اقترب رأسه مني، رأيتُ بأن الوقت مناسب لأعيد على مسامعه ما اقترحته عليه من قبل، وبالفعل، وافق على ما طلبته منه بهدوء.

بعد أن لوَّنّا القماشة البيضاء بدماء إصبعينا؛ راح خالد في نوم عميق.

مرت الليلة وأنا مستيقظة، خاصمني النوم وحل بي إرهاق شديد. تبخرت أشكال العرائس الملونة والأبخرة المعطَّرة من رأسي، تغيرتْ رائحة جسدي، وبدت الشقة لي بتفاصيل جديدة، أظهرها نور الصبح في شكل مختلف، فالنوافذ كلها مكبَّلة بالحديد، تنام في منتصفها جنازير وأقفال، بدت الورود البلاستيكية باهتة والعرائس كئيبة.

صوت شخير خالد ذكَّرني بأبي، كانت المرة الأولى التي أراه فيها وهو نائم ويشخر، حلَّقتُ مرَّة أخرى بعيدًا عن تفاصيل الشَّقة وملامح خالد، هناك عند الأفلام القديمة والقبلات المحذوفة. تغلَّب الصمت على الكلام، ولم يبق إلا صوت الشخير كالنقيق يطن في الغرفة.

بعد الفجر بقليل استيقظ خالد في هدوء، اقترب مني وبدأ نشاطه يعود من جديد، كانت حيويته في الصباح أكثر تركيزًا منها أثناء الليل. عندما التصق بي كانت له رائحة عرق خفيف وعطر كثيف ودخان سجائر، أخرج لسانًا لزجًا وحارًّا، لعق شفتي وعنقي، ضممته بيدي

وتعالتْ ضربات قلبي، أحســـتُ بشيء يتمزق بين ساقيَّ، مرَّة واحدة حاول فيها بتركيز فبلغ عمقي بسهولة، انساب السائل الذي كان يبحث عنه، شــممت رائحة أعرفها جيدًا، واعتلت ملامح خالد راحة يشــوبها توتر خفيف.

16

عاد الرجل البدين يدق بالدقماق الخشبي، لم يطلب مني الكلام هذه المرة، ربما يعرف أنني لا أجيد الكلام.

***

تقلَّبتُ وأنا لا أزال نائمة، كان شيء ما في خيالي يعود بي إلى سريري القديم، يختلط السريران حتى تخترق الشمس ستائر غرفة النوم، أفتح عيني وأتأمل خالد في ضوء النهار، كنتُ كمن يستكشف عالما جديدا متمثلا في شخص واحد، خالد، لمحتُ بعض شعيرات تخرج من أذنه، وبعضها من أنفه، بدت ملامحه مترهِّلة وطيبة، ساكنة لا توحي بشيء. شعر صدره الأسود الكثيف كان بالأمس يُخيفني، أمَّا اليوم فأحاول إقناع نفسي بأنه مغرٍ، حواف شعر رأسه يبللها العرق، تختلط رائحته بالعطور التي تشبَّع منها بدنه بالأمس، وامتزج كل ذلك برائحة الغرش الجديد والبويا الفاقعة، روائح توحي بأن هذه الشقة لعروس جديدة.

قرب الظهر استيقظ خالد غارقًا في عرقه، أخذ يسعل قبل أن يدخل الحمام، وعندما خرج كان على صورة أفضل قليلًا، فشعره مصفف والروب الذي كان مفتوحًا هندمه وربط حزامه، جلس على كرسي

الأنتريـه يتأملني، وكأنه يراني للمرة الأولـى، كنت قد ارتديتُ ملابس تليق بعروس سـوف تسـتقبل ضيوفًا صبيحة ليلة دخلتها، روب أحمر بكـم، لـه ياقة كبيـرة وناعمة، وحذاء بوبـر كحلي من الخـارج، وزغبه الداخلي روز، ربطت حزام الروب بعد أن حبكتُه جيدًا، اعترض خالد وقال:

«وسِّعي الروب قليلًا. لا يصح أن يراكِ أحد وأنتِ بهذا الشكل».

كانـت كلماتـه متناقضـة، بل وشـخصيته أيضًـا، كيف يطلـب مِنِّي بالأمس أن نصلي ركعتي شـكر للـه، وبعد ذلك بنصف سـاعة يتفرَّج على فيلم عارٍ في شـريط الفيديو، ثم يطلب الآن أن أوسِّـع روبي؟ لم أتوقف أمام هذه التفاصيل طويلا، وتذكرت كلمات أمي: «الزوج مثل الطفل. كلما عاندتِه صمم على ما في دماغه أكثر».

لم أشـعر في الليلـة الفائتة إلا بالألم والقلـق، الحقائق التي أعرفها جيدا لا أود أن أواجه نفسي بها دون رتوش، فأغلب الحقائق مؤلمة.

وأتذكَّـر قصة لا أعرف ما الذي جاء بها الآن، ربما الكرباج المعلق كقطعة ديكور رديئة على الحائط. في نهار شـتوي جئتُ من مدرستي الابتدائيـة، تهتز خلفي ضفيرتي وشـنطتي، سـمعتُ أمـي تتحدث إلى أختهـا الصغـرى، وعرفتُ مـن حوارهمـا أن خالتي تحيَّـة غاضبة من زوجهـا، وأمي تحاول عودتها إلى بيتها بـكل الحيل الممكنة، تُصبِّرها على حالها وعيشتها بكلمات عن العِشرة والعيال، وقالت خالتي: «من

أجل أن ينام معي مرّة كل عشرة أيام يجعل عيشتي مرارًا»، وتقول لها أمي: «تحملي يا تحية. فخلف كل باب مشاكل بعدد مساميره، والله يا أختي أسرار الخلق ما يعرفها إلا الخالق»، وكأن مثل هذه الكلمات حلّت لها المشكلة، تعود خالتي إلى زوجها، ويعود هو إلى طباعه القديمة، يأمرها بأن تخلع ملابسها كاملة، وتعطي وجهها للجدار وظهرها له، وبحزام له رأس حديدي يضربها على أماكن متفرقة من جسدها العاري، وعندما تتأوه من شدّة الألم يكون على أتم استعداد لأن يباشر مهامه الذكورية الجسورة، وهي تتألّم وتنزف. في كل مرة تغضب فيها كانتْ تعود إلى مُعذبها من جديد.

حاولتُ إبعاد مثل هذه الأفكار عن رأسي قدر استطاعتي، فالحقيقة الحاضرة الآن أنني عروس في صبيحة ليلة زواجي. عاد خيالي مرة أخرى إلى شقتي الجديدة في حي الزهور. فككت حزام الروب، وسّعته كي أرضي خالد، حاولتُ أن أكون زوجة مثالية، تتحمّل وتصبرُ من أجل زوجها وبيتها، كنتُ أتغاضى عما يزعجني، وفي المقابل، أستجدي كل ما يمكن أن يُشعره بالسعادة.

كُنَّا نحاول طوال الوقت إظهار أفضل ما فينا، تصرفات تليق بتعارف عابر لم يدم إلا ساعات قليلة. دق جرس الباب، جاءتْ أم خالد لترى الأمارة، لمّا رأت لون الدم اطمأنتْ، كانت تسكن في منطقة قريبة اسمها الألف مسكن، تعيش في شقتها وحدها بعد أن أخذ الموت رَجُلها الكبير، أبا خالد، وأخذتُ أنا رَجُلها الصغير، خالد. كانت امرأة

خفيفة الظل ولا تأخذ الدنيا على محمل الجد. حاولتُ أن أبدو أمامها زوجة طيبة ومناسبة جدًّا لابنها، وأنهم لو لفوا الدنيا كلها فلن يجدوا مثلي، كنتُ أحاول التغلب على هواجسي، أمنِّي نفسي دائما بأن القادم أفضل، وأنني لا أرى من السعادة إلا رأس الجبل فقط.

قامتْ حماتي وشمَّرتْ ساعديها ودخلت المطبخ، عندما اقتربتُ منها لأفعل مثلما تفعل ردت يدي: «أنتِ عروسة. لا تمدي يدك في حاجة لمدة ثلاثة أيام يا حبيبتي. روحي اقعدي مع عريسك»، عندما حاولتُ مرة أخرى ضحكتْ وهي تُمسِك خِصري بكفيها، ثم ضربتني ضربة خفيفة على مؤخرتي ودفعتني للخارج:

«خُذ عروستك يا خالد. ابعدها عني. لا تجعلها تدخل المطبخ ورائي».

بعد ساعتين خرجت وهي تحمل صينية عليها من أصناف الطعام ما يُشتهى، أكلنا وشربنا العصائر وعملتْ لخالد قهوة، وعندما طلب منها فنجانا آخر قالت: «القهوة تنشف الدم يا روحي. وأنتَ في أشد الاحتياج الآن لأن يجري الدم في عروقك».

قالت ثم حملتْ شنطتها واتجهت ناحية باب الشقة، وعندما تمسَّك بها خالد قالتْ: «يكفي نصف نهار».

عندما سمع خالد صوت الباب يُغلق قفز وخلع الروب، ثم قطع الشقة كلها جريًا، وأنا أقفز بخفَّة أمامه.

17

الحُب، محاولة للتعبير عن شـيء بارد لم أحسّه بعد، بدأت العلاقة الجسـديَّة بينـي وبيـن خالـد، لكن أيـن الحُب؟ فـي ذهني نمـوذج لـم أصل إلى إحساسـه بعـد، ذلك الفيض الذي ينبت من مشـاهد الأفلام العاطفيَّة، والشِّـعر المنقول، والخواطر، تلك المشاعر الظنيَّة لتخيّل ما هـو ممنوع، بعد أن تنـام الدنيا العادية المُتاحة، هنـاك حياة أخرى تبدأ في الخيال، هي التي ترسم حدود كل شيء. هذه الحياة لا تُشبه ما كان مرسـومًا في رأسـي من قبل، لكني على أيَّة حال كنـتُ أحاول التأقلم، فطالما شكرتُ الخالق على نعمائه مثلما فعلتْ أمي وجدتي.

أحيانًـا كنتُ أرى خالد يكلمني ويحرِّك شفتيه، لكني لا أشـعر بما يقول، لا أسمع من كلامه شيئًا، لا أحسُّه، قلتُ لنفسي كثيرًا:

«يوم واحد يا فاطمة قضيتِهِ هُنا وتتحدثين عما تشعرين به؟».

حاولـتُ الاندماج في عالمي الجديد، ليس لأنه ما كنتُ أحلُم به، ولكـن لأنني فقدتُ عالمي القديم وأصبح مترسِّبًا في عقلي فقط، لم يعد باستطاعتي إلا البحث عن بدائل.

فكَّرتُ كثيرًا بأن العيب فيَّ، وأن خيالي منشغل بأشياء معنويَّة بعيدة، مجرَّد ذكريات متفرِّقة لا يربطها شيء ولا تحدث الآن، وأيقنتُ أن كل ما يحدث ليس لي فيه يد، ولكن تُشكِّله يد كبيرة، أكبر من العالم أجمع.

أمَّا أنا، فلم أكن أرى من الناس إلاَّ ظلالًا لا تحمل أي روح، كأنهم مجرد كائنات غريبة احتلتْ كوكب الأرض، وأنني، ولسبب أجهله، جئت إلى هذا الكوكب عن طريق الخطأ، يمر يومي بشكل سحري، كأنه مرَّ من خلال شخص آخر غيري، أو كأنه غافلني ومرَّ دون علمي.

هل ما زال عليَّ أن أطرح وجهة نظري بشكل أوضح؟ سأحاول.

هُنا، وبعد أن صار اليوم أسبوعًا، أصبحتْ تُقابلني مُشكلة أخرى، لم أصدِّق كلمات خالد الليلية، تلك الكلمات الرقيقة الودودة التي تطلب الوصال والتقرّب اللذيذ، كان صوته الحقيقي الخشن يطن في أذني، وتتضارب معه أصوات أخرى ناعمة، كأنها للأنثى الكامنة داخل كل رجُل، الأنثى التي فشلتْ جيناته أن تَكُونها عند مراحل التكوُّن الأولى.

في هذا الصباح بالذات؛ شعرتُ بأنني غير مُحِقة في تسليم جسدي لرجل، أي رجل، حتى ولو كان خالد ضابط الشرطة، فشعري المربوط بأستك على شكل ذيل حصان؛ من الأكرم له أن يظل مربوطًا؛ لأنه عندما يُحل ويُفرد لن يمنحني سعادة فائقة تُخرجني من حدود الكوكب كما

كنتُ أظن. تعلَّمتُ من أيامي الفائتة أن الحقائق طوال الوقت صادمة، وأنها دائما أقل جوْدة من الخيالات والأحلام.

يوم أن كُسرتْ ساقي تمنيتُ لو أن كل أنثى تقول ما تُريد من زاوية معينة، تشرح وجهة نظرها الخاصة كما تراها، دون تجميل أو رتوش، فأنا لم أشعر مع خالد بالسعادة المتوقَّعة، هل حدث ذلك لي منذ اليوم الذي أخذني أبي ليقطعوا جزءًا من جسدي؟ لا أعرف، ولكن كل ما أعرفه أنني أريد أن أتكلَّم، أعرف أن مطلبي غريب، فنحن في بلادنا لا نتكلم، لا نود أن نتكلم، لا نحب أن نتكلم، وأحيانًا، نخاف من أن نتكلَّم، ربما يصبح الحال أفضل لو قُلنا ما في أنفسنا، في أسوأ الظروف سأصبحُ مثل ليلى، جارتنا التي تخطت الثلاثين ولم تتزوج، لا تزال تحتفظُ بشعرها مربوطًا، لكنه ليس على شكل ذيل حصان، وإنما على شكل كعكة خلفيَّة تحت طرحتها.

أحاول قدر استطاعتي ألا ألجأ لأيَّة تشبيهات أدبيَّة، هل النجاة الحقيقية في الابتعاد عن العالم الرومانسي الحالم؟ أخاف أن أصبح نسخة مُكررة من أبي، وإن حدث ذلك فرغمًا عني، ربما أثَّرتْ في رؤيتي جيناتي المأخوذة منه. أحاول أيضا ألاَّ أخشى من شيء. فأبي كان يقول: «مَنْ يخاف وقوع شيء فلابد أن يقع».

أعرفُ بأن نقل المشاعر بين الناس عن طريق الكلام أمر مُرهق، لكني أريد أن تنصتوا إليَّ ولو قليلًا من الوقت.

18

لم تكن هذه هي السعادة التي أتمناها، كم حلمتُ بأن يحكي شاعر ما أحس به، في هذه الحالة فقط سوف يصل ما أريد بالضبط. ولكن تبقى مشكلة، إذ كيف أصف أصلًا مشاعري لشخص ما، حتى ولو كان يكتب القصص والشعر مثل أبي؟!

كنتُ أرى أن حياتي كلها لا تخرج عن كونها مسودة خيالية لنسخة حقيقية لم تُكتب بعد، أشعر بأنني جئتُ قبل ميعادي، وربما بعده. ما أعرفه حقا أن الوقت لم يكن مناسبا لاستقبال الحياة لي، كنتُ أقاوم ذلك الشعور بطرق مختلفة، أحاول الاندماج مع الناس، أقنع نفسي بأنني أحب خالد بالفعل، أتابع السمك في الحوض، أشاركه الحياة نفسها، أقلد أصوات الممثلين في التليفزيون وأصوات العصافير في القفص. أتذكر تعليمات أمي دون وعي أو ترتيب مُسبق، لأصبح امرأة نظيفة أمام زوجي طوال الوقت، فقبل أن أخرج من الحمام لابد أن أترك رائحة عطرة من خلفي، أتابع وجود الصابون والشامبو ومعطر التواليت، أشياء بسيطة لكنها مهمة، لم أنس مرة واحدة أن أضع الصابون الملون بين ملابسي أو ملابس خالد. وأضع حب القرنفل

في فمي قبل النوم مباشرة، ربما ستكون الأيام القادمة أجمل مما فات، فالعمر أمامنا وليس وراءنا.

قضيتُ الأسبوع الأول وأنا أتأمل مكاني الجديد ببعض التروي، كانتْ الشقَّة واسعة إلى حد ما، في المدخل معلق برواز خشبي كبير تتدلَّى منه ورود صناعية ومصابيح ملونة، عرفت أن اسمه «برجولة» وخلف الباب مباشرة أنابيب نحاسية مفرَّغة تصدر نغمة كصوت الإكسليفون المدرسي، في الصالة حوض سمك ملون، فوق رف جانبي أكياس طعام للسمك وعبوات لتنقية المياه من الكلور. وعلى مدخل البلكون قفص به عصفوران جميلان بريش أخضر ومناقير صفراء، الحيوية التي تدب في الشقة بسبب هذه الكائنات كانت تصنع في قلبي مسَرَّة، وفكَّرتُ في هذه اللحظة أن أطلب من خالد شراء قطة ألاعبها كما كنتُ أفعل منذ سنوات.

وجدتُ نفسي أبحث عن المتعة في كل ما حولي، أو بالأدق، أستجديها، أستنطق الجمادات لتبوح لي بأسرارها، فقد كنتُ أظن وأنا في سن العاشرة أن الحجر له قلب ولكننا لا نستطيع اكتشافه، وأن الطُرق والأنهار والشجر تصغي لكلماتنا وترد عليها في دنيا أخرى لا نراها، عندما كنتُ أنقل لأبي مشاعري هذه يصمت لفترة، ثم يقول إن هذا الصوت الذي تسمعينه يحدثكِ بكلام سائل ويسمع مناجاتك هو صوت الله، وأخاف من ذكر كلمة «الله» الكبيرة وربطها بتصوراتي الصغيرة التافهة عن صوت الريح في البراح أو انسياب الماء في

أحـواض الـزرع. ولا أطمئـن إلا بعـد أن يهجـم الليـل فـوق أفكاري وتحملني كائنات غير مرئية وتصل بي إلى صباح اليوم التالي.

مـرت بخاطري أفكار كان سـببها الوحدة والتركيـز فيما حولي من أشـياء. لفت نظري أن أغلب ما في الشقة كان محاولة لجعلها طبيعية، فالعصافير لـم تكن على الأغصان تطير وقتما تشاء وتحط رحالها عندما يرهقهـا الطيران، كانتْ جميلة، نعم، لكنه جمال المكياج، والأسـماك التـي أمامـي لا تُبحر وتلفّ الدنيـا، بل تعوم في حوض عرضه سـتون سنتيمترًا وطوله أقل من متر.

وقفـتُ فـي البلكون أتفـرَّج، كان حي الزهـور يقع قريبـا من مطار القاهـرة، يمكننـي أن أرى الطائرات التي تسـتعد للإقـلاع، مرصوصة عنـد طريق أسـفلتي متعـرج، لا تظهر منها فـي الليل إلا أضـواء بعيدة مركزة في جسـم واحد، تقترب وأسـمع صوت وشيشـها كلما حطَّتْ أو أقلعـتْ، أراها من زجـاج النافذة كالطيور المهاجرة، مُضيئة ويمكن رؤيتها بالعين المجرَّدة.

أثناء اندماجي في الفُرجة لمحتُ سيارة بيضاء تقف تحت البلكون مباشـرة، يقودهـا رجـل لـه لحية كبيـرة، يضغـط كفه علـى الكلاكس ولا يرفعهـا، لمـاذا لا يصعد إلى الشـقَّة المُراد تنبيـه صاحبها؟ صوت الكلاكس مزعج، ولمَّا لم ينتبه أحد نزل من سيارته البيضاء واتجه إلى مدخـل العمارة، كنتُ قد أوشـكتُ على نسـيانه قبل أن أسـمع جرس البـاب، خالـد لا يـزال نائمـا، أيقظته ودخلـت مكانه إلى غرفـة النوم.

واربتُ باب الغُرفة كي أراه وهو يفتح باب الشقة، رأيتُ الطارق، نفس الرجل الذي كان يقود السيارة البيضاء ويضغط على الكلاكس، كانت ملامحه متوترة وكلماته سريعة متلاحقة، لم أسمع مما قالوه شيئا، فصوت الرجل عريض وبه نغمة تتوه فيها مخارج الكلمات، لا أعرف لماذا حَرِصَ على إخفاض صوته.

دخل خالد بسرعة إلى الغرفة، غيَّر الروب بملابسه الميري، أعطته مهابة إضافية، طالت هامته واعرضَّ كتفاه ووسعت المساحة عند صدره. طبع قُبلة سريعة على خدي، ثم فتح الباب وأرسل قُبلة أخرى طائرة على كفه وهو في طريقه إلى الخارج، لَمَّع حذاءه الأسود وحط الكاب الثقيل على رأسه:

«مَنْ هذا الرجل يا خالد؟».

ارتبك قليلا. فسؤالي كان مباشرًا:

«هذا الشيخ طه. سائقي الخاص. وهذه السيارة اللادا البيضاء ستمر كل يوم لتأخذني إلى المديرية».

ورابتُ الباب ونظرتُ بالخارج، لن يراني الضيف من هذا الجزء الصغير. كان الرجل ذو اللحية يقف أمام قفص العصافير ويضع يديه خلف ظهره، التفت بعد ذلك إلى حوض السمك، ثم وقف طويلا أمام صورة زفافي المُعلَّقة في الصالة بالحجم الكبير. فتح خالد الباب وخرج، وقفتُ في البلكون لأرى السيارة البيضاء وهي تتحرك، ركب

خالـد فـي الخلـف، وقاد الرجل السـيارة فـي اتجاه الخـروج من حي الزهور.

لم أسـتطع منع نفسـي من بعض الاستفسـارات البسـيطة، هل لكل رائد في الشـرطة سائق بسيارة لادا؟ وهل يعمل السائق في جهاز أمني ويُطابِق لحيته بهذه الطريقة؟

أرحـتُ رأسـي مـن تشـابكات التفكير التـي لا تنتهي، ذهبـتُ إلى المطبخ لأستكشـف عالمـي الخاص، مملكتي التـي أصبحتُ ملكتها الجديدة.

19

مر أسبوعان بين محاولات الوصول للسعادة والوصول إليها بالفعل.

تعلمت بعض الحيل لتقوية علاقتي بخالد، مجموعة مواقف أتقنتها من الأفلام، أضفت إليها بعض التحسينات من عندي. قبل أن يستيقظ كنتُ أكتب اسمه على مرآة التسريحة بقلم روج، أكبّر الخط بعرض القلم الأحمر. أو أضع ستارة صغيرة على باب الشقة من الداخل، أكتب عليها «شد الستارة لو أردتَ أن تعرف مَنْ الذي تحبه زوجتك»، ويشدها خالد فيجد صورته بالحجم الكبير خلف الستارة.

في الأسبوع الثاني لم يعد أهل الحي يتأملونني، بمرور الأيام اعتدتُ عليهم، لا أدري هل لم تعد نظراتهم تشغلني أم أنهم انصرفوا عن النظر إليّ بالفعل؟ في جميع الأحوال كان ذلك مُشجعًا لأن ألتفت أكثر إلى حياتي الداخلية. أقضي النهار أمام التليفزيون، كائنات تكلمني ولا يمكن أن أكلمها، أتفرج فقط وأتابع الأحداث، تمر أمامي الوجوه النظيفة وتتكلم، ولكني لا أسمعها، فقد كنت حبيسة الشقَّة ليل نهار. وأقضي الليل في البلكون، أتفرّج على الطائرات وهي تقلع أو تهبط.

حاولتُ اكتشاف المنطقة المحيطة بي، الجيران والمساحات الخالية حول العمارات، كل صباح أستنشقُ هواء ليس محملا برائحة الروث مثلما هي الحال في قريتنا البعيدة. ولكن رائحة الروث كانت تذكرني بمنصور أخي، واحتفالات شم النسيم وسط الخضرة تحت أشجار التوت، وتذكرني كذلك بالجري في الحقول وشيّ كيزان الذرة على لهيب القوالح.

هُنا، أصبحتُ أكثر انفرادًا بنفسي، أفكر كثيرًا في أمور متشابكة ومعقدة، هُنا في المدينة لا يحدثني أحد، كل شخص يعيش في حاله إلى أقصى مدى، في الشقة المقابلة تسكن امرأة عجوز وحيدة، تخاف من كل شيء تقريبا، فعندما قدمتُ نفسي إليها كجارة جديدة لم تفتح الباب لي، بل اكتفتْ بفتح شُراعة حديدية عالية، لابد كانتْ تقف على كرسي أثناء فتحها، أمّا الباب نفسه فمغلق بجنزير يُسمع احتكاكه من الخارج، لماذا كل هذا الخوف؟ كانت تلف رأسها بكوفية ثقيلة ومن تحتها زعبوط، من يوم رأيتها وهي ترتدي روب كارو شتويًا، صباحًا ومساء، كانت تكرر كثيرًا كلمة «خير»، تقولها دون داعٍ في أحيان كثيرة، ثم اكتشفت على لسانها كلمة مشابهة فرضها عليها العجز وقلة الحيلة «وماله» كل كلمة ترد عليها «وماله»، حتى ولو كانتْ تعليقات تخص حالة الطقس.

في المدينة، كانت الشقة المقابلة تعتبر بديلًا عن قريتي كلها، إذ لم يكن مسموحا بأن يتعرف أحد على جيران من عمائر أخرى، فهذا

التباسط هُنا مثير للشك والريبة، ويستدعي أسئلة غريبة لا إجابات لها تقريبا.

حلقة المسلسل وصلت لمنتصفها وأنا لا أود أن أتابع أحداثها، لكن حين رأيتُ جارتي الفارعة على الشاشة، تذكَّرتُ، إنها الممثلة كريمة شوقي، لقد قلتُ لنفسي مرارًا: «أين رأيتُ هذه المرأة؟» اكتسبت عمارتي قيمة إضافية لمجرد أن كريمة شوقي تسكن فيها.

كنتُ أطمئن أحيانًا لصوت التليفزيون الذي يسليني، فالصمت يوحي بالكآبة والقلق، وربما استدعى أحاسيس عن خوف حقيقي، كذلك الذي تشعر به جارتي العجوز مع وحدتها.

كل يوم يدور عقلي في متاهات جديدة لا أستوعبها، فأريح رأسي المتعَب بالتفكير في خالد، لم يمر يوم دون أن أفكر فيه، أتبع نصيحة أمي وأرتاح لأن كلماتها لا تزال معي.

تنتهي حلقة المسلسل دون أن أتابع منها مشهدا واحدا، أو حتى كلمة، كنتُ أنظر إلى التليفزيون فقط عندما تظهر ملامح كريمة شوقي على الشاشة.

لم أكن أعرف الكثير عن طبيعة عمل خالد، كل ما كنت أشعر به أنها وظيفة مرموقة، والناس تحدثني باحترام بالغ؛ ذلك لأني زوجة حضرة الضابط.

بعد شـهر واحد فقط بـدأت التركيز في فكرة الإنجـاب. وكأن كل ما يحدث لي هو مَعْبَر لهذه الفكرة، أو بمعنى أوضح، هذه الفكرة هي أهـم خيال يمكن تحويله إلى حقيقة، طفل أو طفلة. كنتُ عندما أدخل الحمـام أتحسـس بطني، لا أعرف لماذا أفعل هـذه الحركة اللاإرادية، ولا أعرف أيضا كيف أتخيل ملامح طفلي المُحتمل؟

20

عندما تكرر تواجدي وحدي بالشقة كانت الهواجس تلعب بي، حاولتُ الاندماج في بيئتي الجديدة، اندمجتُ في هندمة بعض المتعلقات لأكثر من ساعة. ثم نمتُ على سريري وعاد رأسي من جديد ينظر إلى الوراء، وتذكَّرتُ أبي وأمي ومنصور وخضرا، كان الحنين الطبيعي لأهلي يُضفي بعض مبالغات شعورية، فقد أصبح لكل منهم في قلبي ملف مليء بالذكريات الحلوة فقط، تجوّل خيالي مع منصور عند السنديانة الكبيرة، رأيتني وأنا أنزع عنها بعض الفروع، أصنع تاجًا أخضر وأضعه فوق رأسي، يخطف منصور إكليلي وأجري وراءه بطول شاطئ الترعة الصغيرة، تتبعنا أسراب البط وتلف من حولنا دوامات التراب، أقفز في الترعة ويعوم تاج السنديانة الأخضر بعيدا عن رأسي، يقفز منصور ويحاول سلبه، أصارع الماء وأخطفه قبل أن تصل إليه يد منصور.

راودتني فكرة غريبة في هذا الصباح، أن أجرب البذلة الميري التي يرتديها خالد، ربما تصلح تاجًا جديدًا، خلعتُ ملابسي أمام المرآة، ووقفتُ متحررة من كل شيء لبضع ثوانٍ، قبل أن أتقيَّد مرة أخرى

بالملابس، لكنها هذه المرَّة كانت ملابس ثقيلة وخشنة، البنطلون واسع جدًّا، والجاكيت أيضًا، عندما قفلتُ الأزرار أصبح شكلي مثيرًا للسخرية، فالنسر الذهبي ينزلق من فوق كتفي، والياقة الكبيرة تصل حتى صدري، لم أعرف كيف أربط الكرافتة، بعد أن عقدتها حول عنقي كان شكلها مُضحِكًا، أما الكاب فكان ثقيلا، كأنني أحمل فوق رأسي خوذة ثقيلة.

بسرعة خلعتُ هذه الملابس، عندما اقتربتُ منها بشدَّة لاحظتُ كل عيوبها.

قرفصتُ على سريري كأن رأسي تظلله غيمة وتداهمني رغبة طاغية في النُّعاس.

أفيق من تأملاتي على صوت شيء ما يدب السلم بالخارج، ثُم أسمع خطوات سريعة ومريبة، تتبعها خطوات أقوى وصراخ، كان الصبح قد بزغ وبدأت أشعة الشمس تأخذ طريقها للنوافذ ومنور السلم، وأنا لا أريد أن أترك سريري، تضاربتْ مشاعري في ثانية واحدة، جزء يريد أن يصحو ويستكشف ما يحدث بالخارج، والجزء الآخر يخشى ترك السرير، أصبحتُ مجموعة من التناقضات. توقفتُ أمام العين السحرية قليلا قبل أن أرى، الدنيا كلها ساكتة، فقط صدى الصرخة المكتومة التي شقت الصمت منذ قليل، أقتربُ من العين السحرية ولا أسمع شيئًا، يتوقف الصراخ ويتلاشى، وقع خطوات

على السلالم يقتربُ ببطء، العين المستديرة الكاشفة عند أعلى الباب ترى المسافة بين الشقتين ملولبة كسرداب يهتز في كابوس، أضع يدي على «الأُكرة» وأترددُ في فتح الباب، ثم أسمع صرخة أخرى أضعف من الأولى، كأنها استغاثة مكتومة وخائفة، لا أسمع خطوات على السلم بعد ذلك، لكني رأيتُ فتاة تقع وترتطم بالباب، حتى أنني عندما فتحتُ مال رأسها داخل الشقة، كانت تصرخ منذ مدة وتوقف الصراخ في حلقها، قبل أن أتأمل ملامحها جيدا أرى شخصا ينزل مسرعا، أشقر وأصلع، طويلا وواثق الخُطى، نظرته ثابتة ومرعبة، من خلفه تقف امرأة فارعة، سرعان ما تذكَّرتُها، هي نفسها، كريمة شوقي، يبدو الرجل متقاربا معها في السن، بضعة وخمسين عاما، البنت النائمة أمام باب شقتي تشبه المرأة الواقفة من خلفها، تشبهها بشكل مثير للغرابة، يقترب الرجل من الفتاة، يتقوس ظهره جدا أثناء انحنائه، يُخرج من جيب بنطلونه سرنجة نصفها فارغ ونصفها مُعبأ بسائل أصفر شفَّاف، وقبل أن يقترب من الفتاة تسحب ذراعها وتقول بصوت واهن:

«أنا الملكة. أنا الملكة»

يغرز الرجل سن الحقنة في ذراعها ثم يستقيم عوده، بعد قليل يحمل الفتاة دون كلام، تساعده المرأة ويصعدا بها للدور الأعلى، كان الرجل يلتفت إليَّ عند صعود كل درجة، كأنه يحفر ملامحي في ذاكرته قبل أن يغيب.

يدور المشهد كله في طُرقة صغيرة بين باب شقتي وشقة السيدة العجوز، لم تفتح العجوز بابها لتستكشف الأمر، كما تعودتُ منها، ولم ينزل أو يطلع أحد من الجيران، كأن الكل متآمرون لكي أرى وحدي هذا المشهد، لأظل أسأل نفسي: هل حدث ذلك في الحقيقة، أم أنها بقايا أحلام ترسَّبتْ في عقلي؟

بعد قليل أرى شابًّا عفيًا على مشارف العشرين، يلبس جلبابا أبيض وطاقيّة بيضاء ناصعة، ينزل السلالم وكأنه طيف، الشيء الوحيد الذي يجعله مثل البشر هو صوته، سمعته خاطفا:

«السلام عليكم».

قالها ثم اختفى، لم ينتظر أن يرد أحد عليه السلام، في اللمحة الخاطفة التي رأيته فيها ظهرتْ قسماته هادئة وابتسامته مطمئنة، في هذه البرهة الوجيزة لمحتُ لحيته الخفيفة تلفها هالة من ضوء، كأنها ظل.

لماذا لم يتدخَّل لتخليص الفتاة الضعيفة من هذه الأيدي المصمِّمة على سحبها؟ عدتُ بعد أن هُيئ لي بأن السلم لم يعبره أحد، وأن هذا الشيخ الصغير هو الآخر لم يعبر إلا خيالي أنا فقط.

لماذا لم أتحدث إليهما؟ لماذا لم أسأل عن علاقتهما بالفتاة أو أمنعهما من حملها؟ كان منظرهما يخيفني، خاصة عندما اقترنتْ نظراتهما بالصمت، بدا المشهد كأنه يدور على بساط حلم، لا يمكنني الاستعانة بأي شخص خارجي من الواقع، أغلقت الباب ودخلت.

اقتربتُ من صورة زفافي، حاولتُ أن أبدد خوفي أمام البرواز الكبير، صِرتُ على قناعة شبه تامة أنه في حي الزهور لا يمكن لشيء أن يزيل الخوف، في هذه اللحظات كانت الرغبة في النوم تختفي تدريجيا، والمساحة التي كانت مخصصة للطمأنينة احتلها الأرق بكل أصنافه.

21

مر شـهران من عُمر زواجنا ونحن نُجرب معا هذا الشـيء الجديد الـذي أصبـح مطلبـا مُلِحًا، كانت الجرعـات كل يوميـن، ثم أصبحتْ مرتين في الأسبوع، يمكن أن نستغرق وقتا طويلا، ويمكن أن ينكمش الوقت كلمحة عابرة. كنتُ أستلقي بعد ذلك على السرير، لا أتمكن من تصور أي شيء بشكل مكتمل، أشعر فقط بالرغبة في الطعام والنعاس، تعبث في رأسـي دوائر لذيذة من ضوضاء خفيفة وغفو، وأضواء بارقة تتسـلل برفـق، ولمحات من الماضي تأتيني فـي صورة ضوء معكوس على زجاج مكسور. ترهل جسدي قليلًا عندما انكمشت روحي.

حاولـتُ نسـيان ما حدث منذ أيام، الفتاة التي كانت تسـتنجد بي، الرجـل والمـرأة عندمـا سـحباها لأعلـى. انشـغلتُ فـي ترتيـب بيتي الجديد، بحثتُ عن الزهور التي سُـمِّي حينا باسـمها، مسحتُ المنطقة الصغيرة بعيني من البلكون، كانت نجيلة خضراء محدودة منزرعة بين ضفتي الطريق الأسفلتي، والشجرة التي لم أتبيّن نوعها عند مجيئي إلى حي الزهور للمرة الأولى ظهرت بلون مُترب يحجب أشـعة الشمس، اكتشـفتُ في وضح النهار أنها عود مـن الكافور الجبلي، نظرتُ تحت قدمـي فـي البلكـون فرأيت أصـص زرع بلاسـتيك ملونـة، فيها ورود

وأشـجار توقّـف نموها منذ مجيئهـا للحيـاة، ألوانها أزهى مـن الزرع الطبيعي، لكن لا حياة تدب فيها، لها رائحة الأحذية ولعب الأطفال.

بجـوار الأصص لمحتُ زجاجة معطر «اسـبراي» كانت مخصصة لرش الزرع البلاسـتيك، فمـع أول رائحة خرجتْ من العبوة شـممتُ المعطـر الـذي لفحني عنـد دخولي إلى الشـقة للمرة الأولى. سـألتُ نفسي وأنا أقارن بين مساحات الغُرف:

«لماذا لا أصنع حي زهور صغيرًا في شقتي؟».

وكأن شخصا آخر هو الذي كان يحادثني، امتثلتُ لصوتي الداخلي بسرعة غريبة، غيرت ملابسي وخرجت.

بعد الظهر بقليل كان المارة في الشارع يسيرون بخطى سريعة، عدد قليل من الناس يصوِّب أنظاره إليّ، يتأملني بشكل مقصود، حاولتُ أن أسير بخطوات منتظمة كي لا يظهر ارتباكي، جعلتني هذه المحاولات أبدو مرتبكة بشـكل أكبر. عند البوابة، رأيت رجل الأمن يقف، ورأيت المجـذوب نفسـه الذي قابلنا عنـد دخولي إلى هُنـا لأول مرّة، يجلس خارج البوابة، يفرش بطانية لا فرق بين لونها والتراب، بجواره زجاجة ميـاه ورغيـف مأكـول نصفه، وزجاجـة دواء بـلا غطاء. نظـر إليّ ولم يتحرك، ثم أخذ يقلّب زجاجة الدواء بين أصابعه.

تجاوزتُ بوابة حي الزهور، مشيت في اتجاه الخروج وأنا أستكشف المداخـل المحيطـة بسـكني الجديد، المشـي بالنسـبة لي مُتعـة كبيرة وفرصة لتخفيف التوتـر، لكن في مثل هذه المنطقة الصحراوية يصبح

المشي مُرهقا بشكل كبير، لم يمنع الصندل الخفيف حرارة الشمس من لسع قدمي، في دقائق قليلة تسللت السخونة إلى جسدي كله، أنزلقُ إلى منحدرات رملية، أتعثر في حُفر صنعتْها الصبّات الخرسانية للمباني الجديدة، أمرّ على أسيجة تركن فيها سيارات قديمة هالكة، أمامها أنصاف عمائر تتناثر من حولها الأخشاب ويتكوّم الحصى، وعند بقايا هذه الأشياء يجلس رجل فقير مع زوجته؛ وأولاده الصغار من حوله مبعثرون.

يظهر من بعيد لون أخضر مثل بستان صغير نبت في صحراء، مُقام على مساحة تكفي لبناء بيتين، اقتربتُ فوضح أكثر، مشتل للوازم التي أحتاجها، عندما دخلتُ إلى الزرع الأخضر شعرتُ كأني عُدتُ إلى حيث جئت، قريتي الصغيرة، الرائحة الطبيعية الجذَّابة نفسها، الأشجار الخضراء وأسراب العصافير التي تحط فوق أغصانها القصيرة، لكن الشجر لم يكن ينبت في الأرض، فكل شجرة لها جذر ملموم ومُعبأ في صفيحة من صاج صدئ، والورود مرصوصة في أصص بلاستيك بُنِّية.

مشهد الزرع كان أفضل ما رأته عيني منذ مجيئي إلى حي الزهور، الذي اكتشفت أنه بلا زهور، توقفتُ أمام البائع العجوز فابتسم:

«شكلك غريبة عن المنطقة يا ابنتي».

«أنا ساكنة جديدة في حي الزهور».

تنهد العجوز ونظر إلى السماء:

«حي الزهور. نعم. كان حديقة للزهور».

انشغلتُ بالرجل بعد أن كنتُ منشغلة بالورود والأشجار:

«تقول كان؟».

أشار بإصبعه إلى عماراتنا البعيدة:

«كل هذه العمائر كانت حديقة».

«حديقة؟».

«نعم. كانت حديقة للزهور».

«ثُم؟».

«ثُم اشتراها شخص مجهول بورق مزوَّر وباعها إلى البنك، وتبدد ميراث العائلة».

«عائلة مَنْ؟»

«عائلتي، ثم جاءت الجرّافات وأزالتْ كل أخضر كي تُثبّتَ زهورها الخرسانية فوق جذور الأشجار. أسقطت الجرافات لافتة «حديقة الزهور» ووضعتْ لافتة أخرى مكتوبًا عليها «حي الزهور» لكن تغيير كلمة واحدة غيّر على الأرض أشياء كثيرة. لم يبق لي من ميراث أبي إلا هذا المكان. رفضتُ أن أبيع هذا الجزء الصغير من نصيبي، جلستُ هُنا منذ خمسة عشر عاما. أبيع الزهور والشجر لمن لا يزال متمسّكًا بلغة الطبيعة».

كان الرجـل يكبس رأسـه بقبعة كبيـرة منثنية الحـواف، كتلك التي يلبسـها الممثلون في أفلام رعاة البقر، مدَّ يده وسحب سلَّة فيها حَب، أخذ حفنة منها ثم خلع قبعته ووضع فيها الحب، ثم وضعها على رأسه مرَّة أخرى، ما إن فعل هذا حتى حط على رأسه الطير، عصافير صغيرة لهـا مناقير دقيقة، جلس على حجر فلم تهجـر العصافير قبعته، قصعته المليئة بالغذاء، ابتسم الرجل وأشار بطول ذراعه إلى مشتله الواسع:

«ما اسمك؟».

وقبل أن أنطق رفع يده أمامي:

«انتظري لحظة. سوف أقول لكِ. أنتِ إمَّا زينب وإمَّا فاطمة».

لم أستطع منع نفسي من التبسّم:

«كيف عرفتَ يا عم؟».

«هل لكِ أحد الاسمين؟».

«نعم. اسمي فاطمة. لكن كيف عرفت وحياة النبي؟».

«ملامحكِ لا تخرج عن هذين الاسـمين، وأيضًـا الطبيعة يا ابنتي. الطبيعـة تُنبـئ وتُعلِّـم؛ لذلـك لا أود أن أتركها وأعيش في هـذه الغابة الخرسانية».

ثُمّ أشار بطول ذراعه مرَّة أخرى إلى عمائر حي الزهور.

تجوَّلتُ بين الأشجار والورود، اشتريت بكل ما معي من نقود وردًا طبيعيًا حيًّا تفوح منه رائحة الحياة، ورشَّـح لي الرجل شـجرة مرسـين

صغيرة، وبعض براعم ريحان وياسمين وحبيبات تقاوي وأصيص فارغ، سألتُ العجوز عن شجرة سنديان صغيرة، عندما وجدتُ عنده طلبي كدتُ أطير فَرَحا، أعطاني الشجرة التي لا تزيد على طول عُكّاز، لملمت بضاعتي من الشجر والورود وعُدت إلى حيث جئت.

أثناء مروري عند البوابة وقف المجذوب ودنا مِنِّي، في البداية خفت بسبب اقترابه كل هذه المسافة، تبدد الخوف عندما تأمل أحمالي جيدًا وكأنه يفهم ما اشتريتُ، أشار بإصبعه إلى السنديانة الصغيرة، ثم جاهد كي تخرج منه جملته الأولى مكتملة: «هذه الأرض لا ينمو فيها سنديان. الأرض رمليّة وتحتاج إلى زرع سريع ليس له جذور»، ثم قطف وردة من الأزهار الكثيرة التي أحملها وانزوى مرة أخرى عائدا إلى بطانيته المتكومة فوق الأرض.

أثناء عودتي كنت أحاول إبعاد شبح المجذوب بكلماته عن عدم جدوى زراعة السنديانة، فأول ما فعلته عند عودتي طلبتُ من البواب أن يحفر معي حفرة صغيرة لنضع فيها السنديانة الصغيرة، خططت لأن أرويها يوميا بدلو ماء حتى يشتد عودها وتستطيع مواجهة الريح، بالفعل زرعناها أنا والبواب وأصبح بإمكاني رؤيتها من البلكون بسهولة.

أثناء وقوفي أمام باب شقتي بحمولتي من المشتروات الخضراء سمعتُ صوت جرس عاليًا يصم أذني، رميت ما معي من أشياء وتتبَّعتُ مصدر الصوت، كان يأتي من شقّة المرأة العجوز، اقتربتُ وطرقت الباب، لم يفتح أحد، والجرس لا يزال يصدر الصوت

بشكل مُزعج، عندما تأملتُ الباب كان يرتعش قليلا، لم تصلني أي إشارة من الداخل بسبب صوت الجرس العالي، توتّرتُ ولا أعرف ماذا أفعل، أتأمّل الزرع الذي اشتريته وأُفكّرُ في فتح باب شقتي، لم أفعل شيئا من هذا، بل اقتربتُ أكثر من مصدر الصوت بجسارة لا أعرف من أين أتتني، على مهل وببطء شديد فُتِحَ الباب، وبعد أن أصبح هناك متسع لأرى اليد التي فتحت الباب؛ سقطت المرأة العجوز على الأرض، حاولتُ الدخول فمنعني جسدها الممدد خلف الباب، للحظة خفتُ، تبعتها لحظات أخرى تشجّعتُ فيها، فتحتُ الباب برفق حتى أزحت المرأة من طريقي ودخلت، كانت فاقدة للوعي، ولم أدرِ ماذا أفعل لها، ولا أعرف لماذا دخلتُ أصلا إلى هُنا؟ حملتها بسهولة وأزحتُ جسدها الخفيف على أقرب كنبة، بحثتُ عن المطبخ، وعندما دخلتُ بحثتُ عن السكّر، أذبتُ لها كوبًا كبيرًا من الماء البارد بالسكر وأسقيتها إياه، كل ذلك يدور والجرس لا يزال يعمل بإزعاج.

ما إن فتحتْ عينها حتى أشارت إلى الجدار، عندما نظرتُ إلى مكان إصبعها رأيتُ زر مفتاح كهربي، اقتربتُ منه ودُستُ عليه فتوقف صوت الجرس:

«هل أنتِ بخير؟».

هزّتْ رأسها ببطء يناسب سنها:

«شكرا يا ابنتي».

كانتْ عيني تنظر في اتجاهات عدَّة، لم تمنعني ربكتي من الرد عليها:

«العفو».

عندما اعتدلتْ وأصبحتْ في حالة أقرب للطبيعية أخذتْ تتحسس جسدها جيدًا، تضغط بأصابعها على ذراعها، تمد رقبتها وتمط شفتيها كمن يتشمم من حوله رائحة نفَّاذة، نظرتُ طويلا إليها، كائن خفيف وواهن، كأنها إنسان كوَّنه خيال شعري، لم تكن ملامحها مخيفة، لكن إحساس الخوف لم يتركني برغم محاولتي التماسك، قلت لها وأنا أهِمُّ بالقيام:

«هل تريدين شيئًا آخر يا أمي؟».

أمسكتْ بيدي وجذبتني برفق، أعادتني لوضع الجلوس مرَّة أخرى:

«لا يزال ورائي الكثير من أعمال البيت. سوف أشتري أشياء من تحت».

جاءني صوت العجوز بطيئا جدا:

«لو نازلة هاتي لي ربع كيلو بُن من السوبر ماركت».

مدتْ يدها بالنقود، أصررتُ أن آخذها منها فأخذتُها، وعدتُ أنظر مرة أخرى إلى الزر الذي دستُ عليه، وأخذت أفكر في الصوت العالي:

«ما هذا الجرس الذي كان يرن؟».

سألتُها فقالت وهي تمشط بإصبعها الصغير ضفيرتها القصيرة:

«هذا موضوع شرحه يطول. هاتي البن أولًا وسوف أحكي لكِ».

تركتُ حاجياتي خارج الشقة ونزلت بسرعة، اشتريت لها طلبها وعُدتُ في وقت وجيز. أدخلت الزرع الطبيعي لشقتي أولا ثم خرجت وطرقتُ بابها، فُتحت الشراعة التي أصبحتْ بديلا عن الباب، لكني ما إن مددتُ يدي حتى رأيت الباب بالكامل يُفتح، ورأيتُ المرأة العجوز وكأنني لم أرها من قبل، ظهرها منحنٍ وبدنها منكمش على نفسه، كانت تبدو على مشارف الثمانين، سمعتُ صوتها وربطتُه بشكلها الجديد:

«تعالي نشرب فنجاني قهوة مع بعض».

22

ترددت في قبول الدعوة، لكن رغبتي في استكشاف العالم المحيط بـي كانتْ أقوى، لم يستمر ترددي طويلا، رغم أن المرأة وحيدة في شقتها، عجوز وتمشي بصعوبة، فإنني لم أستطع منع نفسي من الخوف ولو لثوانٍ قليلة. تغلَّبتُ على خوفي غير المبرر ودخلتُ، كانت شقتها من الداخل مُرتَّبة وقِطع العفش منسقة بذوق كلاسيكي جميل، الستائر مرسوم عليها ورود رقيقة بألوان زاهية، والصالون أرجله من أسفل ضخمة على شكل رأس أسد فاغر الفم، السجاد له وبرة عالية مرسوم فوقها حيوانات أليفة تقف في بستان، وعلى الجدران تصطف براويز لامرأة تشبه صاحبة الشقة، لكنها أصغر سنا ونظرتها أكثر حيويَّة، وهناك جدار كامل معلق عليه أكثر من عشرين صورة مختلفة الأحجام والوجوه، بعضها صور قديمة من أيام الملك، وبعضها حديث مُلوَّن، كانت الصور بالأبيض والأسود أزهى ولافتة للنظر، إحداها لشخص يلبس بالطو ويجلس واضعا ساقا على ساق ويشرب الشيشة، وأخرى لعروس تتزين وتعطي للمصور ظهرها بينما وجهها يملأ المرآة، كانت تشكيلة عجيبة من الصور عن شرائح اجتماعية متباينة ومختلفة.

بطء خطوتها وهي تسير أمامي أعطاني الفرصة لأدقق النظر في أغلب مقتنيات الشقة. عندما وصلنا للصالون كان وقت طويل قد مرَّ، جلست السيدة العجوز على الكرسي بصعوبة، فتحتْ درجًا قريبًا من يدها وأخرجت سبرتاية وسُكَّر، رفعتْ زجاجة مياه مركونة بجوارها، ثم بدأت تضع محتويات القهوة وتُشعل السبرتاية:

«أنا اسمي سناء. وأنتِ يا عروسة ما اسمك؟».

«اسمي فاطمة».

هللت العجوز ورفعت يديها لأعلى كأنها حصلتْ على جائزة، أثناء اندفاعها بنطق اسمي اهتز طقم الأسنان في فكها العلوي، وقع في حِجرها، أعادته إلى فمها مرَّة أخرى، حاولتُ ضبطه بسرعة كي لا أنتبه لذلك، كان شيئًا مؤلمًا أن تُعيد الطقم إلى فمها بمثل هذه السرعة لتبدو أمامي امرأة بأسنان طبيعيَّة:

«الله. فاطمة. اسمك جميل. بنت أختي اسمها فاطمة. منذ عشرين عاما وهي مع زوجها في الكويت».

توقفت الملعقة في برطمان السكَّر:

«سُكَّر قهوتك يا بطة؟»

تحاول العجوز أن تكون مضيافة ولطيفة بشكل يناسب ما يمر على خيالها، تضحك ولا شيء يستدعي الضحك، وتصمت عندما يجب الكلام، انتبهتُ لسؤالها فأجبتُ:

«أنا لا أشرب قهوة. لكن ممكن أشربها معكِ».

لا أعرف هل سمعتني أم لا، كانتْ ملامحها توحي باحتياج شيء معين، شيء لا يستطيع أحد تخمينه، لمعة في عينها تبرق وتستدعي شريط ذكريات لا أحد يراه غيرها، في نوبة من نوبات الامتناع عن الكلام طال صمتها حتى أوشكت القهوة أن تفور. صبَّتها بيد مرتعشة فاختفى «الوِش» من على فوَّهة الفنجان، بدأت العجوز ترشف من فنجانها بتلذذ، نظرتُ إلى الصور الكثيرة المُعلَّقة على الجدران وسألتها:

«هل كل هؤلاء أقاربكِ؟».

يبدو أنها لم تسمعني، فابتسمتْ ثم أعدتُ عليها السؤال، رددتُ الكلمات نفسها مرَّة أخرى، ضحكت العجوز ونظرتْ للبراويز المُعلقة:

«لا. أنا لا أعرف شيئا عن حياة هؤلاء. وهذا هو السبب في أنني اشتريتهم، كنت أذهب إلى الأسواق الشعبية منذ زمن، أيام ما كان باستطاعتي أن أمشي. أشتري الصورة التي تعجبني. أعلِّقها. وبعد أن تظل هكذا أمامي شهرين أو ثلاثة أقعد أمامها وأكتب قصة حياتها».

قامت بصعوبة وفتحت درجًا، أخرجت منه أوراقًا غير مُرتَّبة، ترتعش يدها الممدودة أمام وجهي:

«بُصي يا فاطمة، كل صورة من هؤلاء لها قصة على هذا الورق».

تبتسم، وتُكمل:

«طبعا ليست القصة الحقيقية، لكن القصة التي أقوم باختراعها، حاجة تجعل الوقت يمر عليّ دون أن يختل عقلي أو أموت. أجدُ مُتعة في كتابة قصص هؤلاء الناس على مزاجي، أشعر أنهم مساكين لو لم يتخيل عنهم أحد بعض القصص. بُصي عليهم. ألا تصعب عليكِ حالهم وهو متعلقون هكذا ولا يجدون من يتكلم عنهم؟».

أتأمل البراويز من جديد، أدقق في الوجوه وأتخيل ما تقوله مرسوما على وجوههم، تُكمل كلامها وهي تتأمل الصور معي:

«لو كانوا يعزون على ذويهم لما تركوهم لبائعي الروبابيكيا يا فاطمة. كانوا سيحتفظون بهذه الصور مهما حدث. يورثونها لأحفادهم وأحفاد أحفادهم، لكنهم هانوا عليهم ولا أعرف السبب».

كانت تتحدث ولا تنتظر ردًا منّي، عروق رقبتها تنفعل بسهولة مع كل كلمة تقولها:

«لم أرض بالزواج منذ ستين سنة. عندما كنتُ بنتًا حلوة مثلك يا فاطمة، خفت من أن يطلقني زوجي، أو يرميني أولادي في الشارع. مثلما حدث لإخوتي وأقاربي، لكن الظاهر أن النهايات كلها تُشبه بعضها، أخواتي البنات مات أزواجهن. تزوج أبناؤهن أو سافروا، تركوهن فأصبحن أيضا وحدهن».

وضعت الأوراق التي تحمل قصصها على منضدة بيني وبينها، نظرت للورق وقالت:

«اسحبي لك قصة. وأنتِ ونصيبك. ممكن تطلع حلوة وممكن تجدينها مملة».

مددت يدي مترددة إلى الأوراق، فأمسكتها العجوز وابتسمت:

«مؤكد أن قصصي لن تعجبكِ. فقد كتبتها وأنا على عجل».

ثم نظرتْ إلى باب الشقَّة:

كل الناس تعمل الجرس داخل الشقَّة، والزر يكون بالخارج. صح؟ أنا عملت العكس. الجرس خارج الشقَّة، والزر بالداخل. وليس زرًّا واحدًا. لا. في كل حجرة زر للجرس. قُلت لنفسي: لو جاءتني نوبة مَرَضيَّة من تلك التي تسلب الأرواح، فمَن ذا الذي سيأخذ باله مِنِّي؟ لو داهمني شيء خطير فسوف أمدّ يدي إلى أقرب زر وأرن الجرس، وعندما يسمعني الناس يكسرون الباب لينقذوني».

كانت بداخلي رغبة قوية لسماعها، رغبة مرتبطة برغبتها في الكلام، ابتسمتُ لها دون رد، فقالت:

«قلت لكِ ستتعجبين. لقد أزعجتك يا فاطمة».

فترة صمت مرَّت دون أن نتكلم، ثم اقتربتْ مِنِّي كأنها ستقول لي سرًّا:

«أتمنى ألاَّ يقرأ قصصي أحد غيركِ».

بـدأتْ روحي المطمئنة تأخذ الطريق التدريجي للتوجس، شـربتُ القهوة واسـتأذنتُ فـي الانصراف، فابتسـمت العجوز ابتسـامة مرحة وقالت:

«أرجـوكِ يـا فاطمة. لا تنسـيني. أنـا أحببتكِ جـدًّا. وانتبهـي أيضًا لصوت الجرس، لقد أوصيتُ الكهربائي أن يشتري لي جرسًـا بأعلى صوت. انتظري قليلًا. سوف أسمعكِ صوته».

تتجـه إلـى جدار قريـب وتضغط الـزر، يركـن إصبعها عليـه لمدة طويلـة، ينطلـق الصوت مدويًا، صوت أقرب إلى سـارينة الإسـعاف، استقامت العجوز وقالت بفرح:

«صوته عالٍ، أليس كذلك؟ عندما تسمعين صوت الجرس يا فاطمة ادخلي الشـقّة بسرعة. حتى لو يكسـر زوجكِ الباب. وأنا أصلحه بعد ذلك عادي. لكن لا تنسيني».

وقفـتْ بالقـرب من باب شـقتها وهي ممسـكة في يدهـا بورقة من الأوراق الكثيرة التي كانت تمد يدها بها ونحن نشرب القهوة:

«خُـذي. هـذه قصـة. اقرئيهـا براحتـك. ولـو أعجبتكِ سـأعطيك الباقي».

تركتها وخرجتُ، دخلتُ شـقتي وطيف العجوز والقهوة والبراويز لا يزال ملء جفوني.

اعتقـدتُ بأنني جئتُ إلى هُنا لأبـدأ حياة جديدة، لم أكن أعرف أن هُناك أشـياء كثيرة بـدأتْ وانتهتْ قبل مجيئـي. وأن كلامي لن يُضيف

جديـدًا، لم أكـن أود أن أتكلّم، فيكفي ما حولي مـن كلام، التليفزيون يحدثنـي، والراديـو، وأشـخاص لا أعرفهم يحدثونني أثنـاء النوم، ألا يكفـي كل هذا الكلام الموَجّـه إليّ ليجعلني أكف عن الحديث؟ كنتُ أرى الرغبـة فـي محادثتي تخـرج من نظرات جيراني الجـدد، ما الذي يُغريهم كي يتوسموا فيّ آذانًا صاغية لحكاياتهم؟!

23

لـم يزدني حديث المـرأة العجوز إلا خوفًا وانكماشًـا داخل ذاتي، ورغبة مُلحّة في التفكير بنفسـي فقط، أمَّا مَنْ حولي مِن الناس فكأنَّهم هُلام أو خلفية لصورتي الرئيسـية، ارتبكـتُ أفكاري وفقدتْ جوهرها الحقيقـي، حتـى هذه السـيدة العجوز؛ لـم يَرُق لي الحديـث إليها، بل ازددتُ خوفًـا بعد زيارتها القصيرة، لم أعـد أطمئن لأحد أو لتصرّف، يبدو أن اندماجي في هـذا المجتمع الجديد سـيأخذ وقتًا أطول بكثير مما كنتُ أتوقّع.

جلسـتُ وأنا أنسـق في خيالي الأماكن التي سأضع فيها ما جئت به من شـجر وورد، كان للبلكون نصيب كبير من الأصص، ركنتُ الزرع الجامـد إلـى جانب واحد، وبدّلتـه بآخر طبيعي له ملمس زيتي ولون أفتح قليلًا. كانت حواف أوراق الشـجر الصناعي لها أسنَّة حادة تؤلم يـدي، أما الخَضـار الطبيعـي فيلين بين أصابعـي، كان هشًّـا وحقيقيًّا. جلسـت أرتاح على كرسي خيزران هزاز.

يذهـب خالـد إلى عملـه بمديريـة الأمـن ويتركني وحـدي أغلب سـاعات النهار، يعود ونأكل، بعد الغداء ينام سـاعة ثم يسـتيقظ لنسهر معًا أمام فيلم السهرة أو مباريات المصارعة الحرة التي يعشقها، كانت

الأيام تشبه بعضها كيوم واحد طويل يتم توزيعه على العمر، لكن هناك بعض الأحداث التي تفض هذا التشابه، كمثل ذلك المشهد الغريب الذي حدث ذات ليلة، كان خالد نوباتجي وسوف يبيت بالخارج، دق جرس الباب ونظرت كالعادة من العين السحرية، رأيتُ الفتاة التي حملها الرجل والمرأة منذ أيام، الدق يتوالى على الباب خفيضًا وسريعًا، ما إن فتحتُ الباب حتى وجدت الفتاة بالداخل، تقف ولا تتكلم، تقرض أظافرها بأنيابها، تنزل دموعها وتخط الكحل فوق وجنتيها، لكن دون صوت واضح أو نشيج بكاء، بعد دقائق قليلة يرن الجرس، وأنظر من العين السحرية مرة أخرى، تقف البنت وهي ترتعد، رعشة اجتاحت جسدها عندما لمست يدي الأُكرة، كان الرجل والمرأة اللذان حملا الفتاة منذ بضعة أيام، وهي تشير لي بألا أفتح لهما، ودون كلام ربتتْ على صدرها تستحلفني بألَّا أسلمها إليهما مهما حدث، دخلتْ في حركة مباغتة ووقفت خلف ستارة الصالة، مكان الطاووس بالضبط، وتركتني في حيرة، أفتح أم لا؟ وإذا فتحتُ هل أقول لهما إن الفتاة التي يبحثان عنها هُنا أم لا؟ فتحتُ الباب قبل أن تأكلني الحيرة، وقبل أن أسمح لهما بالدخول ظلّا لثوانٍ يتأملان محتويات الشقة، ثبتتْ عين الرجل على الطاووس الذي تختبئ خلفه الفتاة، قال الرجل بلهجة صوت آمرة:

«ممكن تفتحي الستارة؟».

وأقول:

«ستارة؟!».

وترد المرأة الفارعة:

«بدون فضائح، نحن نعرف أن ابنتنا هي التي تقف خلف الستارة».

قلتُ بنبرة مهزوزة:

«ستارة! لا يوجد أحد خلف الستارة».

وينفعل الرجل الواقف بجوارها:

«يا مدام من فضلك».

ثم اقترب مني أكثر من اللازم:

«من فضلك يا مدام. لو لم تكن ابنتنا هي الواقفة خلف الستارة، فمن الذي يقف؟».

وقبل أن يتمادى أوقفته عند حده:

«كيف تتكلم هكذا؟ أنت لا تعرف...».

قاطعني الرجل بحدة:

«يا مدام من فضلك. كل ما نريده أن نأخذ شروق ونمشي».

أقفُ بجوار باب الشقة:

«لا يوجد عندي أحد اسمه شروق. ولو سمحتما أريد أن أنام».

يجـري الرجل في اتجاه السـتارة ويسـحب ذراع الفتـاة، ثم يجرها بشكل عنيف للخارج:

«ومن تكون هذه؟».

تتحوَّل أصابع الفتاة إلى مخالب، تنغرز في ذراعي:

«أرجوكِ لا تتركيني».

تجذب المرأة الفارعة يدها وتخلصها من ذراعي بأعجوبة، لم يكن مـع الرجـل حقنة هذه المرة، فلم يسـتطيعا حملها مثل المرة السـابقة، لكنهمـا جرجراهـا على السـلم، الغريـب ألا أحد من سـكان العمارة يسـمع أو يـرى ما يحـدث، كنتُ كأنني جمهور وحيد يـرى فيلما، لم أسـمع أي صوت يحاول استكشـاف ما يحـدث، أو يتدخل بالفعل أو بالقول، حتى الشُّـراعة في الشقة المقابلة لم تفتحها العجوز لتتلصص علـى ما يجـري من حولها كمـا كانتْ تفعل. أحسسـتُ بأنني مكبلة، لا أستطيع تقديم المساعدة للفتاة، ربما خفتُ من جرأة الرجل الأصلع ونظرات المرأة الفارعة، لكنني في نهاية الأمر لم أستطع إنقاذ الفتاة من قبضتيهما.

بعـد أن صعدا بها لأعلى لم أسـمع لهما أي صوت، لكنني لمحتُ الشـيخ الصغير الذي رأيتـه من قبل مرتيـن ينزل من أعلى، وسـمِعتُ صوته:

«هل لديكِ خُبز ناشف؟».

«هه؟».

«خبز ناشف يا مدام. أريد خبزًا ناشفًا لو كان لديكِ».

كان صوته يَغرَضّ كأنه يخرج عبر مواسير بعيدة، ثم نزل السلالم دون أن أتمكَّن من الرد على سؤاله، لا أدري هل لمحته يجرجر من خلفه هالة صغيرة من الضياء أم هُيئ لي؟

دخلت وأغلقت الباب، لم أستطع منع نفسي من التفكير في الفتاة وأهلها، لكن شيئا غريبا حدث بعد مرور عِدّة دقائق، نسيتُ أنا الأخرى الفتاة وما حدث لها، لم تعد المسألة بِرمَّتها تشغلني، أو ربما هيأتُ لنفسي ذلك الإحساس كي يمكنني النوم، لكن النوم طار بعيدًا.

عُدتُ إلى المشهد الذي يطرد الملل، الفرجة على المنظر المُضيء لمطار القاهرة، أرى الطائرات وهي تُقلع، وأتابعها بشغف أثناء الهبوط، عندما تسبح الطائرات فوق السحاب كنتُ أطيِّر معها أحلامي القديمة، وعندما تعود الطائرات للهبوط من جديد كنتُ أستعيد أحلامي مرة أخرى، قوس مضيء تضربه جيوب هوائية، الغبار يطير كدخان أمام أعمدة الإضاءة. وقفت في الشُّرفة أتأمل الأجسام الفضية المضيئة وهي تقترب من مهبط الطائرات، كان الليل يستدعي كائناتي التي تشغلني ويضعها في حِجري، عملت كوب شاي ورشفت نصفه، ثم تأملتُ الزهور البلاستيكية التي بلا روح، ظلال الليل وألعاب الإضاءة الخافتة تجعل الورود تتداخل مع محتويات الشقة وتندمج مع آخر ملامح رأيتُها. دائمًا نعومة الخيال تجعل خشونة الواقع محتملة.

24

بعد ساعتين خَفَتَ صوت الناس أكثر، وعندما كنتُ أستعد فعليا للذهاب إلى السرير، شعرت بحركة تحدث خارج البلكون، ارتطام خفيف بالزجاج والألوميتال، صوت ضعيف مكتوم، وأنظر فأرى حبلا يتأرجح خلف زجاج البلكون، هل يكون لصا؟ تبخّرتْ شجاعتي في ثوانٍ، الحبل لم يكن وحده، كانت تنزل عليه فتاة تشبه تلك التي وقفتْ مكان الطاووس منذ قليل، هي نفسها التي اختبأتْ خلف الستارة وجذبها أبواها، رأيتُ قدميها أولا، ثم ظهرت الملابس نفسها التي كانتْ ترتديها، تهبط لأسفل، عندما رأيتُ رأس الفتاة وتأكدتُ من ملامحها توقّف الحبل عن الهبوط، ورأيت يدها تقرع الزجاج برفق، قمتُ كالمسحورة وفتحتُ لها باب «الألوميتال» بسرعة، أمسكت الفتاة بملابسي ثم قفزت على البلاط، كانت هناك آثار لسحجات على وجهها. ما إن لمستْ قدمها الأرض حتى بحثتْ عن أقرب شيء تستند إليه، دعوتها للجلوس وأنا أرتجف، لم يكن خوفي بسبب مجيئها، لكن بسبب الطريقة التي تسللتْ بها إلى شقتي قُرب الفجر. عملت كوبيْ شاي وجلسنا نشربهما، هدأتْ ملامحها قليلا وبدأت تأخذ طريقها التدريجي للتعبيرات، قلت لها:

«انت اسمك شروق. صح؟».

وتهز رأسها بعلامة الرفض:

«لا. أنا كريمة شوقي».

وتصمت لثوانٍ، وكأنها تعطيني فُرصة كافية للتفكير فيما قالته، لماذا تنتحل شخصية أمها كريمة شوقي؟ الممثلة صاحبة الأدوار المهمة، كلها أدوار ثانية، لكنها علَّمت في نفوس جمهور كبير من المشاهدين، كل ذلك ينطبق على أمها، المرأة الفارعة، لكن هذه الفتاة الصغيرة لا يمكن أن تكون كريمة شوقي:

«سوف أحكي لكِ الموضوع».

وبدأتْ ترشف الشاي بنهم:

«هل عندك بسكويت أو شيكولاتة؟».

فاجأني السؤال، ودون تعليق قمتُ وأحضرتُ طبق كعك بالمكسرات، فأكلَته أيضا بنهم مبالغ فيه، كان الفتات يقع على ملابسها، والسكر الناعم يصنع إطارًا واضحًا حول شفتيها:

«منذ مدة طويلة لم أضع شيئًا في فمي. يمنعون عني الطعام، يضعونه في دولاب عليه قفل، هُم من أغلقوه أيضا».

«هُم. مَنْ هُم؟».

انتصبتْ سبابتها كمسمار وهي تُشير إلى السقف:

«الناس الساكنين فوق».

«بابا وماما؟»

«ليسا بابا وماما».

«مَنْ يكونون؟».

ملأت فمها بالطعام وبدأ فتات الكعك يخرج من بين شفتيها في كل حرف تقوله:

«المرأة التي رأيتها أمي».

«أعرفها. كريمة شوقي».

«لا. هي ليستْ كريمة شوقي. المهم، هذا الرجل لا يمت لي بِصلة قرابة. تقول بأنه دكتور التجميل الخاص بها».

«وهل هُناك طبيب يعيش مع مريضة بشكل دائم؟!».

«يمكن أن يكون زوجها. فقد مات أبي قبل أن أولد».

شعرتُ أنها تبالغ فيما تحكيه فقط لتستحوذ على اهتمامي، محاولات كي تعيدني إلى أجوائها كلما سرحتُ منها. ثُم عادتْ تُشير بسبابتها إلى أعلى:

«المرأة التي تسكن فوق هي مَنْ قالت لي ذلك».

وبدأتُ أتغاضى عن كم الغرابة في كلامها:

«لكن، كيف تكونين أنتِ كريمة شوقي؟».

لحست كفَّيها بشكل لا يليق:

«المرأة التي تسكن فوق اقتربتْ من الستين. منذ خمس سنوات وهي لا تُمثِّل، فلم تعد أدوار الحُب التي عوّدتْ جمهورها عليها تُناسبها، وبسبب الشبه الكبير بيننا كنت أؤدي أدوارًا صغيرة بدلًا منها، وأحيانًا عدة مشاهد يجب أن تكون فيها أصغر سنًّا، ازدادت مساحات التصوير حتى أصبحت نصف الفيلم. وبعد أن فزت في مسابقة ملكة جمال مصر جعلتني أقوم بتصوير بعض الأفلام بالكامل. أنا من أعطيتها قبلة الحياة، آخر خمسة أفلام أنا التي مثَّلتها بدلًا منها، أضع ماكياج يكبرني قليلًا، أقف أمام الكاميرات مكانها، أعامل الناس على أنني هي. واستمر اسم كريمة شوقي بسببي أنا، وأصبح يُعرض عليها بطولات مطلقة لأول مرة. لكن عندما اكتشفتْ أمي بأنني سوف أصبح هي في كل شيء حتى الحصول على الجوائز، أتت بهذا الرجل لا أعرف من أين، وقالت له بالحرف الواحد: «لازم نعمل أي حاجة توقف هذا القطار قبل أن يدهسنا.. وكانت تقصدني».

توقَّفت عن الكلام وأخذت تأكل البسكويت وتلطِّخ وجهها بالشيكولاتة دون أن تدري. لمستُ كوبي وشعرت بحرارة الشاي، ربما لأتأكد من أنني لستُ في حلم، وأن كل ذلك يحدث لي بالفعل في الحياة الموجود فيها حي الزهور وخالد، الزهور البلاستيكية قريبة

جدًّا منا، وفستان فرحي يبعد عني خمسة أمتار فقط، والفتاة لا تزال تحكي:

«أصبح الرجل الغريب يعطيني حقنة كل يوم. لا أعرف لماذا. بعدها لا أستطيع القيام من مكاني، وأدخل الحمام كثيرًا».

أكلت كل الكعك الذي قدمتُه، رفعتْ زجاجة مياه كاملة إلى فمها وأنزلتْها فارغة، قلتُ لها:

«ولماذا يخبئون عنكِ الطعام؟».

«كي أحتاج إليهم بشكل دائم».

«ولماذا لا تتركين الشقة؟».

«خبئوا كل الأوراق التي تثبت هويتي، شهادة الميلاد والبطاقة والباسبور».

«اعملي غيرها».

«من ضمن الأوراق الجديدة التي استخرجوها لي شهادة وفاة».

نظرتُ في عيني الفتاة لأتأكد من سلامة عقلها:

«شهادة وفاة لمن؟».

قالت دون تردد أو تلعثم:

«لي أنا. فأنا بالنسبة لأي تعاملات رسمية أعتبر ميتة».

وقبـل أن أهضم مـا قالته من كلمـات أكملت كأنهـا تحكي حكاية شخص آخر:

«هل تعرفين أنني كنت ملكة جمال مصر منذ أربعة أعوام؟»

أهز رأسي ولا أرد عليها، يستفزها صمتي:

«فعـلا والله، طبعـا لا تصدقيني. هذه هي أكبـر مصيبة حدثت لي، فعندما نشـرت المجلات صورتي ظهر الشـبه الكبير بيني وبين المرأة التي تسكن فوق».

ثم أشارت بسبابتها إلى أعلى مرة أخرى.

«الصـلاة خيـر من النـوم» صوت المؤذن أسـمعه واضحًـا، وتفزع شروق، أو كريمة من مكانها:

«لازم أطلع حالا».

«لماذا؟».

«ميعـاد الحقنة بعد الفجر مباشـرة، فاضل حوالي رُبع سـاعة. ولو استيقظا ولـم يجداني سـتحدث مشـكلة كبيرة. لابد أن أنصرف الآن. سـوف آتـي إليكِ مـرة أخرى. أنـا عرفتُ الطريقـة. وأنـتِ بالتأكيد لن تخافي مِني بعد ذلك».

قالـت ثـم اتجهتْ ناحية البلكون، تسـلقت الحبل الكتـان ذا العُقد الكبيـرة، تقفـز فوقه كأنها كانـت تلعب في سـيرك، كل قفزة تصعد بها

رُبع متر لأعلى، خفتُ أن أقترب كثيرًا منها، راودني إحساس بأن بداية الطرف الآخر للحبل معلَّقة في السماء. بعد أقل من دقيقتين اختفت الفتاة بحبلها، وعدتُ إلى الكرسي الذي كنتُ أجلس عليه، أتفقَّد المكان برويَّة، أتابع من بعيد الطائرات المضيئة وهي سابحة في الفضاء الفسيح، وأتخيل هذه المدينة الشاسعة بلا حدود.

رأيت كوبين من الشاي يتسحَّب على حوافهما الثفل، وطبق كعك بلا كعك، فقط فتات دقيق وسُكر وبقايا مكسَّرات.

25

كان أبي يأتي في الأعياد والمواسم مصطحبًا أمي، محملًا بخزين مضمون المصدر من أرضنا الخضراء، وليس عبوات وأكياسًا مثل التي نشتريها مع مؤونة البقالة، لا يبيتون، تحكي لي أمي بعض وقائع مرت على القرية، ولا تنسى أن تذكرني بليلى ووحدتها وأبيها المُسن، ويقرأ أبي عليَّ بعض قصصه الجديدة، ويتلو آخر أشعاره الحماسية عن حب الوطن، ثم تغمض عينه من الإرهاق قبل أن يكمل كوب الشاي.

ذات مرة جاءت أمي بصحبة عمي وحده، دون أبي، وكانت حمولة الخزين في هذه المرة أضعاف ما يأتي به أبي، لدرجة أن عمي حمَّل الأرز والسكر والفطير على جرار زراعي لم يكن به مكان إلا للسائق فقط، وما تبقى كان للأجولة والكراتين والأسبتة. وكان خالد يتكلم عن عمي وأمي أفضل من كلامه عن أبي. حاولتُ إقناعه بترتيب زيارة قريبة إلى القرية وتحجَج بأشغاله الكثيرة التي لا تنتهي، كنتُ قد بدأت الملل الفعلي من جدران الشقة التي حفظتُ تفاصيلها، والمسلسلات موضوعاتها مكررة لا تقدم جديدًا.

حاولتُ أن أبدد خوفي من الوحدة بتقديم الطعام للأسماك الملونة، ما إن اقتربتُ من الحوض حتى وجدت سمكتين ميتتين، والسمكات الست الباقية تلتف حول الجثتين، لا أعرف لماذا ماتتا؟ لمحتُ العصفورين ساكنين، العصفورة في وضع جلوس دائم، والعصفور يقف خلفها بلا حركة، زغب ريشه واقع تحت قدميه، يحسب من يراه أنه ميت.

ثم حاولت أن أبدد خوفي من الوحدة بالتقرب من الجيران، لم يزدني ذلك إلا خوفًا أكبر، فطباعي لا تُقارن بطباع هؤلاء الأغراب، وكل محاولات الاندماج لم تؤتِ أي ثمار حتى الآن. كنتُ قد اعتدتُ على حياتي بنمطيتها المملة، لا أعرف عن طبيعة عمل خالد الكثير، كل ما أعرفه أنه ضابط شرطة برتبة رائد ويعمل في مديرية أمن القاهرة، كانت فكرتي السابقة عن مهنة ضابط الشرطة مغلفة ببعض المبالغات، ربما رسمت المسلسلات والأفلام مثل هذه الصورة سابقة التجهيز.

كان خالد يُرسل إليّ بعض جنوده ليقضوا لي طلبات من الخارج، استقر عسكري واحد منهم، أصبح كثير التردد على الشقة بأوامر من خالد، عسكري صعيدي اسمه سعيد البسطامي، لم أشعر يوما بأنه يصلح بديلا عن خضرا. كان يذهب بالملابس إلى الكواء ويشتري الخضروات من السوق ويقود لخالد سيارته في المشاوير القريبة، لم يشفع له كل هذا المجهود في أن ينال كلمة شكر، بل كان خالد يوبخه طوال الوقت، والعسكري سعيد ينظر إلى الأرض ولا يرد.

لـم أشـعر بأنني هنا منذ سـنتين، الأيام تمر شـبيهة ببعضهـا، العمر يتسـرَّب دون إنجاب، فقد أصبحتُ في العشـرين، وعند هذه السن في قريتنا تجرّ الزوجة في ذيلها ثلاثة أطفال أكبرهم دخل المدرسـة، كنت أشتاق لإنجاب طفل أتابعه باهتمامي ويكبر أمامي شيئًا فشيئًا، يشبهني ويشبه خالد، لا، أريده أن يشبهني أنا أكثر، أُسمِّيه إياد، لا يأخذ من أبيه بقدر ما يتأثر بي، فأبوه لن يراه مثلي، ولن يحبه مثلي.

بـدأتُ أوجـه الطاقة القصوى من تفكيري لطفل المسـتقبل، عندما جذبتني الفكـرة وتملّكتْ مِنّي وضعتُ خالد علـى الهامش، رغم أنها مجرد فكرة، فبطني لم تنبت فيه أية بذور حيّة حتى الآن.

أصبحـتْ علاقتـي بخالد مجرّد مَعْبَر لإنجـاب طفل، لا يهمني أي شـيء في هـذا العالـم إلا أن أجلـب إليه نموذجًـا صغيرًا بديـلًا عني، ألاعبه وأجهز فرشته وأشتري له الدباديب الملونة.

اقترحـتْ علـيّ حماتي أن نقوم بالكشـف عنـد اختصاصي، بالفعل ذهبنا إلى طبيب في عيادته الخاصة، قال خالد بأنه يعمل في مستشفى الشـرطة نهارًا، لكـن العيادة أفضل، أجرينا التحاليل واسـتلمنا النتيجة بعـد يوميـن، كانـتْ خلاصة التقريـر الطبي أن خالـد لا يعيبه شـيء. وأن علـيّ إن أردت الإنجـاب القيام بإجراء عملية، قال خالد إن نسـبة الخطورة فيها كبيرة، ركبنا السـيارة في صمت، وفور أن تحرَّكتْ بنا لـم يتوقَّف خالد عن الكلام:

«الأطفال ليسوا أفضل شيء في الدنيا يا فاطمة، أنتِ زوجتي في جميع الأحوال، زوجتي الوحيدة. هه. الوحيدة».

لم أرد، وحماتي لا تنظر إليّ ولا إلى خالد، هو فقط مَنْ يتكلم:

«من قال لكِ إنني أريد أطفالًا؟ وهل كل من أنجب سعيد في حياته؟».

لم أكن أفكر فيما يقول، بل أفكر في حالي، وكيف سأواجه سنواتي القادمة وحيدة بين أربعة جدران؟ كيف ستستمر حياتي بين الزرع البلاستيك والبيئة الجبلية في حي الزهور؟ هل عندما أمِلُّ من وحدتي سأحدِّثُ السمكة الملونة أو عصفور الزينة؟

الطريق الذي استغرق ساعة عند ذهابنا استغرق أياما عند عودتنا إلى الشقَّة، مرّ خالد على الألف مسكن حيث تسكن أمه، وقبل أن تترك السيارة قالتْ حماتي:

«اترك فاطمة تبيت معي الليلة يا خالد».

فَردَّ دون أن يتمسَّك بي:

«هذا بيتها أيضًا يا أمي. سوف أمر في الغد عليكما».

هي المرَّة الأولى التي أدخل فيها شقَّة حماتي، كانتْ قليلة الأثاث منظمة، وفي ترتيبها ذوق قديم، جلسنا وتحدثنا، فتحنا موضوعات من هُنا وهناك، أكلنا وشربنا الشاي والعصير، لكنني كنتُ أشعر بأن

حماتي تريد قول شـيء آخر غير ما تحدثنا فيه. بالفعل، بعد أن خفتت ابتسامتي وامتلأت معدتي قالت حماتي:

«فاطمة. أنتِ نقيّة جدًّا. ولذلك فلن أخبئ عليكِ شيئًا».

تبددت ابتسامتي وانتظرت أن تكمل كلامها:

«ما قاله خالد لكِ لم يكن الحقيقة. فهو الذي لا يسـتطيع الإنجاب ولسـتِ أنتِ. ولأنني طوال عمري لا أحـب الظلم فكان لزامًا عليّ أن أصارحكِ بالحقيقة، رغم أن ذلك سيُغضِبُ ابني».

دائما هُناك مشـكلة في استيعاب بعض الكلمات مرّة واحدة، لماذا قال لي العكس؟ ولماذا قالت لي أمه الحقيقة؟!

«خالد طوال عمره مدلل، عاش حياة مرفهة. لا يمكنه استيعاب أنه معيوب».

«وما ذنبي يا أمي في كل ذلك؟».

«حبيبتي. لو لم أتوسّم فيكِ حِفظ السر لما قُلتُ لكِ».

«سر؟».

«لم أكن أعرف بأن المسألة وراثية».

«وراثية؟ كيف وأنتما أنجبتما خالد؟».

تلعثمتْ:

«خالد؟».

«أنتِ تواسينني فقط يا أمي. تضحكين عليّ كي أصبر».

«هل تعرفين يا فاطمة أن شقة حي الزهور التي تعيشان فيها لم يشترها خالد؟ بل اشتراها له أبوه وهو لا يزال طفلًا».

«الشقة؟ آه. حي الزهور».

«وهل تعرفين مَنْ الذي سدد مقدمة الشقة؟».

«هه».

«عمك مختار».

لفَّت الدنيا بي، رأيت أمامي خطوطًا سوداء متشابكة، ثُم تَلوّن السواد كأنه خيوط صوفيّة تعلو وتهبط مع كل نظرة، ثُم لم أعد أرى شيئًا.

26

استراح دقماق الرجل بجوار المصحف، وهمدت حناجر المتحدثين، في تلك اللحظات بدأ القلق يأكل روحي، والأرض تلف بي.

***

عندما تأكدتُ بأن الحزن يُبلِّد الحواس ويجعل إرادتي تتخلَّى عني حاولتُ إبعاده قدر استطاعتي، ونظرتُ لخالد على أنه حقيقة لا يمكنني إنكارها أو استبعادها، ارتحتُ لهذا الإحساس، أصبحتُ أبحث عن الأشياء المُفرحة في تفاصيل عادية، أثناء جلوسي وحدي بالشقة كنتُ أبحث عن مُسلِّيات تُبدد وحدتي، أحرك ذراعي على جدار وأصنع خيال ظِل، أثني أصابعي وأفردها لتتشكل فوق الحائط صور على هيئة حيوانات وطيور.

حاولتُ معرفة كل تفاصيل ممكنة عن حياتي الجديدة التي بدأت بالأمس فقط، بداخلي لهفة المقارنة بين ما كُنته وما سأصير إليه، طاقة مشحونة تريد هضم طريقة الحياة هُنا وكيفية التعامل مع بشر لم أعتد التعامل معهم، تجتاحني الأسئلة المباغتة، وتفتت قناعاتي القديمة، من المفترض أن ضابط الشرطة لا يكذب، فهو باحث عن الحقيقة،

كيف لـه أن يتحايل بهذا الشكل؟ وعندما لا أجد إجابات لا أتسرع، فأمي كانت تقول إن الأيام كفيلة بإنضاج كل شيء. كل يوم يمر عليّ كنت أفقد فيه جزءا من سذاجتي.

خالد لا يتخيّل أن صراحة أمه يمكن أن تصل إلى هذا الحد، كان يعاملني برقة عندما يحتاج إليّ فقط، أما غير ذلك فالمعاملة فاترة، يغلب فيها الشد والصوت العالي، وربما بعض إهانات كلامية من تلك التي تُعالَج بعد أن نجتمع على سرير واحد. مع مرور الوقت أصبحتُ أقف في وضعية تناسب تلقي الإهانة، وفي الليل، أطلع على السرير وأصبح في وضعية أخرى لتلقي جزء منه بداخلي، جزء لا يمكنه إنتاج شيء للمستقبل، يتأمَّل خالد جسدي بنهم، وبعد أن يختفي إحساس اللهفة تدريجيا، يُضيء جميع أنوار غرفة النوم، يتأملني جيدا، يُغلِق عينه على صورتي كما يريد أن تستقر بداخله. مع تكرار ما يحدث بيننا، لم أعد أهتم بالمتعة الحسيَّة. لم أكن أعرف ما هو ذلك الشيء الذي ينقصني، لكني كنتُ أعرف أن هناك شيئًا مهمًّا ينقصني بشدة، وخالد كان يريد أن يمتلك كل ما يمكنه دفعة واحدة.

بعد مرور عامين عليّ هُنا لم تعد المقارنات بين حي الزهور وقريتي البعيدة مناسبة، فالأحاسيس التي جئتُ وأنا أحملها بدأتْ تنسحبُ من داخلي. ولا أعرف سببًا واضحًا لذلك، كنتُ مُحمَّلة بالأحلام أكثر من النصائح، لم يخبرني أبي بأنني سأُمنح لرجل بلا مُقابل، ولم تُخبرني أمي بأن الزواج تَمَلُّك من طرف واحد.

جئتُ إلى هُنا وأنا أقول: «إحنا» وتعودتُ مع مرور الأيام أن أقول «أنا» ومنذ أن تملّكتْ مِنّي تلك الـ«أنا» أصبحتُ حائرة في وصف نفسي، فقد كنتُ منسجمة مع الجميع، كموجة كبيرة في بحر، والآن، تحيَّرتُ في فهم الأشياء عندما أصبحتُ قطرة.

كل شيء من حولي كان مرتبا وأنيقا، لكن هذا الترتيب يوحي في معنى من معانيه بفراغ موحش. اضطررتُ مُرغمة أن أفصل بين ما أسعى إليه وأحلم به، وما يحدث لي بالفعل. لم تعد دنياي هي خالد كما كان يرسم خيالي، فحي الزهور مليء بالرمال، وأحلام الرومانسية تحوَّلتْ إلى طوق وكرباج وشريط فيديو، ومؤخرا عدم الإنجاب. لم يبق لي إلا تمسكي بالجزء الإيماني الضعيف الذي بقي بداخلي منذ أيام القرية، عُدتُ إلى الصلاة بانتظام، صمتُ أيام الاثنين والخميس أملا أن يتحسن حالي ولو قليلا، لم تعطني المواظبة على أداء الشعائر تلك النفحة المرجوة من السعادة، لكنني لم أملّ من استجدائها.

فكَّرتُ في طلب الطلاق، ثم استبعدتُ الفِكرة سريعا قبل أن تأخذ مساحة كبيرة في رأسي، لا توجد مُطلَّقات في عائلتي، فأمي عاشتْ أكثر من عشرين عامًا وهي غير راضية عن حياتها، وخالتي تحيَّة تُضرب بالكرباج وتعود لزوجها، مؤكد لن أجد من يُنصفني؛ لذلك فقد استبعدتُ هذا الحل الصعب ولم أعد أفكر فيه.

حاولتُ إيجاد طريقة لاختراع حياة مُرضية، أبحث عن سعادتي في التفاصيل الصغيرة، لم أكن أتفاعل كثيرًا مع الأحداث والأخبار

التليفزيونية، لا يوجد بداخلي شغف لتقصي المزيد عن أشخاص لا أعرفهم، فماذا يمكنني أن أفعل لطفل بائس من أراضٍ بعيدة يحتاج إلى طعام، أو امرأة تهدَّم بيتها في أقاصي الأرض؟ كرهتُ نشرات الأخبار واستسلمتُ للمسلسلات، أشاهد كائنات نظيفة تحيا حياة رومانسية في الغالب، وأنظر حولي فلا أجد أثرا لرومانسية، فقط متطلبات الحياة تضغط على أعصابي وتستهلك كل وقت متاح للتفكير. بسبب جلوسي كثيرًا أمام التليفزيون أصبحت أتكلم بلسان الآخرين، تهت بين الشخصيات التمثيلية وأصبحت واحدة منهن، أطبخ وصفات الشيف في برامج الطهي، وأعيش مآسي الآخرين بعد أن أتقمص قصصهم وأتخيل مشاعرهم، وأشعر فيما تبقى من وقت بالملل والفراغ.

إحساس رفضي لواقعي كان يخايلني من فترة لأخرى، لم تعد مهمتي الأساسية هي الحفاظ على خالد، ولم أقتنع بأنني امرأة خُلقتْ من أجل زوجها فقط، لماذا لم يشعر هو الآخر بأنه خُلق من أجلي؟ في عينه كنتُ أشعر دائمًا بمحاولات مستمرة للتفوق عليّ، كان كثيرًا ما يغضب كالأطفال لأسباب تافهة، كأن يبحث عن حذائه ولا يجد إلا فردة واحدة، أو يقلب الثلاجة بحثًا عن نوع الجبن الذي يفضله، حاولتُ الخروج من إطار إرضاء زوجي فقط، كنت أود أن أُعبِّر عن نفسي أنا، أنا، بدون الرغبة الدائمة في إرضاء خالد أو التفكير المستمر في الحفاظ عليه. محاولات إسعاده المستمرة كانت تأتي بنتائج

عكسية، فكلما أطعته وحاولتُ امتصاص غضبه زاد عنفه أكثر وتكوّن لديه إحساس زائف بأنه صاحب حق.

كنتُ أشعر بين وقت وآخر بأن حياتي أكثر عُمقًا وموسيقيّة من النغمة التي تحدث بالفعل. وعلى الجانب الواقعي من شخصيتي: كنتُ أشعر بأن قوتي تخونني، تتخلى عني وتحاول إفراغ شخصيتي من مضمونها الحقيقي. أحسستُ بأنني خفيفة، أكاد أطير.

27

حاولتُ الانشغال عن مُشكلتي الرئيسية مع خالد بالبحث في مشاكل الآخرين، فما حدث للفتاة على بُعد ثلاثة أمتار رأسيًة فقط كان غريبا، لا أصدِّق أنها محبوسة رغمًا عنها، لماذا لا تهرب وتطعن على شهادة الوفاة المزورة؟ لو فعلتْ ذلك ستبدأ حياة جديدة تتحرر فيها من أمها والرجل الأصلع الغريب.

جاء خالد من عمله منهكًا، أخرجني ولو لثوانٍ قليلة من حيرتي المرتبطة بالفتاة، لكنه أدخلني في حيرة من نوع آخر، قال وهو يفتح بالكاد عينه المتعبة:

«أمي اتصلت بي في الشُّغل. قالت إنها مريضة جدا».

لا أدري هل قلت له: «ألف سلامة» أم صمتُّ ولم أرد، لكنه أكمل:

«أنا مُتعب الآن أكثر من أي إنسان. اذهبي إليها يا فاطمة. سأنام قليلا ثم أتبعكِ».

لم أتردد في تغيير ملابسي بسرعة، وقفت في الصالة وأنا أفكر في سؤال واحد، هل يمكن أن يطمئن خالد على أمه بالإنابة؟ أثناء شرودي نام خالد على كرسي الأنتريه بملابس الشغل.

الأفكار في الصباح حُرّة، لم يُفض اشتباكها بعد مع عالم الأحلام، برودة الصباح مُنعشة، والسماء تخلع ثوبها وتغير ألوانها ببطء، كان تحكمي فيما يحدث من حولي محدودا جدا، الشطر الأكبر مما يحدث موكل ليد خفية لا أراها، كان أبي يُحيل كل ما يحدث لنا إلى يد الخبير البصير، وتوكله أمي ليد الخنزير.

اشتهيتُ لعبتي القديمة في هذا الجو الصباحي المليء بالشبورة، تفكيك ما يحدث لي من وقائع، ثم رسمها مرة أخرى بشكل يناسب خيالي، أتخيل بنائي لعالمي الجديد، فالأرض بإمكانها أن تصبح مربعة، والسماء لن يضيرها شيء لو صارتْ تحت قدمي، أمتطي سُحبها وأبعد عن عالمي الأرضي بنفس مطمئنة.

العمارات تغلفها غلالة من دخان الصبح الخفيف، والبواب يوارب البوّابة وينام خلفها في حجرته الصغيرة، ينتظر أول من يخرج وأول من يصعد، فتحتُ البوابة، ورغم صوت زئير مفصلاتها الواضح فإنه لم يستيقظ، تخطيته وعبرت للداخل، كان متكومًا في سكون ككلب مسموم، والمصعد معلق على بابه كرتونة مكتوب عليها بخط رديء «عطلان» أصعد للدور السادس على سلالم متسخة بسبب عدم استخدامها كثيرًا، وعندما أصل إلى باب الشقة أضغط زر الجرس، ولكن لا يفتح الباب أحد، هل نسيتُ رقم الشقة؟ فالدور الواحد فيه ثماني شقق، أي أن خمس عمارات مثل هذه تملأ مساحة في حجم قريتنا.

بعد انتظار طال كثيرًا وضغط على زر الجرس لأكثر من مرة فتحتْ أم خالد، كان الوهن يبدو عليها بالفعل، لكنها متماسكة إلى حد ما. الشقة متسخة جدًّا، ورائحة النوم والخمم في كل مكان، كأنها لم تكن هي الشقة التي جئتها من قبل. أمسكتُ بيد حماتي وأجلستها، نظَّفتُ سريرها ولملمت قمامة كانتْ تملأ كل ركن في الشقة، غسلت الحلل والأطباق والأكواب الفارغة، فتحتُ النوافذ ورفعتُ الستائر لتدخل أشعة الشمس الصباحية، أعدتُ بعضا من الحياة إلى الشقة، جهزتُ فطورا بسيطا وجلستُ بجوارها، كانتْ أم خالد تضع اللقمة في فمها وتمضغها ببطء، نظرتُ إلى ملامحها، شحوب وتجاعيد يطلان من وجهها:

«أين خالد يا فاطمة؟».

وضعتُ الجبن في الخبز وقدمت الساندويتش إليها:

«خالد جاء منذ قليل من النوباتجية. سينام ساعة ثم يأتي».

هزت رأسها ببطء.

أكلنا وشربنا الشاي وتكلمنا في موضوعات لا رابط بينها، كنتُ أغيب عن كلامها ويسقط رأسي على صدري دون أن أدري، وكانتْ هي أيضا غير منتبهة بشكل جيد لما تقول، أضعنا الكثير من الوقت حتى يأتي خالد. تبكي حماتي ولا أدري ماذا أقول لها، تضغط جنبها بأصابعها:

«عاد الوجع».

«مِمَ تشتكين يا أمي؟».

تجلس وهي لا تزال ضاغطة على جنبها:

«الوحدة بنت الكلب».

«الوحدة؟!».

«وهل يوجد ألعن منها؟».

منذ أتيتُ إلى هُنا وأنا لا أجد ردودا مناسبة على كلام مَنْ حولي. وكأنني كنتُ أعيش في كوكب آخر. التفتت إليّ وقد ازدادت عينها احمرارًا ولمعانًا:

«أشعر يا فاطمة بأن نهايتي أوشكتْ؛ لذا أريد أن أصارحكِ بشيء..»

وهُنا انتبهتُ إليها بكل تركيزي وأنا لا أفهم شيئًا، ترددتْ كلمة «شيء» في نفسي مئات المرات في هذه الثواني القليلة، هل قالتْ «شيء» أم قالتْ «سِر»؟!

28

في بعض الليالي التي يتأخر فيها خالد كنتُ أخلع ملابسي بالكامل وأستلقي على السرير، أرى نفسي على حقيقتها في مرآة التسريحة المقابلة، أشعر بأنني أنثى طازجة، يمكن لبطنها الصغير استيعاب طفل جميل، ويمكن أن تصبح ملكة جمال أيضا، كانت الهواجس تحيط بي في مرحلة ما قبل النوم، تختلط في رأسي الخيالات والأحلام ببقايا أمنيات بعيدة، أتقلّب في فراشي وألصق بطني بوردة الملاءة الكبيرة الحمراء، أقب وأغطس وأحلم، وأرى قريتنا، كل يوم كنت أراها ولو بقليل من المشاهد المغرية، أتذكر توسلي لأمي كي تجعلني أنقش معها كعك العيد، أو أراني وأنا أركب القصبة خلف منصور، أو ألعب الحجلة في الأيام المطيرة. أتأمل جسدي في مرآة التسريحة ولا أصدق بأنني أصبحت امرأة مهمتها الأساسية إرضاء شخص واحد في هذه المدينة الشاسعة.

أسمع صوت الباب يُصفق، وقبل أن ألملم ملابسي أرى خالد أمامي، يجلس على حافة السرير ويجذبني من شعري برفق، لا أدري ما المغري في مثل هذه الحركة المباغتة؟ ربما تخيل بأنني خلعتُ

ملابسي من أجله لا من أجل نفسي. طاوعته فيما أراد، تكفل الوقت والظلام بإنهاء كل شيء. بعد لُهاث وهمهمات وكلمات متحشرجة، نام بنصف ملابسه وفردة حذاء واحدة.

أُفضِّل دائما أن يعيش خيالي بجوار الحقائق لا أن يلغيها لينفرد وحده بالحياة، فذلك خطر، تلك الشعرة تجعلني أتجاوب مع مَنْ حولي بسلاسة، في الآونة الأخيرة أصبحتُ أتمنى ألا أتعامل بهذه الشاعرية؛ لأنها تبدو ضعيفة وتافهة أمام صدمات الواقع.

الحيلة وحدها كفيلة بأن تحل لي المشكلات، طريقي المُمهَّد نحو التخيل، لم أعد أستدعي خالد عندما أريد أن أفكر فيه، لكني أستدعي ذلك الخالد الآخر، لا أقصد الرجل الذي يجلس في مكتبه بمديرية الأمن ويحمل فوق كتفيه نِسْرَيْن وفوق رأسه كاب، ويقول له كل من يمر به: «يا باشا»، لكنني أقصد خالد الذي عشش في خيالي، خالد القديم، ذلك الشخص الذي سكن رأسي قبل الزفاف بساعتين، خطيبي الوسيم الذي ركبتُ معه السيارة البيجو وحلمتُ معه ببيت جميل في حي مليء بالزهور، كنتُ أفكر كالبنات البريئات، وكان هو شخصًا شفافًا مُحتملًا. ما تعلَّمتُه من أبي أن الخيال عالَم آخر، له أشباه في عالمنا.

أصبح لديّ خالدان، واحد منهما زوجي، والآخر تخيلتُه حبيبي، كانا متشابهين، أجريتُ بعض التعديلات على ملامح خالد الحقيقي لتناسب خالد الخيالي، كنتُ أحقق متعة كبيرة عندما أجري عملية

جراحية سريعة لا تحتاج إلى بنج، أنام وهو ملء جفوني، أعلو فوق سريري قليلا عن طريق سرير آخر، تحته عمارتي قريبة وفوقه سمائي بعيدة. لم يخذلني الخيال أبدًا، دائما كان يحل لي المشكلات العصيَّة على الحل.

بعد ما تعرضتُ له من إحباط في حي الزهور؛ بدأتْ ملامح الحبيب الخيالي تتجسَّد أمامي، بعيدة قليلا عن ملامح خالد زوجي، لم يكن حبيبي ضابطًا، وبسبب التعديلات المستمرة لم يعد اسمه خالد، ولم أعد أشعر معه بغربة، حتى أنني أصبحتُ أستدعيه فيلبي نِدائي بغير شروط، كان قادرًا على إبهاجي، حتى أنه في إحدى المرَّات قال لي شِعرًا. لا أعرف لماذا كنتُ أهرب منه في بعض الليالي، أدخل في النوم بسرعة حتى لا يتحتم عليَّ الانتباه لندائه، أحيانًا لا يظهر منه إلا صوته فقط، المرَّة الوحيدة التي رأيته فيها مدَّ يده إليَّ بوردة، خِفتُ، لم أمد يدي لآخذها، فقد كانت الوردة أيضا مُتخيَّلة.

عندما يقترب مِنِّي خالد الحقيقي كنتُ ألفظ من رأسي ذلك الحبيب المُتَخيَّل الذي يُشبِهه، كان الخط الفاصل بينهما يهتز بشكل دائم.

ذات يوم، وبعد أن زرتُ أم خالد واطمأننتُ على استقرار حالتها الصحية، وبينما أنا عائدة في وقت متأخر، وقبل أن أضع مفتاح شقتي في الكالون سمعتُ صوتًا من خلفي، صوتًا ضعيفًا بالكاد أسمعه، التفتُّ إلى باب شقة السيدة العجوز، كان مُغلقًا، وانتبهتُ أن صاحب

الصوت هو الشاب العشريني الذي رأيته من قبل مرتين، صاحب الجلباب الأبيض والطاقيّة الناصعة:

«السلام عليكم. هل لديك خبز ناشف؟».

أنظرُ إليه، أتفقّد ملامحه، كان مبتسمًا طوال الوقت، لكن سؤاله فاجأني:

«ألا يوجد خبز متبقٍّ من الأكل؟».

الشاب لا تبدو عليه أي علامة للتسول، وقبل أن أرد على سؤاله اتسعت ابتسامته وقال:

«لا تفهميني غلط. فهذا الخُبز ليس لي. هو للطير الأخرس».

«طير أخرس؟».

اقترب قليلا وقال:

«أنا جار حضرتك. وساكن في حجرة فوق السطح. أجمع الخبز الفائض من الجيران، أفتته وأضعه فوق السور. يمر الطير ويأكل منه. ثواب كبير بمجهود بسيط. ها. هل يوجد عندكم خبز فائض عن الطعام؟».

وأتأمل ملامحه أكثر، لأول مرّة أدقق في تفاصيل وجهه، كان يُشبه بشكل كبير ذلك الشخص الذي أحلم به بديلًا عن خالد، لم أتردد في أن أسأله قبل أن ينتهي حوارنا:

«ما اسمك؟».

«أنا؟ خالد».

خرجتْ مني فاطمة أخرى، ظلّتْ ترقص ويلفّ فستانها الروز حتى صنع دائرة بحجم كرة أرضيّة، هل نبت هذا الـ«خالد» الجديد من التصورات الليلية، ثم أصبح واقعًا بالمقاييس الخيالية نفسها؟ شيء واحد فقط لم يكن مُطابقًا لخيالي السابق، لحيته الخفيفة النابتة، وربما شيء آخر أيضًا، طاقيته البيضاء الناصعة. بعد أن انتهى دوراني الخيالي حول نفسي قلت وأنا أبتسم له:

«انتظر».

ثم دخلتُ وأحضرتُ كل الخبز الموجود في الثلاجة، عبأته في شنطة بلاستيك بيضاء:

«ولكن هذا كثير جدا».

«دع الطير الأخرس يشبع ويأخذ حقّه. فما أكثره».

ابتسم وهو يصعد إلى أعلى، من المرّات القليلة التي ابتسمتُ فيها بهذه الثقة، هل يوجد أشخاص في أيامنا هذه يقومون بأفعال إنسانية دون مقابل؟ كان شيئًا مُطمئنًا أن يعيش مِن حولنا بشر لهم هموم أخرى غير جمع الفلوس والتنافس في بيع المنتجات، يُطعِم الطير فتستريح

نفسه، لأول مرة أحببتُ اسم خالد. سمعتُ صوت باب السيدة العجوز وهو يُفتح، التفتُّ إليها، قالتْ:

«بصيت من الشُّـرَّاعة يا فاطمة لمحتكِ تُحدثين نفسك. ماذا حدث لكِ؟».

مسكينة، تشوّشتْ حدود الرؤية عندها فلم تر خالد الجديد. لكن، كيف رأتني وحدي وسمعتُ صوتي فقط بوضوح؟

29

في الصباح، وبعد أن ذهب خالد إلى الشغل، صعدتُ باتجاه الدور الأخير، لم أركب الأسانسير، طلعتُ على السلالم، كنتُ أريد أن أتأكد من سلامة عقلي، وأن هذا الشاب الذي رأيته بالأمس موجود بالفعل ويسكن غرفة صغيرة فوق السطح.

سمعتُ صوت خطوات تقترب مِنّي، كعب دقيق ينزل بانتظام، أبطأتْ الخُطى قليلًا. ظهرت الملامح في الضوء الضعيف، كانتْ شروق بنت كريمة شوقي، عند نقطة التقائنا نظرتْ إليّ نظرة بطيئة:

«الجو ليس مناسبًا اليوم».

كانتْ تضع ماكياج كاملًا وترتدي ملابس سهرة.

«مناسب لماذا؟».

«للانتحار».

قالتها ولم تنتظر مِنّي ردًا، وكأن ما قالته شيء عادي، ابتعد وقْع خطواتها، ثم تلاشى عندما اقتربتُ من السطح. تعوّد عقلي منذ جئتُ إلى هُنا أن يُفكّر في أشياء كثيرة متناقضة في وقت واحد؛ لذا تركتها تمضي دون أن أنشغل بالرد عليها.

كانت المرة الأولى التي أصعد فيها أحد عشر دورًا منذ أكثر من سنتين، قابلني دُخان كثيف يملأ فراغ السطح. وكان الشاب ذو الطاقية البيضاء الناصعة يعطي السلم ظهره، يجلس على حجر ويضع أمامه إناء به ماء يغلي، وبجواره صفيحة مقلوبة يضع عليها ملعقة. ما إن رآني حتى التفتَ إليّ وابتسم ابتسامته المعهودة، قام وكفه مبلولة، رفع يديه في حركة تُعبِّر عن تحية وترحيب:

«مفاجأة جميلة يا مدام فاطمة».

وأخذتُ أتذكَّر، هل قلت له اسمي من قبل؟ لم أصل لإجابة مفيدة، اختفى من أمامي، لابد ذهب ليغسل يديه، كان غيابه فرصة كي أتأمّل ما في الإناء، لما انحسر البخار قليلًا ظهرتْ القطع البيضاء، كانتْ أرجل دجاج، ألا يجد شيئًا غير ذلك ليأكله؟ جلستُ على الحجر الذي ترك خالد منذ ثوان، كانت الجلسة مُريحة بعض الشيء. بدأت النار المشتعلة تحت الإناء تخبو قليلا، والدخان أيضا، الصفيحة المقلوبة لا توجد فوقها الملعقة، ربما أخذها في يده. تأملتُ السطح، كان خاليا إلا من غُرفة بلا باب وحمّام صغير، خارجه حوض أبيض، لا أتذكَّر إن كان قد دخل إلى غرفته أم وقف أمام الحوض قليلًا. لمحتُ بعض أشجار قصيرة تطوّق البناء القصير المدهون، وفوق السور لفَّات قُماشيّة مدقوقة بمسامير ومفتوح لها فوّهة، وبداخل كل فوهة شيء أبيض كالطحين، عندما قُمتُ رأيتُ بالفعل بعض العصافير حطتْ، وحمامات لها ريش ملون يلمع تحت أشعة الشمس، تجمّعت

العصافير أسرابًا، كل فريق ينقر طعامه من لفّة قُماش محددة. انتظرتُ خالد طويلًا ولم يأتِ، هل يمكن أن ينام ويترك ضيفته؟ برد طعامه وتجمّدتْ مرقة أرجل الدجاج في الحلّة.

ترجّلت وأنا خائفة باتجاه الغرفة الوحيدة فوق السطح، كان بابها مواربًا قليلًا، ببوز حذائي دفعتُ الباب، لم أجد بالداخل أي سُبل للمعيشة، كانت الغُرفة خالية إلا من بعض كراكيب قديمة لم يمسّها إنسان منذ سنوات، التفتُّ خلفي فرأيتُ الحوض عن قُرب، كان جافًّا لم يقربه ماء، بل لم تكن فوقه حنفية أصلًا، حتى الحمّام الضيق لم يكن حمّاما، بل غُرفة صغيرة جدًّا لا توجد بها إلا عبوات بويات فارغة وبعض شنط بلاستيك تطيرها الرياح من فوق السطح.

نزلتُ السلالم بعد أن مللتُ الانتظار، أثناء نزولي كانت السيدة العجوز، سناء، تقف أمام شقتها، لوهلة، شعرتُ بأن السكّان يراقبونني. ما إن رأتني جارتي حتى ابتسمتْ وأشارت لي بإصبعها معقوفا كخطّاف:

«فاطمة. هل كنتِ تلبين النداء؟».

«نداء؟».

قلتها وأنا متسمّرة في مكاني. وضعتْ باطن كفها المرتعش فوق خدي، ثم جسّت بأصابعها عنقي:

«فاطمة. أنا خائفة عليكِ».

«خائفة؟».

أمسكتْ معصمي برفق، سحبتني للداخل كالمسحورة. عندما تخطيتُ باب شقتها أفقتُ فجأة، كأنني كنتُ تحت تأثير مُخدر:

«اقعدي».

قالتها العجوز ثم جلستْ على الكرسي المُقابل، أخذتْ تنظر في عيني بشكل مُريب، تأملت انفعالاتي ثم قالت:

«نشرب معا الشاي. ما رأيك؟».

لم أرد، فاعتبرتْ أن السكوت علامة الرضا.

أثناء شُربي الشاي معها لم أكن أفكر في كلماتها، بل كنتُ أفكر في خالد الجديد، صاحب الجلباب الأبيض والطاقية البيضاء الناصعة، كلما رأيته كان يختفي بسرعة، دائما لا يريد أن يُثقِل عليّ، عُدتُ سريعا إلى جارتي، مُضيفتي العجوز، رشفت الرشفة الأخيرة من كوبها ثم انتبهتْ إليّ بشكل فيه تركيز عن ذي قبل:

«بُصي يا فاطمة، أنا أحببتك جدا؛ لذلك سوف أحدثكِ عن بعض الأشياء التي أراها هُنا منذ زمن».

لم أرد، فأكملتْ:

«هو ليس له وجود».

هو! مَنْ؟».

«من تبحثين عنه يا ابنتي. كل مرَّة يصبح له اسم مختلف، لكنه في جميع الأحوال ليس له وجود. صدقيني. هو وهْم».

كل ما تقوله العجوز كان ينطبق على خالد الجديد، هل يمكن أن يصبح كما تقول، وهمًا؟! هل يمكن ألا يكون له وجود بالفعل؟ تماهتْ حدود الخيال مع الواقع أثناء إنصاتي إلى كلماتها، لم أستطعم الشاي، ولم أرَ صورها المُعلَّقة في هذه الزيارة، كل ما لفت نظري في شقتها من قبل لم أدقق فيه الآن، كنتُ أُركِّزُ أكثر في كلماتها:

«في كل مرَّة كان يظهر فيها لإحدى الساكنات يقوم بخداعها، حتى أنهم سحبوا الجارة التي تسكن في الدور الأخير من فوق السور، أنقذوها في اللحظات الأخيرة قبل أن تُلقي بنفسها من الدور الحادي عشر».

في كل مرَّة كنتُ أركز في كلمات جارتي العجوز تنتابني قشعريرة، ليست تلك القشعريرة التي ينتجها الخوف من شيء مجهول، لكنها كانتْ بسبب الربط في رأسي بين ما رأيته بالفعل وما أسمعه منها الآن، هل معنى ذلك أنه لم يعد في حياتي إلا خالد واحد؟ كم يبدو قاسيًا أن ينسحب الخيال فجأة، فيُفسح مكانه لكل ما هو حقيقي فقط. السيدة العجوز تتكلَّم ولا أسمعها جيدًا، ثم لم أعد أسمعها نهائيًا، سرحتُ في عالمي الداخلي الذي يزيح من طريقه كل ما هو خارجي، أصبحتُ كجنين يحتمي بقراره المكين، كي لا تلمسه أية ملوثات خارجيَّة.

لا أدري متى وقفتْ جارتي، ومتى سحبتْ أوراقًا من درج قريب منها، ومتى مدَّتْ يدها إليَّ:

«هذه قِصَتي الجديدة. آخر ما كتبته يا فاطمة».

تناولتُ منها الورق وقمتُ، وإلى باب الشقَّة اتجهتُ، ثم وجدتُ نفسي فوق سريري، هل ترجلتُ هذه الأمتار أم جئتُ إلى هُنا وأنا طائرة؟ لم أنتبه إلى خالد النائم بجواري، عندما وضع يده على كتفي، شممتُ رائحة السجائر وأحسستُ بلزوجة العرق، وعندما حاول معي بنشاط أصبحتُ كمن عاد للكوكب الأرضي من رحلة فضاء بعيدة.

30

لـم أتوقّـف طويـلًا أمـام ظـن السـيدة العجـوز، فقـد رسـمتُ لها الخيـالات بأنني أُحـدِّث نفسـي، وأن خالـد الجديـد مجـرَّد طيـف، التمستُ لها الأعذار بسـبب ضعف نظرها وتشوش ذاكرتها واختلاط الأحداث في رأسها.

بـدأتُ أنظر إلى خالد زوجي نظـرة مختلفة عن ذي قبل، ليس فقط بسـبب مـا قالته أمّـه، ولكن السـبب الأكبر كان وجود ذلك الشـخص البديـل فـي حياتي. فلم يعـد خالد الجديد خياليًّا، بـل أصبح له وجود وملامح يمكن أن يُعوّل عليها.

لا أعـرف لماذا كنت أنسـى ما يحدث لي بسـرعة منـذ مجيئي إلى هنـا، تتبخّـر الأحداث من رأسـي وكأنها لم تحدث، حتى أشـياء كنت أظنها مهمة، وعدتني حماتي بإيداع سِـرها معي، نسـيتُ بسرعة غريبة أن أسـتمع إليـه، كأن شـيئًا لـم يعـد مهمًّـا، وقصـص السـيدة العجوز أيضًـا، كنـتُ أقرؤها ولا تسـتقر أحداثها في ذاكرتي، مـن بين كل هذه التشابكات الغريبة لـم أهتم إلا بغياب خالد الجديد، الشاب ذي اللحية الخفيفة والطاقية البيضاء الناصعة.

كلما أردتُ العودة إلى جذوري وقفتُ أمام الشجر والورد، أشم رائحتهما الطبيعية وأذهب في دنيا غير الدنيا، أسرح في ملكوت الله البعيد، لا يشغلني بواقعي إلا هُلام شخصيات لا تستقر ملامحها طويلًا في رأسي.

تذكرت صاحب المشتل، الرجل الطيب الذي يبيع لي منتجات الأرض، الأشجار والورود وحَب التقاوي، لم أشعر بالطريق إليه هذه المرَّة، وصلت بسرعة، رأيتُ المشتل الصغير أصغر مما كان، ولما قابلت الرجل سألته:

«لماذا ضاق المكان هكذا؟».

«أمر الله يا ابنتي. ربما قريبا لن تجدي شبرًا من المشتل. مسألة وقت فقط».

رأيتُ بعض عساكر يلبسون الأبيض ويتحلَّقون حول الأصص والأشجار، تركهم الرجل وجلس على حجر بعيد، ذهبتُ إليه وسألته:

«لماذا لا تقاومهم؟».

ضحكة محدودة من جانب فمه خرجت بالكاد:

«أقاومهم؟ وهل يستطيع أحد مقاومة منفذي الأحكام؟».

ثم قام ينفض ملابسه من أثر التراب، اتجه نظره إلى عمارات حي الزهور:

«هـذه العمارات كانت أرضنا. جاءت الجرافات في الماضي أيضًا لتنزع منا ملكنا، واجهناها أنا وأخي عبد الله. دهسه بلدوزر يقوده عسكري».

سألتُه:

«مات؟».

«وبقيتُ أنا شاهدا على ما حدث».

«كان أخاك الأصغر؟».

«منذ عشرين سنة كان عبد الله في العشرين. يلبس جلبابه الأبيض وطاقيته البيضاء يؤذن ويؤم الناس في الصلاة. لو عاش اليوم لأصبح أبًا لبنات وبنين».

«ولماذا لم تشتكِ؟».

«أأشتكي الحكومة إلى نفسها؟».

«...».

«لا نريد إلا زراعة الأرض فقط. لكنهم لم يتركونا نزرعها».

أُمَلِّي عيني من جديد بالزرع المنتشر حولي:

«كنتم أغنياء؟».

وأبتسمُ لأظهر له بأنني أمزح معه:

«كنا نعيش عيشة بسيطة جدا. أنا آكل من زرع يدي، وعبدالله أيضًا كان بسيطًا جدًّا، تخيلي أنه كان يترك الدجاجة كلها ولا يأكل منها إلا أرجلها فقط».

اختفت الابتسامة من على ملامحي، بل نسيتُ ما جئتُ من أجله، نسيت الرجل والعساكر والزرع، لم أتذكر إلا شيئًا واحدًا، خالد الذي رأيته مرتين ومن بعدها اختفى. هزَّة داخلية عنيفة اجتاحتني، كأن بابًا تحطَّم في مكان ما، تركتُ الرجل صاحب المشتل والحكاية. وأثناء عودتي إلى الشقَّة رأيتُ المجذوب يقول بصوت عالٍ دون خوف أو رهبة: «العروسة»، وشعرت بأنني عروسة مثل عرائس الحلوى التي يشتريها الناس ولا يفهمونها، شعرها يتأرجح تحت توللي أبيض زائف، تبتسم، تنام ولا تستيقظ أبدًا إلا حسب أهوائهم.

عدتُ إلى الشقَّة وأنا أبحث عن شيء واحد، قلم رصاص، عندما وجدته نزعتُ ورقة من كراسة، وجلستُ بهدوء أستدعي ملامحه، أخذتْ تتشكل في رأسي ببطء، كرمال انحسرتْ عنها موجة، رسمتُ أولًا حدود طاقيته البيضاء الناصعة، ثم سمعتُ جرس الباب، دخل العسكري سعيد البسطامي يحمل أشياء في مثل وزنه:

«الباشا طالع».

قالها ثم وقف أمام الباب في انتظار «الباشا».

بعد دقائق قليلة دخل خالد، أغلق الباب في وجه العسكري ثم وجَّه إليه التعليمات:

«انتظر في مكانك».

أخذ حمامًا، خرج وهو ينظر إليّ بطريقة أعرف معناها، كنتُ أتهيأ لاستكمال ملامح خالد الآخر، لكن خالد الأول لا يزال مُصرًّا على ما قرأته في نظراته، فك حزام الروب فظهر كأنه عارٍ لا يرتدي شيئًا:

«كنتُ أعتقد أن النظر في عينيكِ الجميلتين أثناء اجتماعنا هو أقصى المُتع».

«وماذا اكتشفتَ يا خالد؟».

أخرج عُصابة سوداء من جيب الروب:

«يمكن أن تكون المتعة أكبر لو أخفيتُ جمال عينيكِ وتخيَّلتُه».

ثم فَرَدَ العصابة بين يديه واقترب مِنّي:

«ممكن نجرِّبها».

ودون أن أتحدث إليه أو أرد على كلامه ربط بها عيني، ثُم ساقني كالعمياء إلى غُرفة النوم، ودون كلام طرحني، ودون مداعبة دخلني، مرَّت هذه الدقائق عليّ كالساعات، كل ما أشعر به هو امتلائي واهتزازي، وكائن متوتر يفرك فوقي ويُجري أصابعه في شعري، الظاهر على خالد خارجيًّا هو الوقار والعز، أما عندما اقتربتُ منه فقد اكتشفتُ فيه بعض الخلاعة العقلية. كنتُ أدّخِرُ لحظات بعيدة من طفولتي وأقوم بطرحها في أيام جافة محدودة الخيال، شيء من العدل الزمني أنثره حسب ما أريد. أتذكَّر شيئًا من طفولتي، أهمسُ إلى نفسي

بما يُفرحني، اللعب مع البنات بالعرائس المحشوة بالقصاقيص، تلقي بها إلى أعلى أيادينا جميعا، ثم تتلقّفها يدي وحدي، وأسمعُ الصوت يدوي في أذني: «بطّة عروسة.. بطّة عروسة» أشعر بتكسير في عظامي، ويد تمسكُ بشعري وتجذبه للخلف، أسمع صوت بعض الشعيرات تترك جذورها وتلف حول أصابعه، وأسألُ نفسي: هل هذه هي الحياة التي تركتُ من أجلها قريتي؟

عندما هدأت التوترات وانقطع الهز كنتُ أفكِّر في المكان الذي شاهد فيه خالد فعلاً مثل هذا، لابد شريط فيديو جديد رآه في مكتبه. كانت المعركة بيننا قد وصلتْ للذروة، اشتدَّتْ لتهدأ، ثم هدأتْ بالفعل وعاد من جديد إلى طبيعته التي يراه الناس عليها. مزيج غريب بين الضعف والقوة تفصله دقائق محدودة وتَغَيُّر في الرغبات. كانت المرة الأولى التي عرفتُ فيها أن للصمت جوهرًا أصيلًا يتخفَّى أحيانًا في محاولات الكلام. كنتُ على أتم استعداد لأن أتقبل محاولاته بصبر، وربما برغبة حقيقية في المتعة، فقط لو حدث بعدها حَمل، لو تَرَكَ من بعده ذرية تلعب في بطني، أثرًا يبقى من هذه الحرب المتكررة؛ التي تنتهي دائما فور أن تبدأ.

عاد إلى الحمَّام مرة أخرى، نسي أن يفك العصابة المربوطة على عيني، فككتها وجلستُ أرسم الملامح نصف المكتملة، الحقيقة والخيال، معركة لا يُحرز فيها أيٌّ منهما نصرًا نهائيًّا.

عاد خالد إلى عمله مرة أخرى، لم يقل إلا كلمة واحدة:

«عندنا طوارئ».

عندما فتح الباب كان العسكري يقف بالخارج على وضعه كما تركه منذ ساعة، حدث بيننا ما حدث والعسكري يحرسنا بالخارج، بعدما سمعتُ صوت غلق الباب عدتُ إلى ما كان يشغلني، استدعت الطاقية الناصعة بقية ملامح خالد الخيالي، بِهمّة الباحث الذي أوشك على الانتهاء من بحثه أخذتُ أضيف الرتوش، بعد ساعة واحدة اكتملت الصورة، عدتُ بها إلى الرجل صاحب المشتل مرة أخرى، رفعت الصورة أمام عينيه:

«هل كان أخوك عبد الله يشبه هذا؟».

تأمل الرجل الرسمة طويلًا لم أستطع أن أحدثه عن الصورة، فأنا لا أجيد الكلام، ابتسم ابتسامة مندهشة:

«عبد الله لا يشبه هذا، فهذا هو عبد الله أخي بذات نفسه. من أين أتيتِ بهذه الصورة يا فاطمة؟!».

31

المحامي الذي جاء بصحبة أبي يصمت، ويبدأ في الاستماع إلى صاحب الدقماق، وسمعت صوت الشخصين الجالسين إلى جواره، لم يكن كلامه موجهًا لي، بل كان ينظر إلى القاعة والجمهور المنصت أمامه.

***

تحيرتُ بين مشاعري وما تراه عيني، أخذتْ صورة خالد زوجي تنحسر من أمامِ عيني، تذوي وتتلاشى، كأنه شخص غريب تعرفتُ عليه منذ ليلتين فقط، واتخذ خالد الخيالي مساحة أكبر في رأسي، وشعرتُ بأنني أعيش حياتي بالكامل في صندوق مليء باستعارات وهمية، أو أنني مجرد تمثال من شمع يتعرض ببطء لسطح ساخن.

اشتريتُ كراسة رسم كبيرة، كان شيئًا جيدًا أن أفعل ذلك، فللرسم مزايا عدَّة، سوف أعود لهوايتي القديمة مرة أخرى، أرسم القصر الذي كان في خيالي قبل مجيئي إلى حي الزهور، كان قصرًا من خيال مجرد، سقفه تموج فيه سحابات فضية، وبهوه تتوسطه مدفأة حقيقية.

توالت الرسومات في كراستي، ثم أحسستُ بأنني أحتاج لشيء آخر غير الرسم، شيء حاسم يُعبّر عن مشاعري، بدأتُ بتدوين بعض

الخواطر التي استلهمتها من المكان المحيط بي، وتلوّثتْ صفحات الكراسة بأفكاري الشاردة إلى جوار الرسومات.

لا يمكن أن يكون خالد الجديد مجرد وهم، فقد رأيته أثناء صعود بنت كريمة شوقي، ورأيته وهو يطلب الخبز الفائض عن الطعام، ثم رأيته فوق السطح جالسا والدخان يظلل رأسه، طفرت في رأسي بعض الأسئلة المباغتة، لماذا كانت شروق تريد الانتحار؟ ولماذا قال لي خالد إن اسمه هو اسم زوجي نفسه؟ هل فَعَلَ ذلك تقربًا مِنّي أم أنه بالفعل مجرّد وهم؟ كان تذكّره تصاحبه إيقاعات موسيقية تتسلل بنعومة إلى عقلي، وكنتُ أميل إلى بكاء رقيق بغير حزن.. حالة شجن عابرة.

الواقع الذي يطالبني الجميع بالامتثال لأوامره يمر أمامي في لقطات سريعة، مشاهد أحاديَّة اللون بلا أبعاد. أجهزة الاستقبال عندي لم تكن ترى المشهد وقت حدوثه، بل تراه بعد أن تفتته الذاكرة وتقوم بتركيبه من جديد، تصنع له الأبعاد وتضع الرتوش والألوان، وأرى ما شكَّله خيالي بأنه هو نفسه الواقع الذي رأيته منذ قليل. وكانتْ مهمة مَنْ حولي الدائمة هي محاولات إبطال الحاسة التخيلية لديّ.

ظلت حياتنا على هذه الوتيرة حتى ظهر يوم بعيد بحساب الأيام، ولكنه قريب جدا في ذاكرتي. كان خالد جالسًا في غرفة مكتبه ومندمجًا في تدوين بعض الكلمات في دفتر صغير، عندما دخلت إليه تغير لونه وانتفض فجأة، لم أكن مهتمة بالدفتر الصغير الذي يكتب فيه، لكني

بعد الرعدة التي بدرتْ منه ساقني الفضول لأن أعرف. تحدثتُ معه حديثًا عاديًّا عن مسلسلات التليفزيون واحتياجاتنا من الملابس في الأيام القادمة، في الحقيقة، لم أكن مهتمة بما أقول، انصبَّ اهتمامي حول معرفة ما في هذا الدفتر الذي أراه للمرة الأولى، تابعته بشغف طفولي عندما قام من على الكرسي ووضع دفتره فوق رف بعيد في غرفة مكتبه، توجّهنا للصالة ونحن نتكلم كلامًا عاديًا عن أشياء معتادة وتافهة، ساعة الحائط تحتاج لحجر قلم وسخان الغاز لا يشتعل برغم شدة المياه، الهواء اليوم شديد ومحمل بالغبار لكن الجو لطيف.

نام خالد ولم أنم، تسللتُ إلى غرفة مكتبه وتوجهت إلى غرضي مباشرة، الدفتر الصغير، أضأتُ «الأباجورة» الصغيرة حتى لا يكتشف خالد وجودي، قلَّبتُ الدفتر طويلا، لم أجد فيه أشياء مهمة، كانت صفحات مليئة بالأرقام والحسابات التي لا يُفهم منها غرض واضح، لكن لماذا بدا على خالد كل هذا الانزعاج ما دام يفعل أشياء عادية؟

وضعتُ الدفتر في مكانه كما كان، وأعدتُ الدوبارة إلى الصفحة التي كانتْ عندها بالضبط، وبالوضعيّة نفسها. أطفأت «الأباجورة» الصغيرة وعدت إلى غرفة النوم، كانت الأجواء كما هي ساكنة، الإضاءة خافتة، أسمع ضغط خطواتي على البلاط، أفتح الباب وتئز مفصلته بوضوح، لكن ما إن تخطيت باب الغرفة حتى فاجأني صوت:

«هل وجدتِ ما كنتِ تبحثين عنه؟».

لم أرد، قفز من على السرير، وفي أقل من دقيقة ذهب إلى غرفة مكتبه، ثم عاد وهو يحمل في يده الدفتر:

«هذا هو هدفكِ. أليس كذلك؟».

«لماذا تخبئه عني؟».

اقترب ووضع يده فوق كتفي، ملّس على عنقي برفق:

«لأنني أخاف عليكِ يا فاطمة».

ثم ابتعد بشكل مُبالغ في سرعته:

«هذا الدفتر الصغير يحتوي على الكثير من أسرار عملي الصعب. أنا ومن هُم مثلي. المعنيون بالحفاظ على أرواح الناس».

«لم تقل لي حتى الآن ما يحتويه دفترك هذا».

تغيرت التعبيرات على ملامحه، وبدا صوته شبحيًّا متضخمًا، كأنه يأتي من خلف حواجز:

«يمكنني ألا أقول لكِ، لكني سوف أقول لأنني أحبكِ يا فاطمة».

يفتح الدفتر الصغير ويشير إلى بعض صفحاته:

«هذا الدفتر يا فاطمة خاص ببعض امتيازات مُقدمة من الوزارة. وفيه نصيبي من ضريبة الدم التي يدفعها ضابط الشرطة».

«ضريبة الدم؟».

«نحن نموت في الشوارع من أجلكم».

«أجلنا؟».

«أقصد من أجل الناس. من أجل أن يعيشوا في سلام».

يقترب مِنّي مرة أخرى، يلقي بالدفتر بعيدًا ويقف خلفي، يلتصق بي، يد تلعب في شعري، ويد تطوّق خِصري وتضمني، توجّه ناحية الأباجورة، وفي الوقت الذي انفرجت فيه شفتاه تبحث عن شيء تعضه، دفع بي إلى السرير، وبدأتْ رحى معركة عنيفة تدور في ظلام دامس.

تضاءل كل عالمي إلى رسمة الطاووس البنفسجي المحفورة في الستارة الذهبيّة، أخذ الهواء يهزها فيتلوى الطاووس، لا أدري هل كانت الستارة التي تحجب البلكون هي التي تتحرّك أم أنا؟ هذه المرة لم أكن مع خالد تمامًا، كنتُ جسدًا لا يشعر بدور مُهم في الإخصاب، فينسحب هذا النقص على أي شعور بالمتعة.

32

في الصباح، ونحن نتناول الإفطار، كان خالد مبتسمًا طوال الوقت، ابتسامة لا تصنع بهجة بقدر ما تنذر بترقّب، كان يرفع البيضة إلى فمه ويعطيني إيحاء بقضمها، ثم لا يفعل، يعيدها إلى الطبق مرّة أخرى، ينظر إليّ وهو لا يزال مبتسمًا، ثم يرفع البيضة ويلتهمها في مرة واحدة، كانتْ مثل هذه التصرفات غريبة ولا توحي بالطمأنينة، وكان صمته -مع نظراته- يعطيني إحساسًا بالضيق والتمزّق.

وفيما نحن نتناول الإفطار أكمل خالد حديث الأمس:

«أنا اليوم في إجازة يا فاطمة. سوف أريكِ شيئًا جديدًا».

غيّرتُ ملابسي، لم أختر ما ارتديته، وكأن الرغبة في الخروج هي التي خلعت عني ملابس البيت وأسدلت عليّ ملابس الخروج هذه، ورأيتُ زوجي يرتدي بذلة كاملة، صفف شعره على طريقة نجوم السينما، وكأنه سيعزمني على الغداء في أفخم مطعم، ووضع يده في يدي «أنجاچيه» وخرجنا.

عندما ركبتُ سيارته البيجو تذكرت بأني لم أركب معه السيارة إلا مرّات قليلة للغاية، وأن معظم وقتي أقضيه في الشقّة بين جدران

الغرف والمطبخ والبلكون. خرجنا من حي الزهور، تركنا المنطقة بالكامل، لم ندخل إلى طريق صلاح سالم باتجاه وسط البلد، حيث توجد أغلب الأماكن الترفيهية، لكننا اتجهنا شمالا، ورأيت لافتة زرقاء «بلبيس 15 كيلو» لم تقابلنا إلا كثبان رملية على مدد الشوف، وبعض بوابات مرور السيارات، ثم أسفلت أسود وشمس حارقة ولا شيء آخر غير ذلك:

«إلي أين نحن ذاهبان يا خالد؟».

كانت السيارة تأخذ طريقها التدريجي للسرعة:

«إلى نصيبي يا فاطمة. الحسابات التي كتبتها في الدفتر الصغير. هل نسيتِ ما كنتِ تفتشين عنه بالأمس؟».

لزمتُ الصمت طوال الطريق.

بعد حوالي نصف الساعة وصلنا إلى منطقة جبليّة، لا شيء فيها إلاَّ تلال من حجارة غير مُنسَّقة، وبعض صبَّات خرسانيّة مُلقاة في حُفر عميقة. عندما نزلنا من السيارة كانتْ حرارة الشمس لا تُحتمل، وقفنا تحت شجرة رماديّة وحيدة طالعة في الرمال، أشار خالد بطول ذراعه:

«قطعة الأرض هذه مِلك بعض ضباط الشرطة. اشتريناها بتسهيلات من التجار. وهؤلاء التجار لهم مصالح أخرى لدى الحكومة، الناس تخدم بعضها. قسّمنا الأرض إلى قِطع، وقسمنا القِطع إلى عيون، وقسّمنا العيون إلى مقابر صغيرة تُباع بالتقسيط».

«مقابر؟».

«نعم يا فاطمة. المقابر الآن ربحها أكبر من ربح المساكن».

تأملتُ المكان فرأيت بعض المباني المكتملة من بعيد، حجرات صغيرة مُزيّنة بالطوب الوردي والبوابات الخضراء:

«نتفسح في المقابر يا خالد؟».

فاجأته الجملة فلم يرد، ثم استجمع شتاته من بعيد وقال:

«في هذا المكان مستقبل أبنائنا».

صمت قليلا ثم أردف بعد أن بلع ريقه:

«إن شاء الله. عندما يصبح لدينا أبناء».

ليته ما قال هذه الجملة المتممة، فقد وخزتني بدبابيس في كل أنحاء جسدي، وطالت بعضًا من روحي أيضًا. قصدتُ ألا أغوص طويلًا في النقاش حول موضوع الإنجاب، أو بالأدق موضوع عدم الإنجاب.

«وماذا ستُضيف إليك مثل هذه المشاريع يا خالد؟».

«مكانة أكبر».

«شراء أم استيلاء؟».

«شراء طبعا يا فاطمة، لكن بتسهيلات».

«وما المُقابل لهذه التسهيلات؟».

قبل أن يُجيب اقترب منّا شيخ أربعيني، عندما اقتربتْ ملامحه عرفته، كان هو الشخص الذي قاد لخالد السيارة اللادا البيضاء. توجّه إلى خالد لكنه كان ينظر إليّ:

«خالد باشا، الورق كله تم توزيعه. ولم يبق إلا هذا».

مد يده برزمة أوراق مطبوعة وملونة، رد خالد يده بعنف:

«وزعهم يا شيخ طه».

ابتسم الرجل ابتسامة مُداهنة، ونظر إليّ نظرة لا تعرف معناها إلا امرأة، كانت عينه غائمة وكأنه يعاني من عمى ألوان. له شفَة مشقوقة عند منتصفها يداريها شاربه الخفيف، الجزء الوردي المشقوق منها كان يلمع بلعابه:

«حاضر. أمرك يا باشا».

قال كلمة باشا وهو ينظر إليّ النظرة المُريبة نفسها، يُغمض عينيه كأن سحابة كثيفة تمر فوق حاجبيه.

انصرف الرجل الغريب بخطى بطيئة، وعدتُ أسأل خالد من جديد:

«فيم سيفيدنا هذا المشروع يا خالد؟».

كانت أشعّة الشمس كحمم مصبوبة فوق رؤوسنا، قال خالد متصنّعًا الصبر على أسئلتي:

«من رِبح هذا المشروع يمكننا أن نشتري فيلا مثلا. تكون بديلة عن شقة حي الزهور».

يعود الرجل مشقوق الشفة مرة أخرى، تصبح نظراته إليّ حذرة هذه المرّة، لكنها تحمل المعاني السابقة نفسها، يوجِّه حديثه إلى خالد:

«وزعت الورق على الشباب. وهم الآن يشوفون شغلهم. سنكون عند حسن ظنّك يا باشا».

يشير خالد بيده فينصرف الشيخ بدوامات الريبة التي تحيط به، وأسأل:

«مَنْ يكون هذا الرجل؟».

ويتردد خالد في الإجابة كالعادة:

«هذا هو أداتنا الإعلامية في المكان. هو من يُقنع العملاء بالشراء. فهو كما ترين شيخ مفوه لا تنقصه الفصاحة في الكلام. ونحن لا نحتاج لشيء أكثر من ذلك».

الحر لا يسمح بالتركيز في شيء. كانت الكلمات جميعها تتداخل ولا تنتج معنى واضحًا. توقفنا أنا وخالد عن النقاش حتى عاد الرجل مشقوق الشفَة مرة أخرى، شعرتُ بأن مجيئه هذه المرّة كان مُصطنَعًا ولا داعي مهمًّا له. اقترب من خالد وقال كلامًا بصوت خفيض، ثم انصرفا معا دون أن يقول أحدهما أي شيء.

مرتْ فترة وأنا أقف وحدي وسط الصبات الخرسانية، أساسات المقابر المستقبليّة، كان إحساسا مقبضا أن أقف في مكان وأنا أعرف بأنه سيكون عن قريب مقبرة. سمعتُ صوتا جماعيا يقترب، نظرتُ خلفي فرأيت بعض الرجال يحملون نعشا وينحدرون به إلى أسفل. هل يتعجل الناس الموت إلى هذا الحد؟ مقابر لا تزال تحت الإنشاء ويدفنون فيها الموتى؟ أعطيتُ الموكب ظهري كي لا أشعر بهذا الجو الكئيب، ابتعدتُ مسافة مقبرتين، ثم ثلاث، لم أجد مَنْ أحدثه فحدثتُ نفسي، عندما أدركتُ صوتي خارج حلقي توقفتُ عن الكلام، وربما عن التفكير أيضا.

أثناء تفقُّدي المكان رأيت شابًا يقف أمامي، لا أعرف من أين جاء، هل تبقّى من موكب الفقيد الذي مروا به منذ قليل؟ كان يرفع يديه بالدعاء وأمامه لوحة رخامية مكتوب عليها اسم، اقتربتُ من اللوحة وقرأت الاسم «المغفور له محمود عبد الله نسيم» ثم أسفل اسمه آية قرآنية بالخط الكوفي. اقتربتُ منه وسألته:

«هل هذا قبر والدك؟».

أنزل الشاب ذراعيه إلى جنبه:

«لا. فوالدي مات منذ عشر سنوات».

«ومن يكون إذن محمود عبد الله نسيم هذا؟».

التفت الشاب إليّ بالكامل:

«أنا».

انقبضتُ للوهلة الأولى، ثم ابتسمتُ:

«وهل أنت ميت؟».

«لا. ولكني اشتريتُ لنفسي هذه المقبرة بالتقسيط قبل أن تشتهر هذه المنطقة بالمقابر، وأصبح الثمن الذي دفعته فيها لا يساوي رُبع ثمنها اليوم. فعادت الشركة تهددني بفسخ العقد إن لم أُعلِ من قيمة الملاليم التي أدفعها لهم كل شهر. هكذا قالوا، فخفتُ أن يهدوا مقبرتي ولا أجد مكانًا أُدفن فيه عندما أموت. فاشتريتُ هذه الرخامة وكتبتُ عليها اسمي، حتى إن جاءوا لهدمها تخيلوا بأنها مسكونة بجثتي. ومنذ ذلك اليوم وأنا آتي لأطمئن على منامتي الأبديّة، وبالمرّة أقرأ الفاتحة».

زاد انتباهي إليه بسبب طريقته البريئة في الحديث:

«تقرأ الفاتحة لمن؟».

ابتسم:

«لي».

ابتسمتُ أنا الأخرى، انصرف الشاب بعد أن صنع في نفسي مسرّة، أثناء حواري معه خرجتُ أتنزه بعيدًا عن عمى الألوان الذي غمرني.

ابتعد موكب الدفن الذي جاء منذ قليل، وغاب الشاب بين المشيعين دون أن ألحظ اختفاءه. لكن يبدو أن أشعة الشمس القوية

أصابتني بدوار خفيف، أو أُصِبتُ بخدر مؤقت، فالشاب لا يزال يقف أمامي ويرفع يديه بالدعاء، لكنه وضع طاقية فوق رأسه، ربما بسبب شدة الشمس، اقتربتُ منه ونقرتُ كتفه بإصبعي نقرة هامسة:

«هل ستقرأ الفاتحة لنفسك مرتين؟».

التفت الشاب إليّ، لم أشعر إلا بسقوطي على الأرض الرملية شبه فاقدة للوعي، ترتعش أطرافي وتصطك أسناني برغم الحر، فمن التفت إليّ لم يكن الشاب الذي اشترى لنفسه مقبرة بالتقسيط، بل رأيتُ خالد، خالد صاحب الجلابية والطاقية البيضاء الناصعة.

33

«الهانم قلبها خفيف».

أول صوت سمعته وأنا جالسة على حجر في هذه المنطقة الجبلية، بعد لحظات عرفتُ بأنه صوت الرجل صاحب الشفة المشقوقة، لا أعرف هل حملني خالد بمساعدة هذا الرجل؛ أم أنني جلست على الكرسي دون مساعدة من أحد؟ امتدَّت أمام وجهي يد وقدَّمتْ لي كوب به سائل.

«فاطمة. فاطمة».

صوت خالد هذه المرة دوى في أذني، سحبني من عالمي الرقيق وألقى بي في واقع جبلي حار، أسندني خالد بيد، وباليد الأخرى أعطى مفاتيح السيارة للشيخ طه، قادها وقرَّبها مِن موقعي جدا.

عند عودتنا كانت الدنيا تلف بي، فلو أن الأفكار تتناقش لدارت فوق سقف السيارة حوارات مطولة بين أفكار خالد وأفكاري، ما أهتم به لم يكن يشغله، وما يرى أنه قد خُلِقَ من أجله لا يشغل أي حيز من تفكيري. ما الذي يُجبر ضابط شرطة على بناء مقابر؟ ألا يوجد استثمار في شيء آخر له علاقة بالحياة؟

الكثبان التي مررنا بها أثناء العودة كانتْ أكثر كآبة منها عندما كنا ذاهبين، الحيوانات النافقة ملقاة عند أول الأسفلت بطول الطريق، والزرع الشيطاني القصير هو الشيء الوحيد الذي له علاقة باللون الأخضر.

أشعر أحيانًا بأن كل ما يمر بي هو مرآة أرى فيها نفسي، خالد وأمه والسيدة العجوز، كريمة شوقي وابنتها والرجل الأصلع، خالد الغائب والرجل ذو الشفة المفتوحة بطعنة، بل إن حي الزهور نفسه مجرّد مرآة لنفسي، إن رأيتني فيما يمر بي متفائلة أو محبطة، حُلوة أو قبيحة، فليس ذلك من المرآة في شيء، وإنما من نفسي.

حبيبات الليمون الشفافة فوق شفتي، وحبيبات سُكر لم تستجب للذوبان لا تزال فوق لساني، لكن حلقي مُر وريقي جاف:

«عطشانة».

قلت لخالد، كان يقبض على مقود السيارة ويندمج في الطريق الذي يتلوّى كثعبان أسود طويل، لم ينتبه إلى طلبي، لكن المياه جاءتني من الكرسي الخلفي، لمحتُ غطاء زجاجة أزرق يطل من المسافة التي بيني وبين خالد، في نهاية الزجاجة يد، وفي نهاية اليد صاحبها، الشيخ طه، الرجل ذو الشفة التي تظهر منها سِنة كاملة. من الذي سمح له بأن يركب معنا السيارة؟ ومتى فتح الباب ودخل؟ وكيف لم أشعر بوجوده إلا الآن؟ مددتُ يدي وأخذتُ الزجاجة، رفعتها على فمي وأنزلتها فارغة، ألهذه الدرجة كنتُ ظمآنة؟ لماذا يسمح خالد لرجل

غيره أن يروي ظمئي وهو جالس إلى جواري؟ دار الحديث بينهما وكأنني لستُ موجودة، مدَّ الشيخ طه يده إلى خالد بدوسيه متهالك به بعض الأوراق، كان الدوسيه مليئًا بالشخبطة من الخارج، كأن طفلا كان يتعلم الرسم عليه:

«تفضَّل يا باشا».

مد خالد يده وأخذه منه وهو يقود السيارة بسرعة:

«هذه أوراق ما تم التعاقد عليه».

ثم مد يده بدوسيه آخر:

«وهذه الأوراق الخاصة بما تبقى من المقابر».

التفت إليه خالد في برهة خاطفة:

«ألف مرة أقول لك بأن اسمها وحدات وليست مقابر».

كان إطلاق اسم «وحدات» على المقابر شيئًا مُضحكًا.

يصمت الشيخ، ويُكمِل خالد:

«أعط الدوسيه للهانم».

مددتُ يدي للخلف، ومد الرجل يده بالأوراق، ما إن لمستُ الدوسيه حتى توقَّفتْ يده عن المَنْح، جذبتُ الدوسيه فتمسَّك به، وعندما نظرت إلى الخلف كان الجزء الوردي المشقوق تحت شاربه يلمع بلعاب شَبِق، وشعرت لوهلة بأن نظرته مُخيفة ولا يهمّه وجود

خالد، كانت له عينان جاحظتان، واحدة أكبر من الأخرى قليلا، العين الكبيرة تتحوّل وحدها إلى وجه كامل، تستقطب التركيز في كل ما يدور حولها، ولأول مرّة ألحظ قصر جبهته، لا أعرف هل بسبب الطاقية البيضاء التي يضغطها في رأسه، أم أن ملامحه الكبيرة استحوذتْ على كل المساحة الممكنة في وجهه. قال بعد ثوانٍ مرتْ بطيئة جدًّا:

«تفضلي يا هانم».

النظرات المغرضة تكون أمضى من السكاكين أحيانا. هذه المرّة حضر اسم الفيلم المتخيَّل بسرعة «المرأة والخنَّاس»

توقَّف خالد بالسيارة فنزل الرجل:

«أي خدمات أخرى يا باشا؟».

ويشير خالد من خلف الزجاج:

«شكرا يا شيخ طه. لا تنس أن تمر عليَّ غدا ومعك تصاريح البناء على الأرض الجديدة».

ينصرف الرجل ويبتلعه الظلام سريعا، وتعود السيارة إلى سرعتها مرة أخرى لنكمل الطريق إلى الشقة أنا وخالد، أحاول فتح نقاش معه ليبدد حالة الصمت المخيف الذي استسلمنا له:

«هل هناك أرض جديدة اشتريتها؟».

يضع دوسيهات الأوراق في تابلوه السيارة:

«نعم يا فاطمة. عندما وجدنا الإقبال كبيرا اشترينا أراضي أخرى أكبر من مساحة المشروع الأول. خمسة أفدنة».

«من الذي اشترى؟».

«أنا».

«ومَنْ يكون هذا الرجل الذي ركب معنا السيارة منذ قليل؟».

تغيّرتْ قسمات خالد ولم يرد، ثم خرجتْ منه زفرة ممدودة:

«هذه أسرار شغل يا فاطمة».

«أسرار؟».

افتعل ابتسامة متهكمة وهو ينظر إليّ:

«لا أريد لكِ وجع الدماغ».

لم أرد، لكن خالد رد:

«طيب. سوف أقول لكِ. طه هذا كان أمين شرطة تم فصله عن العمل لأسباب أخلاقية، لكني أؤكد لكِ أنه مظلوم، وأؤكد لكِ أيضًا أن السلطة في أي مكان لا تنسى أبناءها، حتى ولو كانت أخلاقهم تحتاج لترميم؛ لأنهم مخلصون لما تريده السلطة، ولا يهم بعد ذلك ماذا يفعلون».

أحيانًا تحتاج بعض الكلمات للتروي كي تُفهم جيدًا ويتم استيعابها:

«سيئ الخُلق هذا يركب سيارتنا ونتعامل معه عن قرب بهذا الشكل. ما الذي يجبرنا على ذلك؟».

ينقر «الدركسيون» بأظافره:

«المصلحة. المصلحة يا فاطمة تجبرنا».

التفتُّ إليه وأوجه حديثي بصوت عالٍ، فقد كانتْ عينه منشغلة بالطريق:

«المصلحة مع رجل ذي أخلاق سيئة؟».

«سيئة مع الآخرين. أما معنا نحن فهو يعرف حدوده جيدا».

كان خالد يلتقط من بحر الكلمات ما يتوافق وأهواءه.

مشهد الظلام المُقبِض بالخارج يتَّحدُ مع ما يُقال، يصنع الليل ظلالا لكل شيء من حولي:

«وكيف استطعت تحويل هذا الرجل من شخص سيئ الخْلق إلى إنسان آخر تقي وورع؟».

انتبه للطريق ولم يرد.

كانت الصحراء تبتعد بكثبانها السوداء وظلالها اللامحدودة، انحدرتْ بنا السيَّارة في طريق ضيق، كأنه كان ممرًّا لقوافل قديمة. عندما دخلنا إلى العَمار أخذت الكلمات معاني أخرى غير معانيها التي أكسبتها الصحراء أبعادًا جافة. تخطينا طريقا مليئا بالبازلت

الأسود، وصلنا إلى شارع به عمارات سكنيّة وأعمدة إضاءة يلفها الدخان وطمأنينة الونس والعَمار.

دخل خالد إلى بنزينة مررنا بها في الطريق، انشغل في فتح غطاء «التانك» ودفع الحساب للعامل، عدنا إلى الطريق واكتسبت السيارة سرعتها مرة أخرى، أجاب خالد على سؤالي بعد مدّة:

«طه عبد الغفار البدوي. تعرفه المديرية كلها. ورغم فصله من العمل منذ قرابة خمس سنوات؛ فإنه يتقاضى مُرتبه كاملا. بل ويزيد عليه إكراميّات سخيّة نظير بعض الخدمات الأخرى لضباط كِبار».

بدأت الدنيا تلف بي وأشعر بالغثيان، لا أعرف هل من رائحة البنزين أم من رائحة الكلمات؟

«وما الذي يجبرك على التعامل مع شخصيّة كهذه يا خالد؟».

بدأ مخزون الصبر ينفد عنده، يمسك «الفتيس» بعصبيّة ويدق «الدركسيون» بكفه:

«قلت لكِ أكثر من مرّة المصلحة يا فاطمة. المصلحة هي التي تُحدد علاقاتنا بالآخرين وليس أي شيء آخر».

بدأتُ أكره هذه الكلمة، المصلحة، وازداد كرهي للرجل الغامض ذي الشفة المشقوقة. شعرتُ بالظمأ مرّة أخرى بعد أقل من نصف ساعة، طلبتُ من خالد الماء، ولم يسمعني أيضًا، للمرة الثانية لا يريد خالد أن يروي ظمئي، أو ربما لا يريد أن يسمعني.

34

استيقظت بعد الفجر بقليل، كان خالد سابحًا في ملكوت النوم البعيد، وقفتُ قليلا في البلكون، نسمة الصباح النديّة مُنعشة. وهناك في الأفق طائرة تستعد للتحليق بين سُحب الفَجر الرماديّة، أتأمّل طويلا المَشاهد وأنا أفكر في أشياء أخرى، عقلي مزدحم بأفكار تشبه نسيجًا باليًا أوشكَ على التمزّق. إضاءات مهبط الطائرات في البعيد يخفف من وهجها نور الصبح، وحي الزهور ناعس في غلالة كأنها بقايا حلم.

في هذا الهدوء الناعس يتوهّج التفكير، يحدث الربط بين الأشياء بصفاء غريب، ربما يجعل النسيج يعود إلى قوته مرّة أخرى. عندما استدعيت أحداث الأمس الغريبة لم يكن لدي أيّة نيّة للاستمرار في التركيز، تخيّلتُ بأن ما حدث بالأمس هو الحلم، وما يحدث لي الآن؛ في هذا الجو الناعم، وهذا الشذى المُحمّل برائحة لقاح الطبيعة هو الواقع.

كان خالد نائمًا بالداخل، وخالد الآخر مستيقظًا في عقلي، سحبتُ ورقة وبدأتُ أكتبُ فيها ما يَرِدُ على رأسي، الشيء الذي ورثته من أبي، أتحدث كما يعجب الآخرين وأكتب كما يعجبني.

لكني لا أستطيع الكلام. أحضرتُ الأقلام الملوّنة ورسمتُ فوق الورقة عصافير من صنع خيالي الذي يخصني وحدي، بدأتُ ولا أعرف كيف سأنتهي:

«خالد. إن كنتَ موجودًا بالفعل فلا داعي لمثل هذه الحِيَل الصبيانيّة، فقد كنتُ أختفي من أخي منصور خلف شجرة السنديان الكبيرة، يبحث عني نصف نهار ولا يجدني إلا في البيت. وإن لم تكن موجودا فهذا هو خطابي الأول إليك، أُفكّرُ الآن، في هذه اللحظة بالذات، أن أتركه لك في الصفيحة التي كانت بجوارك فوق السطح، أتتذكرها؟ الصفيحة التي كنت تضع عليها الملعقة، يوم أن استأذنتَ منّي ثم غبتَ للأبد. لقد قلتُ لك عن المكان الذي ستجد فيه رسالتي، فلأحدثك الآن عن محتوى الرسالة.

لقد رأيتُ فيك ما أبحث عنه في هذه المدينة الغريبة، المساحة الكبيرة الشاسعة التي تبتلع الخيال، أبحثُ عنك يا خالد منذ أن كان فراشي يبتل في الصباحات، أبحث عن معنى للخير والرِّقّة والنفس الهادئة، آه، نسيت، والجمال، كانتْ أمي تقول بأن الرجل يليق به أن يكون وسيما، لكنك يا خالد كنت جميلا، ربما ساهم في ذلك الجمال شكّي بأنك موجود، فما تحتفظ به الأيدي دائما تزهده النَّفْس، أو بالأدق، يكون أقل قيمة مما لم نحصل عليه بعد.

خالد..

لن أطيل عليك، فهذه هي رسالتي الأولى إليك، أنا أتحدَّث الآن إلى نفسي وليس إليك، لا أعرف هل ستصدِّق كلماتي أم لا، فأنا معي خالد، وأحتاج إلى خالد آخر، والخالدان لا يجتمعان في رأسي أبدًا، بينهما دائما فروق كثيرة.

أنا لا أقص عليك حقيقة مشاعري كي أسليك أو أهون عليك عذابات الاختفاء بين أركان السطح، لكني أريد فقط أن أسألك سؤالا واحدا، هل أنت بشر مثلنا، تنام وتصحو وتأكل وتتكلَّم؟ لقد سمعتُ صوتك أكثر من مرة، رقيقا وفيه «بحَّة» المطربين. كان مجرد أن تَرِد سيرتك في خيالي يصيبني الدوار، الطيف الذي يُشكِّل رغبتي في الحياة ازداد قوة بعد أن رأيتك، لم يصبح مجرد طيف، بل تطوَّر وخرج على شكل شخص صامت يلبس جلبابا أبيض وطاقية بيضاء ناصعة، لا مانع عندي أن آكل معك أرجل الدجاج المطبوخة، وأشرب المرق قبل أن يتجمد كالآيس كريم.

خالد..

كلما جاءتْ سيرتك تفتَّحتُ كوردة تعرف أن الحياة تضمها بذراعيها، سئمتُ من خالد يا خالد، فقد كان يتباهى ببعض خبراته المُضحكة، يتوهَّم بأن ذلك هو المرجوّ من الحياة، المصلحة، كلمة سخيفة، كرهتُ الأحرف التي تتشكَّل منها، وبدَّلتُ كل ذلك ببعض القصص الخيالية التي رستْ بداخلي وأخذتْ موقع الحقائق. لا أعرف يا خالد هل ورثتُ حُبي للقصص من والدي أم أجبرتني على

ذلك طبيعتي والظروف المحيطة؟ فقد كنتُ كطفل يحبو، رموا إليه طعاما لذيذا، ولا يعرفون أنَّه يحتاج ليد حانية تقدم له هذا الطعام كي يستلذ به، وقد كنتَ أنتَ هذه اليد.

خالد..

في رأسي تتشكل مُدن لا علاقة لها بالمدن الممتدَّة من حولي، مدن خياليَّة، أو خرافيَّة، سمها ما شئت، لكن فيها تنبت زهور لا أراها في حياتي الطبيعية أثناء الصحو، ولذلك كنتُ أهرب إلى الأحلام بكل ما أوتيت من قوة، أتمدد على السرير وأستدعي ما يروق لي، ورأيتك مرات كثيرة، كما أنت في الواقع، هذا إن كان يوجد ما يُسمى بالواقع البعيد عن الأحلام والخيال، رأيتك بصورتك التي ترسَّختْ في رأسي منذ قابلتك لأول مرَّة، ملابسك البيضاء وطاقيتك الناصعة، شعرك العسلي بلون السكر المحروق، لحيتك الخفيفة النابتة حديثا. أريد أن أقول لك أيضا؛ كنتُ أتخيل بأن الحياة مراحل مرتبطة بالزمن، مرحلة تلي مرحلة، لكنني اكتشفتُ من خلال التجربة بأنها تتجمَّع، تتدفَّق من هُنا وهُناك بغير ترتيب.

لا أود أن أطيل عليك، كما سبق أن قلت لك من قبل، لذلك فسوف أكتفي بهذه الكلمات اليوم، وربما تقابلنا في يوم ما، لا أعلم متى، ولا أنت تعلم، ولكني على يقين بأننا سوف نتقابل يا خالد.

من فاطمة.. والسلام ختام».

بعد أن كتبتُ ما أريده وقفتُ أرقب السماء وهي تتفتّح من البلكون المُطل على ميناء القاهرة الجوي، تتسلل إلى أنفي رائحة الورد المزروع في أصص بجوار قدمي، قطفتُ واحدة ووضعتها بين طيات الورقة، خرجتُ من الشقة وأغلقتُ الباب برفق، فخالد لا يزال نائمًا.

عندما أصبحتُ أمام باب الشقّة وضعتُ الخطاب تحت ثوبي. أكملتُ صعودي باتجاه السطح. لمّا اقتربتُ من نهاية السلم انقبض قلبي وتوترتُ قليلًا، أصبح كل ما حولي يدخل كياني من باب الحساسية المفرطة، أشعر بكل ذرّة تُراب تتحرك من حولي، وأقل الأصوات يثيرني ويلفت انتباهي بسرعة غريبة، وشيش الطائرات التي تقلع أو تهبط، نعيق الباب الحديدي الذي يفصل السطح عن الشقق، اهتزاز الأسلاك التي تملأ الممرات فوق السطح، كانتْ أعصابي مشدودة ذلك الشد اللذيذ، هُيّئ لي بأنني سوف أراه ولن أترك له الخطاب، لو حدث ذلك فسأحدثه بكلمات الخطاب، ويحادثني بلغته المقتضبة الشفافة، أسمع صوته المجروح الذي يحمل بين نبراته «بحة» مطرب.

بدأتُ أخطو نحو هاوية السطح، حيث السماء رخاميّة وقبتها ستارة كبيرة مصنوعة من حبّات الخرز، كلما طلعت الشمس تضاءلت الحبّات وانطفأ بريقها. تخطّيتُ البوابة الحديدية وأصبحتُ فعليًا في وسط السطح، لم أجد أحدًا، ولم أجد كذلك الإناء الذي كان يطهو فيه أرجل الدجاج، لكني رأيتُ الشنطة البلاستيك البيضاء التي عبأتُ

له فيها الخبز ذات مرة، هي الشنطة نفسها، فأنا أعرفها جيدًا، ورأيتُ كذلك الصفيحة التي كانت مقلوبة بجواره ويضع عليها الملعقة كما هي، ربما تحرّكتْ من مكانها قليلا، مقلوبة، عدلتها فوقع منها تراب وفتات صدأ وورقة صغيرة مطويّة، عندما لمستُ الورقة اقشعر جزء ما في سلسلة ظهري، امتد سريعا إلى عنقي وأثّر على رؤيتي، غامتْ عيني فلم أعد أرى الأشياء بوضوح. هل تكون هذه الورقة من خالد؟ وهل تكون لي؟ لم أستطع حتى فتحها، هل يمكن أن تسير الحياة على وتيرة وسط بين ما أتمناه وما يحدث لي بالفعل؟ الاحتياج لشيء هو الذي يحدد إحساسي به، هل يكون تلاقيًا فعليًا لروحينا؟ تشجعتُ وفتحت القصاصة الصغيرة، كانت عبارة عن سطرين مكتوبين بخط رديء قرأته بالكاد:

«أنا أحبك. أين اختفيت؟ أنا مخلصة لحبك بشكل لا تتخيله، وإن لم تظهر في حياتي مرة أخرى فسوف أنتحر. حبيبتك كريمة شوقي».

لم أكن الوحيدة التي ترى خالد، فهي أيضا رأته، لا أعرف هل هي كريمة شوقي أم شروق ابنتها التي تتوهّم بأن روح أمها تلبّستها؟ لا يهم أن أعرف ذلك الآن، المهم أن خالد موجود بالفعل، وأنه ليس مجرّد خيالات شكّلتها أحلامي.

نزلتُ السلم مرة أخرى، لا أدري كم من الوقت استغرقتُ في هذا المشوار، لكن ما أدركه تماما أن خالد أخذ طريقا ممهدا ليصبح حقيقة، ليس من تلك الحقائق التي يمتلئ بها الواقع الممل، لكنه

حقيقة تتشكَّل في مكان ما من الوجود لم يكتشفه أحد حتى الآن. مكان خارج حساب الأحلام والحكايات. وضعتُ الخطاب تحت ملابسي مرة أخرى، عند نزولي كان باب شقَّة كريمة شوقي مفتوحًا، كأنها تُراقبني، أطل رأسها الصغير وقطعتْ يدها طريقي:

«فاطمة، تعالي. نقعد مع بعض قليلا ونتكلم».

35

مرات قليلة جدا هي التي رأيت فيها كريمة شوقي على الطبيعة، كنت فقط أراها في التليفزيون، عند دخولي من باب شقتها داهمتني شجاعة كتلك التي تأتي في الأحلام. خلف الباب كانت تقف ابنتها التي تسللت إليّ عبر البلكون وجلستْ معي من قبل. ذُهلتُ من التشابه بينهما، نسختان متطابقتان يفصلهما بعض السنوات، كانت الأم تبدو شابة هي الأخرى، ربما تخطَّت الخمسين بقليل، تحت عينيها مخدات خفيفة منتفخة، نظراتها مضطربة بعض الشيء. كأنها استيقظت من نومها في التو:

«تعالي يا فاطمة. تفضلي».

عندما دخلت فعليًا اختفت شروق، تأملت محتويات الشقة من حولي، انتابني إحساس بأن كل ما فيها صناعي، الورود وورق الحائط، السجاد المفروش على الحيطان والدمى الملونة الملقاة في أماكن الجلوس، حتى الكلب المحنط والمدفأة العيرة، في دولاب صغير لمحتُ باروكات ملونة مرصوصة فوق أرفف زجاجية، متنوعة بين الشعر المجعد والأصفر الناعم، القصير والطويل، وبجوارها أشياء

جلدية تشبه الأقنعة، بجوار الدولاب المربع دولاب آخر عمودي به خرزانات معقوفة ولها رؤوس حيوانات، وقبعات بأشكال غريبة:

«تفضلي. اقعدي. لا أريدك أن تغضبي مِنِّي بسبب سوء التفاهم الذي حدث منذ سنتين».

«سوء تفاهم؟»

«يوم أن أخذنا شروق من عندكِ. ابنتي حالتها صعبة جدا يا فاطمة. ونحن نفعل كل ذلك لصالحها».

لم أُعطِ كلماتها اهتمامًا كبيرًا. فأعطتني ظهرها ووقفتْ أمام مرآة كبيرة، خلعتْ رموشها الطويلة السوداء من جفنيها بسهولة، وخلعتْ أيضا باروكة قصيرة صفراء كانتْ تعطيها شكلًا أجنبيًّا، أطاحت بحذائها ذي الكعب العالي من قدميها، بدتْ قصيرة، أقصر مِنِّي، كان شعرها الحقيقي أجمل من الباروكة، قرّب هيئتها من البشر العاديين. لكنني عندما تأملته جيدًا رأيته أسود حالِكًا، وهذا السواد الشديد تأكيد على أنه مصبوغ. اقتربتْ بعد أن تحررتْ من زوائدها:

«أرى في عينيكِ نظرات العجب يا فاطمة».

قلتُ دون تردد:

«لا عجب أبدًا».

لا أعرف لماذا كذبتُ عليها؟!

«لماذا إذن تنظرين إليّ بغرابة هكذا؟».

قالتْ ثم ابتسمتْ، كلما حاولتُ إخفاء مشاعري كانتْ تظهر بشكل أكبر، قلتُ:

«أنتِ جميلة في جميع الأحوال يا أستاذة كريمة».

ضحكتْ فبدتْ أسنانها كبيرة ومفلوجة، بينها فراغات تكفي نِصف سِنَّة إضافيّة. آخر ما خلعته عن جسدها معطف من فرو الثعلب. قالتْ وكأنَّها تعرف ما أفكِّرُ فيه:

«هذا ليس فروًا أصليًا».

ابتسمتُ:

«لكنَّه يبدو أصليًّا يا مدام».

في الحقيقة أنني لم أر في حياتي فرو ثعلب حقيقيًا، ولا حتى تقليد، ولكنني قُلتُ ذلك لأبدو إنسانة جيدة في نظرها.

جاءتْ جلستي أمام صورة بالحجم الطبيعي لكريمة شوقي مع عادل إمام، يبعد يده بسيجارة كي لا تظهر في الصورة، لكن عقب السيجارة وجزء من أصابعه القابضة عليها كان واضحًا، لما رأتني أتأمل الصورة اقتربتْ مِنّي:

«كنتُ مع عادل إمام. صورة من فيلم الحريف، قبل أن تأخذ فردوس عبدالحميد الدور مِنِّي. بذمتك ألستُ أجمل منها؟ لكنه كان رأي الأستاذ محمد خان».

لم أرد عليها، فأشعلتْ سيجارة نحيفة وطويلة، وقفتْ بجوار البرواز الكبير وأشارت بطرف السيجارة إلى أعلى الصورة:

«الأستاذ خان كان يقف هُنا».

وفجأة، قطع صوتها صراخ آتٍ من الداخل، ثم خرجت ابنتها مصدر الصراخ، لا تقول إلا جملة واحدة:

«حرام عليكم. حرام عليكم».

نهرتها أمها بشكل عنيف:

«شروق. عودي إلى غرفتكِ».

يد قوية تجذبها إلى الداخل، لكن شروق تقاوم بشدَّة، تمسك في ستَّادة كرسي أنتريه، تقبض عليه قبضة المستجير، تجره معها إلى الداخل، واليد لا تزال ضاغطة على معصمها، مصممة أن تُدخلها مرة أخرى. بسبب إصرار ابنة كريمة شوقي على الخروج جرَّتْ معها صاحب اليد، ظهرتْ صلعته واضحة، كان هو الرجل نفسه الذي أعطاها الحقنة من قبل أمام باب شقتي، الرجل الذي قالتْ شروق بأنه زوج أمها.

«طبيبها يا فاطمة. يعالجها منذ سنوات من حالة صرع مستعصية. لا تؤاخذيني. نسيتُ أن أسألكِ ماذا تشربين؟».

في هذا الجو المتوتر لم يكن عندي أية رغبة في تناول شيء. انتابتني فجأة مشاعر متناقضة، ذلك الإحساس الذي أشعر معه بأنني غير موجودة، كأنني أخذتُ استراحة قصيرة من الحياة.

استأنفتْ كريمة شوقي الحديث إليّ فأعادتني بسرعة للمكان قبل أن يتمكَّن منّي الشرود:

«عصير؟».

وجاءني الصوت العالي من الداخل، صوت شروق:

«لا تشربي العصير يا فاطمة. ستتلوثين إن شربته. اسمعي كلامي».

ثم أطل شعرها وجزء من اليد الكبيرة تسحبها إلى الداخل مرة أخرى بطريقة أعنف من الأولى.

وأجلس بغير اطمئنان، لا لشيء إلا لأنني راجعت قراري بالدخول إلى هنا ووجدت أنه كان خاطئًا:

«لا داعي لأن أشرب شيئًا. يمكن أن أنصرف».

رفعت المرأة حاجبيها واقتربتْ منّي وهي تتأملني جيدًا:

«هل صدقتِ كلامها؟ إنها تُعالَج من حالة صرع مستعصية. وتقول أي كلام».

ثم ضحكت المرأة بشدة حتى نفرت أنابيب دموية من رقبتها، لأول مرة أعرف أن الضحكة يمكن أن تكون مُخيفة، قمت وانزويتُ في أحد الأركان باتجاه باب الشقّة.

ذهبتْ كريمة شوقي لتحضر لي مشروبًا، فكّرتُ في الهروب من هذا المكان بأقصى سرعة، فأنا بجوار الباب، بيني وبين السلم ثلاث

خطوات، ما الذي يمنعني إذن من الانصراف؟ سوف تخرج صاحبة الشقة بعصيرها فلا تجدني، لكن شيئًا ما بداخلي جمَّد أي تصرف أو حيلة، تأملتُ أركان الشقة من جديد، بدت في شكل غريب بعد أن أصبحتُ في الصالة الكبيرة وحيدة، وأطبق الصمت المريب على المكان، تحيط بي أوهام شتى وأشباح مُتخيَّلة، الصور الملونة المُعلَّقة على الجدران، التماثيل الساكنة التي تملأ الأركان، كل شيء هُنا يوحي بغموض محتمل.

وفيما أتأمل صورة لكريمة شوقي تجمعها مع شكري سرحان في أواخر أيامه؛ سمعتُ خرخشة من خلفي، عندما التفتُّ كان الرجل الأشقر يخرج إلى منتصف الصالة وحيدا، يقف مشمر الساعدين، يحمل في يده سكينًا تقطر دمًا، ويندمج في مسح الدم من على السكين بريشة بيضاء ناعمة. تجمَّدتُ في مكاني، صرتُ أشبه بالتماثيل الكثيرة المنتشرة من حولي، الرجل لا يتكلم، كنتُ واقفة وهو جالس، أرى صلعته ويده التي تعبث بالريشة والسكين، في هذه اللحظة كنتُ على وشك الهروب الفعلي، لكن شجاعتي خانتني للمرة الثانية، سمعتُ طقطقة منتظمة تتسلل إلى مسامعي، وأصبحتُ في حيرة، هل ما أسمعه يخرج من غرفة شروق، أم يصوره خيالي بسبب ما يحدث حولي من أشياء غريبة؟ أخذتْ قدمي وضع الاستعداد للهرب، جيوش من نمل الخوف انتشرتْ وزحفت من ظهري إلى عُنقي، فتجمدتُ وتمنيتُ فقط الخروج سالمة، ثم بدأتُ أفكر في شروق، البنت المحبوسة التي

تبعد عني عشرة أمتار فقط، لماذا نشترك أنا وهي في رفض واقعنا؟ هل نمتلك واقعا آخر غير ذلك الذي نعيشـه، أم فقط نتمنّاه؟ لماذا اشتركنا أنا وهي في رؤية خالد البديل، وفكرنا في وقت متقارب أن نرسل إليـه برسائل نخاطبه من خلالها؟

خرجتْ كريمة شـوقي وهي تحمل كوب عصير، قدَّمته وهي تنظر إلى الرجل الأشقر:

«هـل عميت؟ قُـم وأكمل ما تفعله بالداخل. ألا ترى بأن لدينا الآن ضيوفا؟».

وقام الرجل في صمت، سـحب سـكينه والريشـة التي يمسـح بها الدم، توجَّهتْ كريمة شوقي ناحيتي:

«هذا دم حمامتين، لابد أن يغرق به جسـد شـروق مرة كل أسـبوع ليهدئها. هل تسمعين لها صوتًا الآن؟ لقد ذهبت في سابع نومة».

لـم ألتفتْ للعصير الذي قدمته إليّ، فأمسـكتُ بالكوب وقرَّبته من فمي:

«اشربي يا فاطمة».

لم أمد يدي، شعرتُ كأنها ألصقتْ إلى جنبي، لا أستطيع رفعها:

«هـل صدَّقـتِ مـا قالتـه شـروق؟ ليـس علـى المريـض حـرج يا فاطمة».

ثم رفعت الكوب ورشفت منه مرتين:

«تفضلي. هذا عصير جوافة ممتاز. وإن كنتِ لا تزالين خائفة. فلدينا علب عصير مُغلقة كي تطمئني».

أيقنتُ في هذه اللحظات أن الأسئلة التي تمر في خيالي ولا أعثر لها على إجابات؛ أكثر بكثير من تلك التي تُصادف الأجوبة، كل ما أستطيع أن أعرفه، أن شعورا بالوحدة يتنامى بداخلي أكثر من أي وقت مضى. تاهت الدنيا وتموّهت في عيني، هذا التداخل بين الأحاسيس كان يرهقني ويشتت تركيزي بشكل دائم، حتى العفاريت التي كنّا نخاف منها أنا وأخي منصور؛ كانت لها الهيئة نفسها، نتّفِقُ على ملامحها قبل أن نلعب في الظلام، فنرى ما لا يُرى وخيالنا يُشكِّل ما يُهيأ لنا ونتصوره، أما هُنا فأنا أرى بالفعل، لكنني أشعر بأنني لا أرى شيئًا، فقط ضجيج وعلاقات غير مقنعة تتشكل في كل ثانية.

كوب العصير ظل في يد كريمة شوقي لمدة طويلة. عندما شربت منه خفَّ توجسي وشربتُ منه، وبدأت كريمة تحدثني بعد أن دخل الرجل الأشقر إلى غُرفته:

«ملامحكِ بريئة».

«بريئة؟».

«وجميلة».

قالت الكلمة الأخيرة وهي تغمز بعينها:

«هل تعلمين بأنني أعمل هذه الأيام فيلمًا مهمًّا مع المخرج الكبير عاطف الطيب، وأنه أوكل لي مهمة البحث عن وجوه شابة جديدة تشارك في البطولة؟ وهذا هو سبب دعوتي لكِ الآن».

«ممثلة؟».

«ولم لا؟ النجومية والشهرة. الأضواء والثراء».

كنتُ دائمًا أشعر بأنني أقوم بتمثيل دور غير مهم، دور في الحياة لا أمام الكاميرات، وأن شخصيتي الحقيقية كامنة في مكان ما، لكني لم أفكر يومًا بأن أصبح ممثلة في الأفلام:

«أنا لا أصلح يا أستاذة كريمة».

قامت ولفّتْ حولي كوكيل نيابة مبتدئ يحوم حول متهم:

«جرّبي. ماذا كانت نجلاء فتحي؟ وكيف كانت ليلى علوي؟ بل إن سعاد حسني نفسها كانت بنتا عادية جدًّا. جرّبي يا فاطمة ولن تخسري شيئًا».

شربتُ عصير الجوافة، ووضعت الكوب على المنضدة وأنا لا أخفي تفكيري فيما قالته كريمة شوقي، قمتُ وهممتُ بالانصراف، فاقتربتْ كريمة مني وهمستْ:

«سوف أنتظر ردك غدا».

«غدا؟».

«أو بعد غد على الأكثر».

فتحتْ لي الباب وتقدمتني بخطوتين، لكنني قبل أن أخطو إلى الخارج سمعتُ صرخة شقت كل ما كنا فيه من هدوء:

«شربتِ العصير يا فاطمة؟ لماذا يا فاطمة؟».

خرجتُ وأنا لا أفكر في شيء محدد، فقط أشعر بالغثيان.

36

خالـد لا يـزال نائمًا، لكن جـرس التليفون أيقظـه، المتحدِّث على الطـرف الآخـر لا أعرفه، كل ما أسـمعه من خالد كلمـات لا تفي بأي غرض «حاضر. والله؟ عظيم. أخبار رائعة»، غيَّر ملابسـه وخرج دون إفطار، دون أن أعرف إلى أين ذهب.

استغرقتُ وقتا طويلا في ترتيب الشقة، ليس لكثرة الأعمال، ولكن بسبب شـرودي الحالم في عرض كريمة شوقي بأن أصبح ممثلة، كان حلمًـا بعيـدًا وعرضًا غريبًا، لا سـبب مقنعًـا له، نظرتُ إلى نفسـي في المرآة، سـألتُها لتبوح لي بأسـراري التـي رأتها في كريمة شـوقي، ثم توقَّفتُ عن استـعراض جسدي أمام المرآة، لا يصح مثل هذا التباهي، فأنا أرفض أصلًا أن أصبح ممثلة.

مـر اليـوم ممـلًّا حتى انقضـى أغلـب النهـار، ولم يجـئ خالد من مشـواره الذي لا أعرفه. لحظات ودق جرس البـاب، لابد جاء خالد، ذهبتُ باتجاه الباب. فتحته على المصراع، كان الطارق الرجل ذا الشفة المشـقوقة، الشـيخ طه، لم أتمكن من صد الباب فـي وجهه، وجدتني أقول له بلا ترتيب مُسبق:

«تفضل».

فتفضل دون أن يقول شكرا.

وكأنَّه كان ينتظر أن أقولها، دخل الرجل واكتشفتُ بأنني فتحتُ الباب وأنا لا أزال بملابس البيت، دخلتُ إلى غرفتي جريًا في جري، ثم خرجتُ بملابس محتشمة تليق باستقبال شخص غريب. عندما خرجتُ كان الضيف غير المرغوب فيه واقفا يتأمل محتويات الشقَّة بعين زائغة، يزغر لكل ما تقع عليه عينه من العفش والمقتنيات، ثم ركَّز نظره عليّ، سحب نفسًا كالفحيح وجلس دون أن آذن له بذلك:

«قهوتي مضبوطة يا هانم لو سمحتِ. فمراجعة الأوراق تحتاج لربع ساعة على الأقل».

ثم فتح أوراقًا في الدوسيه الأصفر الذي كان بين يديه بالأمس ونحن في السيارة:

«سوف أراجع هذه الأوراق وأتركها للباشا».

لم أجد مفرا من تمثيل دور المُضيف الكريم لشخص غريب، ذهبتُ لأعمل له القهوة كما طلب، كانت كلماته تحمل بعض الدبلوماسية ونظراته تحمل وضاعة ترتدي ثوب الوقار، دسّ رأسه في حافظة الأوراق عندما دخلتُ إلى المطبخ، شعرت بصداع خفيف، سرعان ما زادته طلبات الضيف الثقيل، هذا الشيخ العجيب، دخلتُ لأعد له القهوة، عملتُ فنجانين، فقد كاد رأسي أن ينفجر.

أثناء خروجي بالصينية توقفتُ، لم يكن هناك ما هو لافت في تصرفات الرجال، ولكن اللافت هو وجود فنجانين من القهوة، أحدهما لي والآخر لرجل غريب، لقد رأيتُ هذا المشهد من قبل، رأيته بحذافيره، لا أتذكر أين، هل مر بي أم قرأته في قصَّة من قصص أبي؟

رفع الشيخ طه رأسه من بين كومة الأوراق التي كان يتفقدها ببطء، وما إن وضعتُ الصينية على المنضدة حتى سمعتُ صوته:

«هل يمكن يا هانم أن أدخل الحمام؟».

دق قلبي بتسارع عندما سألني هذا السؤال المباغت، كان عليَّ أن أحتاط من كل تصرف يصدر عنه، وكل رد فعل يبدر مِنِّي.

أضاءت لضيف زوجي النور، غاب وجلستُ أتأمل الفنجانين، أحرسهما، وأجلس على الكرسي القريب من باب الشقَّة.

تأملتُ حوض السمك، وتذكرتُ بأنه لم يأكل منذ أيام، هو جائع ويلف حول نفسه في الماء الثقيل، سمكة كبيرة عضَّتْ سمكة أصغر، وتمت بينهما مطاردة، قمتُ وأحضرت لهما الطعام، حبات مستديرة رائحتها كريهة، لكن السمك الملون المحبوس يقتات عليها بتلذذ ومتعة. نظرتُ خلفي فلمحتُ القفص الذي يضم العصفورين، يحبسهما منذ سنتين، رأيتُ العصفور يقف فوق العصفورة، اقتربتُ أكثر، كان يقف على جثَّتها، متى ماتت العصفورة؟ ممدتُ يدي بخوف إلى القفص، سحبتُ العصفورة فوجدتها جثة، أمسكتها من

قدمها وألقيت بها من الشباك، لا أعرف لماذا تابعتُ سقوطها على الأرض؟ لكن كلبا جرى وخطفها في فمه بسرعة، وندمتُ على إلقائي بها من الشباك، لماذا لم أضعها في السلَّة حتى الصباح؟ وعلّق المشهد في خيالي، الكلب أكل العصفورة.

خرج الرجل وهو يعدل ملابسه بطريقة بدائية غير متحضرة، أنهيتُ فنجاني قبل أن يعود، أخذ يرشف من فنجانه بطريقة من لا يريد ما يشربه. كان يجلس منثنيًا على نفسه، له صدر متهدل كالنساء، لحيته محناة وغريبة الشكل كشعر الخيل، كانت مجرد جلسته في شقتي ثقيلة على نفسي كَهَم مطبق، وبدأتُ أدبّرُ في رأسي كلمات دبلوماسية تصلح لإنهاء هذه الزيارة، ولو لم يفهم كلماتي فسوف أطرده، حتى ولو كان ذلك سيغضب خالد.

لكنه بعد ترقب طال أنهى فنجانه، وضعه على الصينية بكل ذوق وأدب، ثم أخذ يتكلم عن الأوراق التي سوف يتركها لخالد، وكيف أنها نُسخ أصلية مهمة جدا لمشروعهم الاستثماري، بعد أن تأكد له بأنني غير منصتة لما يقول قام من مكانه، انحنى إلى الأمام كالخدم، مال بشدة ناحيتي كي يصافحني:

«سلمي لنا على الباشا يا فاطمة هانم».

كان غريبًا أن يجري اسمي على لسانه. مددتُ يدي كي أصافحه وأنهي هذا الموقف الغريب، بعد أن سحب يده شعرتُ بدوار، ورأيتُ أصابع تحمل زجاجة سوداء كزجاجات العطور، ثم لم أعد أرى

شيئًا، لكنني سمعتُ الصوت نفسه لا يزال يملأ الفراغات من حولي: «لا تنسي أن تسلمي لنا على الباشا. هه. الباشا يا فاطمة هانم».

ثم انقطع الصوت، وأصبحتُ في عالم خيالي، كأنني أجري عمليّة جراحية، تماما عند المرحلة التي تتوسَّط سريان البنج وبداية العبث بجسدي، ثم همدني الغياب التام، وأصبحتُ كمن يدور بين تروس هوائيَّة، ألِفُ في فلك بعيد وأسبح، مرة مع التيار ومرة ضده، ومرة مُعلقة من قدمي كالذبيحة، كل ذلك كان يحدث وأنا بغير وزن.

عندما شعرتُ بوزني وأنفاسي عاد بعض الشهيق إلى صدري، وجدتني نائمة فوق سريري، حذائي إلى جواري، ممددة كشخص قطعوا قدميه، أرتدي قميصًا أحمر ليس من دولابي، تُقمِّطُ رأسي عصابة حمراء أراها للمرة الأولى، وأشم رائحة عطر غريب، ليس من بين عطوري، أشعر بثقل غريب في رأسي وتقلبات داخلية كالتي تنتابني بعد أكل وجبة دسمة، لملمتُ تفاصيلي واستمعتُ بإنصات لكل ما يحيط بي، كانت الأجواء هادئة. خرجتُ أتفقَّد المكان، كان الفنجانان كما هما، فنجاني فارغ وفي مكانه، ربما تزحزح قليلا للخلف، وفنجانه نصفه فارغ، يتسحَّب «الراووق» على جنباته ومركون في منتصف المنضدة. سرحتُ فيما حدث، أخذتُ أتخيل ما يمكنني أن أفعله، ألف وأدور كالمجنونة حول المنضدة، لا أجد أثرًا للرجل الذي كان هنا منذ دقائق، أنظر إلى ساعة الحائط وأكتشف أنه كان هُنا منذ ساعات، أنظر تحت الكراسي، أدور في الشقة ككلب

يعض على ذيله، تشتتني الحيرة ولا أستطيع وضع حد لآلامي التي بدأتْ تفترسني، فتحتُ باب الشقة مواربًا، لم أجد ما أبحث عنه، أنا لا أعرف أساسًا ما أبحث عنه! لمحتني كريمة شوقي وهي نازلة، اقتربتْ من الباب ونظرتْ لجسدي من تحت القميص الأحمر:

«بسم الله ما شاء الله. فاطمة. فكري بسرعة فيما عرضته عليكِ».

تأملتها جيدًا، وكأنني أراها للمرة الأولى:

«لا تنسي يا فاطمة. ردي عليّ غدًا، أو بعد غد على الأكثر».

كنت حتى هذه اللحظة مضطربة الإدراك، لا أعرف هل استيقظت من نومي وكل ما يحدث حولي حقيقة سوف أُحاسب عليها؛ أم أنني لا أزال نائمة وسأستيقظ بعد قليل لآخذ دوش وأنسى كل ذلك؟

اقتربت من باب الشقة، لمست «الأكرة» لأتأكد من وجودي الفعلي، فتحتُ الباب على المصراع، وقفتُ والهواء يتخلل من بين الرداء الأحمر الخفيف، أمسكتُ بذيل قميصي ورفعته حتى ركبتي، جحظتْ عين كريمة شوقي، شهقتْ وقالتْ اسمي بصيغة نداء:

«فاطمة».

سحبتُ قميصي لما فوق ركبتي:

«لن أرد عليكِ غدًا أو بعد غد يا أستاذة كريمة. أنا أوافق على العرض. فمنذ اليوم. لا. منذ الآن قد أصبحتُ ممثلة».

37

أنهى كل الحاضرين كلامهم، نظر الرجل صاحب الدقماق إلى قفصي، كنت اتشبث بأصابع إياد، ولا أود أن يوجه إليّ أحد أي أسئلة، لأنني لا أريد الكلام.

* * *

عاد خالد وشرح لي سبب خروجه المفاجئ، صديق جلب له شيئًا ما من الخارج، هكذا قال لي وهو يتأمل قميصي:

«هل اشتريته مخصوصًا من أجلي؟».

بحثتُ عن رد. ولم أجد، لكنه أكمل:

«والعطر أيضا جديد، هل تتوافق أرواحنا الليلة على الشيء نفسه؟».

قال ثم فتح ورقة وسفّ منها مسحوقا بنفسجيا. كل ما لفت نظره هي ملابسي التي لم يرها من قبل، لكنه لم ينشغل بأيّة تغيرات حدثتْ في روحي، المرارة التي أحدثه بها، عيني التائهة عند النظر إليه، ردودي المشتتة وأنا لا أستطيع أن أصِل حديثي معه بجُمل مكتملة، أثناء

اندماجي في التفكير سحبني من يدي، وفوق السرير الذي وجدتُ نفسي فوقه نائمة منذ قليل، وفوق الملاءة التي لا أعرف ما الذي حدث معي على وردتها الكبيرة الحمراء، دفعني خالد وقال جملة واحدة:

«قال لي صديقي إن كل ما فات شيء. وما هو آت شيء آخر تماما».

تصنّعتُ الغباء وعدم الفهم، فلم يكن لدي طاقة لاستيعاب أيّة ألغاز، كنتُ مُنشغلة أكثر بروحيٍ التي باتت تحتاج لترميمات. بعد أن تأكدتُ تماما ماذا يريد مِنّي تعطرتُ من زجاجتي التي يعرف زوجي رائحتها جيدًا، كي أمحو بقايا العطر الغريب، لكن الرائحتين صنعا مزيجا غريبا، يوحي بإحساسين، عندما تسلل العطر الهجين إلى حاسة شمي شعرتُ بأنني أرقص بين عالمين، أقف شاردة بين بيتين، واحد مهجور وكئيب، والآخر غير مكتمل البناء وبعيد.

هل أنتِ منحطّة يا فاطمة أم تدعين الجنون؟ قلت لنفسي بينما انسحبتْ روحي فعليًّا من المكان، أصبحتُ كجثّة هائمة لا أشعر بنبض الحياة، وفم خالد كان ينفتح وينغلق دون أن أسمع صوته، انقطع عن لسانه فجأة بث التعبير اللفظي.

امتثلتُ لِما طلبه، طلعتُ على السرير وهيأتُ نفسي، قبل أن يقترب مِنّي بشكل كامل قال:

«ستظهر بذرة هذا المسحوق بعد عشرين يومًا. وثمرته بعد تسعة أشهر».

الإنجاب، الكلمة السحرية التي من أجلها يفعل خالد كل ذلك، فالمسألة لا تحتاج إلى ذكاء، هذا المسحوق وعده من أعطاه إياه بأنه مفيد في هذا الشأن، وخالد كأي رجل، يريد أن يصبح أبا بأي ثمن. وكان الثمن القريب لما أراده له هذا الصديق أن اهتز السرير بنا، ألم يجد خالد وقتا يضع فيه بذرته إلا هذا التوقيت؟ أنهى مهمته بسرعة غير متوقّعة. بعد أن استلقينا على ظهرينا والعرق يغمرنا قال خالد:

«هذه المرّة أنا متأكد من النتيجة».

«لماذا؟».

«أشعر بذلك. ألا تشعرين أيضا؟».

كانتْ مشاعر متناقضة تقترب مِنّي وتبتعد، خيالي مشحون بضوضاء، أسمع بقايا خُطى سريعة تتعقبني، كنتُ أبحث عن التعبير ولا أجده، لا أجرؤ على قول ما حدث منذ ساعات لخالد، ماذا أقول له؟ أقول بأن الوحش الذي روضته وزارة الداخلية كي يفترس الآخرين امتدتْ مخالبه إلى أقرب الناس إليه، أم أحدّثه عن الخيبة التي أشعر بها والمرارة التي أتنفّسها؟ كنتُ قد تعودتُ الكذب عليه حتى بات أمرًا طبيعيًا، لن أصارحه بالزيارة، لكن ماذا لو أن جارتي العجوز رأت الشيخ طه وهو داخل؟ وهل سأقول له بأن الأوراق التي تركها له جاءت إلى هُنا وحدها؟ أكلتني الحيرة وشعرتُ بأن الرجل المريب هذا كان يدبّر جيدا لكل هذه التفاصيل، ويعرف أيضا بأنني

لـن أبوح لمخلوق بما حدث، وبالتالي فتمر الأحداث وتمضي الدنيا وكأن شيئا لـم يحدث.

«أشعر بأرواح صغيرة تتجول حولنا يا فاطمة».

عندما قال هذه الكلمات لضمتها بالكاد في جملة مفيدة، فقد كنتُ فـي دنيـا وكان خالد في دنيا أخرى، أصبحتُ أشـعر بالتفاهة، تفاهة ما أقوله، وتفاهة ما أسـمعه. استيقظتُ وكأنني نمتُ قرونًا، لا أشـعر بما يقـول. فقدت الكلمات بريقها الـذي كان، وتملَّكتْ مِنّي رغبة صادقة في عدم الكلام نهائيا، كنتُ كمن يسبح في بحر أزرق شاسع، والسماء فوقـي بـلا سُـحب، لأول مرة أشـعر بأنني نصف يقظى بين أشـخاص فـي نومهم سـابحين. مـرّتْ لحظـات كأنني أسـير فيها على شـواطئ مهجورة:

«لم تحدثني عن صديقك الذي أعطاك هذا المسحوق يا خالد».

مطَّ ذراعيه وهو نائم وأمسـك بخشـب السرير. ظل يهز فيه بمبالغة وقال:

«أنتِ تعرفينه جيدا يا فاطمة. الشيخ طه».

ما إن سمعتُ اسمه حتى انقبضتُ، كان في وسعي أن أسبه بصوت عالٍ، لكن المدينة علَّمتني بأن أشعر بشيء وأتفنن في قول شيء آخر:

«لقد ترك لك دوسيه به أوراق».

«أعرف. فقد قال لي طه. ذلك الكلب الأليف لا يخبئ عني شيئًا أبدًا».

الكلمات التي نتعلمها كي نُعبِّر بها عن مشاعرنا، باتتْ معنيّة بأن نداري بها بعض الخيبات التي لا تفيد معها كلمات، كانتْ حياتي في طريقها للتعفن، بدأتْ غُدد الكُره تنمو بداخلي وتتكاثر، تطوف خلسة وتبحث عن فريسة، غيرني هذا اليوم كثيرًا، أصبحت أمرأة سيئة، وكأن مشوار عمري حدث فيه شقّ غائر، فتحولت حياتي إلى قبل هذا اليوم وبعده:

«وهل قال لك زميلك المفصول هذا بأن النتيجة مضمونة؟».

«أنا لا أثق في كلام وزير الداخلية شخصيا. لكني أصدق طه لأبعد حدود. روحه في يدي، لا يستطيع أبدا أن يلعب بذيله. وإلا قضيتُ عليه».

كانتْ هذه النبرة من أسخف ما يكون، نبرة ثقة من شخص لا يعرف شيئًا مما يدور حوله، ثقة في الكلمات وحدها، وليس فيما تؤدي إليه.

تحدَّث خالد إليّ بطريقة أكثر أُلفة، ربما حرَّكَه الأمل بأن أقتطع له ابنا من صلبه إلى الدنيا، من صلبه، صارت الكلمات مضحكة.

نزلتُ من على السرير، أمسكتُ بزجاجة عطري وأخذتُ أدلق منها فوق جسدي، لم يكن الغرض أن أتعطَّر، كنتُ أهتز مع كل حركة

بشكل عنيف، حتى حسبني خالد أرقص له، أريد بغير أسف أن أنفض من أحشائي كل النُّطف دفعة واحدة، باعدتُ بين قدمي وآخذتُ أهتز، كانتْ رائحة العطر الغريب تتشبّث بملابسي، بلحمي، تتغلغل بين مسام روحي وتلوثني، أصبحتُ امرأة ملوثة، أنا فقط أعرف هذا، سيصبح ذلك هو سر شقائي في الأيام القادمة. قرفص خالد فوق السرير وأضاء نور الأباجورة الخافت، أخذ يتأملني وأنا أهتز بكل قوتي، كدجاجة نصف مذبوحة، وهو يصفق بكفّيه، نزل من فوق السرير، اقترب مني، كان يريد أن يرقص معي، ونفسي تضيق بالعطر والقميص، رميتُ بالعصابة الحمراء بعيدا، وخلعتُ القميص الغريب الذي لم يسألني خالد عن مصدره، رفعتُ يدي بزجاجة عِطري حتى القطرة الأخيرة فوق شعري، وبرغم ذلك تأبى الرائحة القديمة مغادرة جسدي.

عندما أصبحتُ عارية؛ تعرى خالد. ظن بأنني أخلع ملابسي من أجله، وبِتُّ على يقين بأن الكلمات ليست وحدها هي التي تزيف الحقائق، بل ما نشعر به ويدور بداخلنا أيضا، في مراحل تَشَكُّله الأولى، يمكن أن يصبح مزيَّفا بسبب الفهم الخاطئ.

أشعل خالد سيجارة بعد أن هدَّه تعب الحرمان من حولي، زفر الدخان في وجهي، ثم ابتسم وحرَّك فكَّه كأنه يمضغ شيئا:

«بعد عشرين يوما».

أبعدتُ الدخان عن وجهي:

«ماذا سيحدث؟».

النفاية أصبحتْ بطول السيجارة:

«سوف نذهب إلى الطبيب. هذه وصفة مجرَّبة من باكستان. جاءت بنتائج مبهرة مع لواءين قبل ذلك».

«نذهب إلى الطبيب. لماذا؟».

«كي نرى الولد يتحرك كعقلة الإصبع فوق شاشة الأشعّة».

«الولد؟».

وسقطت النفاية الطويلة فوق بطني.

38

وحيدة، لا يُسلي وحدتي بشر، فقط بعض سمكات ملونة بلا ذاكرة، وعصفور يحول جميع أحاسيسه إلى «صوصوة».

مرت الأيام العشرون وذهبنا إلى الطبيب، خرجنا بالنتيجة المتوقَّعة، «ألف مبروك. المدام حامل».

جملة تتكرر كثيرًا في أفلام الأبيض والأسود، انتظرتُها قرابة ثلاث سنوات، لكنني لم أفرح، قفز خالد من مكانه كطفل كبير، نسي تمامًا أنه ضابط شرطة، تنازل عن الوقار والرزانة لثوانٍ، ألقى علينا الطبيب بعض التعليمات، لم أسمع أغلبها، فقد كنتُ شاردة، وذهبتُ على ما أعتقد إلى مكان بعيد، ربما أخذتُ أَلِفْ مع أخي منصور حول السنديانة الكبيرة، يخطف التاج الأخضر من فوق رأسي وأربطه في ضفيرتيّ الطويلتين.

خرجنا، ركبنا السيارة، وتكلم خالد كلامًا كثيرًا، لا أعرف كيف لزمن أن يمر على إنسان دون أن يشعر؟ نتخطّى طُرقًا ونعبر شوارع، نمر على بشر وتدور أحداث، لكن كل ذلك يقع بالخارج فقط، تراه العين ولا يحسه البدن أو العقل، رأيتُ نفسي هائمة فوق سقف

السيارة، أقرفصُ ويطيّر الهواء الشديد شعري، أتشبثُ بمقعدي جيدًا، السقف أملس، أنزلِقُ في اتجاه السقوط، أرتطم، تنتفض رأسي وأنا جالسة على الكرسي، فزملة قوية ثنتْ جذعي للأمام فانتبهتُ، كان خالد يحدثني، لم يشعر بسرحاني وغفوتي ومناوشة بعض الأفكار لخيالي، صار رأسي كالعجين، لا أستطيع التركيز في شيء بعينه، بل لا يمكنني الاستماع إلى أحد الآن. كنتُ في دنيا غير الدنيا.

عندما عدتُ رأيتُ خالد شاردا، ذلك الشرود اللذيذ، لمعان العين بشكل أقرب للذهول، انبساط الملامح كأنها مُقبِلة على ضحكة وشيكة، حركات اليد والبدن تشنجيّة لا ترسى على حال:

«أنا مبسوط جدا».

هززتُ رأسي دون كلام:

«وأنتِ يا فاطمة؟».

دام هز رأسي لثوانٍ قبل أن أنتبه لأنه وجّه إليّ سؤالا:

«طبعًا».

كنّا قد اقتربنا من حي الزهور، أخذ خالد ينقر الدركسيون ويدندن بأغنية لا أتذكرها، ثم قال دون أن يلتفت إلي:

«لابد أن نكافئه».

«الطبيب الذي أبلغك بالخبر؟».

«لا. الشيخ طه».

وبدأت الدنيا تلف بي من جديد، كأنني أستمع لصوت خالد من وراء جدار، أو أنه في مكانه الطبيعي وأنا تحت الأرض، لم أكن حتى أثق فيما سوف أقوله، توقّفت الكلمات على طرف لساني، كنتُ على وشك سبّه هو وحفّار القبور هذا، شيخه الضال ذي الشفة المطعونة.

لم أبكِ، فالدموع وحدها لا تكفي، يليق اسم فيلم أيضا، توقّفتُ عن صياغة ما أشعر به على شكل أسماء لأفلام، فأنا أعيش حياة حقيقية ولست امرأة تنتظر أمام شباك التذاكر أو تبحث عن كرسي في صالة عرض.

أعود وأتذكّر أن المدينة علّمتني أن أحجب عن الناظرين مشاعري الحقيقية، وأُصدِّر لهم الغلاف البرّاق، ما يجب أن يشاهدوه. أو ما يودون أن يشاهدوه، أما ما يحدث بالفعل من فوضى داخليّة، فعليّ وحدي أن أتحمّل مرارتها.

اشتقت في هذه اللحظات إلى خزعبلات القرية، البهجة التي تسري في شراييني عندما تصادفني بيضة مكتوب عليها ما يشبه الحروف، كنتُ أقف بجوار خضرا ونحاول إلصاق أي معجزة بتخيل بعض الكلمات، الهاجس بداخلنا هو إعلان أننا أصحاب اكتشاف المعجزة، البحث عن أهمية حقيقية للحياة. أو عندما تقع في يدي جزرة لها قدمان ورأس صغير، أو باذنجانة لها أذنان تشبهان أذنيْ ميكي ماوس المغرفيتين. أعرف أن كل ما أحاول تذكره هو هروب

مما أشعر به، لكن لولا محاولات الهروب لانفجرتْ بداخل رأسي كل شرايين التفكير.

نِمتُ للمرة الثانية خلال أقل من نصف ساعة، لا أدري هل نمتُ بالفعل أم فقط استدعيتُ النوم؟

وصلنا. صعدنا. نمنا.

في الصباح اتصل خالد بأمه وأبلغها الخبر، كانت في حالة مرضيّة لا تسمح لها بمتعة الفرح الكاملة، لم يعد خالد يطلب مِني الذهاب إليها عندما تتردى حالتها الصحية، فقد كان من أهم تعليمات الطبيب عدم صعود أو نزول السلم، لم يكتف خالد بذلك، بل دخل عليَّ في اليوم التالي وفي يده العسكري سعيد البسطامي:

«عسكري سعيد».

يرفع العسكري يده بالتحية ويدب الأرض بقدمه:

«تمام يا خالد باشا».

«تشوف طلبات الهانم. وتسهر على راحتها».

ويدب العسكري الأرض في حركة روتينية:

«أمرك يا باشا».

كان العسكري يهز رأسه مؤكدا على كل ما يقوله خالد، عيناه حمراوان كحبتي فراولة، ونظراته زائغة وحائرة، أخرج له خالد كرسيا خشبيا من الداخل:

«تقعد هنا. تشتري ما تريد من أكل ثم تعود بسرعة».

«حاضر يا باشا».

«لو تأخرت عن الهانم دقيقة واحدة ستُحرم من الإجازة».

«حاضر يا سعادة الباشا».

كان العسكري سعيد في الأيام الماضية يعمل خادما، ولكن يبدو أنه سيعمل في الأيام القادمة حارسا.

***

مرت ثلاثة أشهر وبدأت أشعر بالحركة في بطني، شيء صغير يهمس، ثم أصبح خليطًا بين الوخز والنبض، والعسكري سعيد يشوف طلباتي وفي ذهنه الخوف أن يُحرم من الإجازة. في هذه الأثناء أصبحتْ حماتي مريضة جدًّا وواهنة، لا يتذكرها خالد إلا عن طريق التليفون، مكالمة كل بضعة أيام لا تستغرق دقيقتين، ثُم يعود لما يشغله بالفعل، الجنين الذي ينمو ويعد له الأيام والساعات.

لم أتأثّر بشاعريَّة خالد، اكتسبتُ صفة الجمود من خلال التصرفات المحيطة بي، وكِدتُ أفقد روحي التي كانتْ ترى الجمال في الأشياء. لكني كسبتُ بعض الصفات الجديدة، فهدوئي لم يعد ضعفًا، وصفائي النفسي لم يعد عائقًا لتحقيق ما أريد من مكاسب، في بطني يرقد الولد، ذلك الكيان الذي يلهث خالد من أجل الحصول عليه، ويمكنني ببعض الحِيَل النفسيَّة أن أقنع روحي بأن هذه البذرة لخالد،

فقد وُضِعتا في يوم واحد، في مكان واحد، فما دخلي بكل ما يمكن أن يحـدث؟ هو يحدث من خلالي، نعـم، ولكنني أداة، مجرد أداة، هكذا هم يفكرون هُنا، لماذا لا أبحث أنا الأخرى عن مكاسب؟ فخجلي من الحياة طريقُه مرير. ماذا كسبتُ من الرقَّة؟ ما كسبته كبنت حالمة يمكن أن أخسـره كزوجة. لكن الآن أصبح معـي العنصر الأقوى، الولد، في بطني، إياد، وفي روحي سـخط على كل مـن حولي، أريد أن أجمعهم الآن فـي مصفـاة كبيرة، أعصرهم حتى لا يتبقَّـى منهم إلا ما يعود عليّ بالنفع، النفع المباشر والفائدة الحقيقيَّة. بل أقنعتُ نفسي بأنه لا توجد أيَّة بذور لذلك الغريب، هي بذرة واحـدة لزوجي خالد، فخالد فعلها في وعيي الكامل، أما غير ذلك فهو مجرد شـك، شـيء غيبي لن ينتج وقائع يمكنني تذكرها، وما لا يمكن تذكره من الماضي لا يمكن البناء عليه في الحاضر، فلم يحدث شـيء أصلا في تلك الليلة. ربما غيَّرتُ ملابسـي ونسـيتُ، ذهبتُ لأنام بقميص أحمر يشـبه قمصاني الكثيرة. أحسسـتُ بأننـي مضطربـة البـال، وأن جمجمتي ثقلت فجأة ورأسـي مليء بالحجارة.

انشـغلتُ أكثر بصحتي وجنيني، وقرَّرتُ استخدام مشـاعري لابني القـادم، أقوم مـن نومي ولا أفكر إلا في الطعـام، ظل الوضع على هذا الترتيـب الممل طـوال ثمانية أشـهر، حتى جاء وعد الحيـاة الجديدة، سوف تُصبح حياتي حياتين، وعُمري عُمرين، يفصلهما اثنان وعشرون عامًا.

39

قبل ميعاد الولادة بثلاثة أيام ذهبنا لعمل الأشعة اللازمة، اصطحب خالد معه مصور فيديو، وجّه كاميرته إلى الشاشة التليفزيونية وصور الجنين بعد أن اكتمل وهو يسبح في قراره المكين، وأسأل خالد:

«لماذا كل هذا؟».

يرد وهو يتابع الصورة على الشاشة، يستمع بإنصات إلى صوت تقليب الماء في بطني عبر سماعة جهاز الأشعَّة:

«سوف نعمل فيلما للولد. عندما يكبر سيرى نفسه وهو لم يزل جنينا. كم يبدو هذا الإحساس ممتعا!».

بعد أيام قليلة وضعتُ مولودي، وأصبحتْ بجواري قطعة لحم تنتمي إليّ وحدي دون التأكد من الطرف الآخر المُشارك، اتفقنا أنا وخالد على الاسم، كان من السهل أن أقنعه به، إياد، فقد عقدتُ العزم أثناء فترة الحمل على أن يصبح اختياري هو الذي يمتثل له الجميع.

وقبل أن يكتسي الولد بالملابس، وبعد أن أفقتُ مباشرة من تأثير البنج؛ قلتُ لخالد:

«أنجبتُ الولد دون إجراء العملية كما قال صديقك الطبيب».

«ربنا كبير وقادر».

هل تتشكل قدرة ربنا كيفما نريدها لا كيفما تكون؟

عندما أصبح لديّ طفل مكتمل النمو، له يدان تهتزان فوق فِراشه الصغير، وقدمان تبدلان الهواء بشكل دائم، وعينان عسليتان بلون السكر المحروق، تلاشت من رأسي كل الأفكار السيئة، أخذ هذا الكائن الجديد مساحة كبيرة من اهتماماتي، وأصبحتُ أمارس دوري كأم بمنتهى الرقَّة والحسم، وكأن هذا الدور كان مكتوبا فوق رف افتراضي في مكان مجهول.

في موعد السبوع بالتمام جاء مصور الفيديو نفسه ليُكمِل الفيلم التذكاري عن إياد، كان أجمل ما في حفل السبوع هو وجود أمي وأبي وأخي منصور وخضرا، وأسوأ ما فيه هو مجيء عمي مُختار، الخنزير، والشيخ طه، حفَّار القبور، عندما تأملتُ ملامح عمي وجدته كما تركته في قريتنا البعيدة، أو بالأدق كما أراه منذ وعيت، لا يمر عليه الزمان ولا تشيب له شعرة، أما حفَّار القبور هذا، فكانت عينه الواسعة قد ازدادت اتساعا، وعينه الضيقة تبدو من بعيد كأنها مُغلقة. دفعت الباب عجلات كرسي متحرِّك، فوق الكرسي تجلس حماتي، وبجوارها البواب والعسكري سعيد البسطامي، كانا يبالغان في إظهار الرفق بحماتي المريضة أمام خالد.

جلس عمي على الكرسي الأكبر في الصالة، وإلى جواره جلس الشيخ طه، وأنا بجوار خالد وبيننا إياد، زهرتي المُستقبليّة التي ستعوضني عما لحق بي من خسائر.

عَرَضَ المُصوِّر شريط الفيديو الذي أعده لهذه المناسبة، وبدأنا جميعًا ننتبه للصوت والصورة الآتيين من التليفزيون، إياد يسبح في فقاعة منتفخة ومستديرة، ثم بعض الصور وعمره ساعات، ثم وهو في حُلّة السبوع يبكي ويضحك ويتأمل.

مد عمي يده وسحب طبنجة العسكري سعيد البسطامي، وجه فوهتيها إلى الشباك ورفع يده لأعلى، ضرب طلقتين في الهواء، ثم أعادت اليد البضة الطبنجة إلى مكانها في القايش.

بعد عرض الفيلم وضحك الضيوف؛ قام الشيخ طه ورفع عصا كانتْ في يد عمي مختار، رقص على أنغام أغنية لا أتذكرها، كل ما أستطيع استعادته عنها دق طبل بصوتٍ عالٍ، كانتْ العصا عاجيّة بلون عسل النحل ولها رأس حيّة فاغرة الفم، أمسك الشيخ طه بالعصا ورفعها لأعلى، صنع كل الموجودين له دائرة ليأخذ راحته، الغريب في رقصته هو طريقته التي لا تتناسب مع شيخ أبدًا، ولا علاقة لحركاته بأي ورع أو تقوى تمس القلب، فقد كان يرشق العصا في الأرض بقوّة ثم يضربها بقدمه فتطير في الهواء، يلفها أكثر من عشرين مرّة، بسبب قوّتها كان الناس يبتعدون عنه ويصرخون تلك الصرخات المبهجة، أكثر مَنْ فعل ذلك هو خالد، ثم قام عمي وأخذ منه العصا. سحب

خالد عكّاز أمه الجالسة على كرسيها المتحرك ورماه فالتقطه الشيخ طه، وأصبح في مواجهة عمي مختار، كل منهما يحمل عصاه، وبدأت الرقصة التي كان كل شيء فيها غريبا.

انتصب عمي الطويل المهيب ورفع عصاه، فرفع الشيخ طه عكازه، وأصبحا كمن يريدان أن يلتقط لهما أحد صورة للذكرى، ثم بدأت المزيكا الصاخبة، رمى عمي شاله على الكرسي فطار ومسح وجه أم خالد قبل أن يقع على كرسيها المتحرِّك، وخلع الشيخ طه طاقيته المضغوطة في رأسه، ورماها بقوة فلمست يدي، تقاطعت العصوان في الهواء وبدأ صاحباهما يلفان ببطء وترقُّب، تحرك الشيخ طه كثيرًا في فراغ الدائرة، وعمي يلف حول مركز قدميه دون حركة كثيرة، كان يوفر مجهوده لشيء ما في نفسه. بعد أن غمر العرق الشيخ طه من كثرة اللّف حول العصوين أطاح عمي بعكازه فطار وترنّح في الهواء، ثم استقر بجوار منامة إياد، بينه وبين رأسه سنتيمترات قليلة.

شدَّتْ أمي خضرا من جلابيتها المخروطيَّة ذات الألوان المبهجة، حزَّمتها بشال خفيف من شاش ملون، وبدأتْ خضرا في الرقص، كانت رقصتها على عكس رقص عمي والشيخ، لا ترقُّب ولا تنمُّر ولا تفكير في الغَلَبة، جسدها ناعم انسيابي، رقصتْ قبل أن تبدأ المزيكا، فهي لا تسمع شيئا مما يدور حولها، سارحة طيلة الوقت في عالمها الصامت، بدأتْ من لا شيء حتى وصلتْ لتمايل يخطف الأنظار، كانتْ فلاحة ترقص، جلابيتها من خضرة الغيطان وثغرها كتفتح

الزهور، عودها ملفوف وصلب، خصرها نحيل وفيها كل مقومات خصوبة الحياة، عندما خفَّت المزيكا لم تنتبه خضرا، كانت تقلد البنات، تهتز كما يفعلن، ترتعش وهي تبتسم، أشارتْ لها أمي فأنهتْ فقرتها الراقصة وعلى ملامحها ابتسامة تقف على أعتاب ضحكة، تلمع عينها من الكسوف والفرحة، تقف إلى جوار أمي وتحتمي بها، وكأن من كانت ترقص منذ ثوانٍ إنسان آخر.

اقترب العسكري سعيد البسطامي ومدَّ مع البواب وزوجته موائد الطعام، ظهرت الفرحة على ملامح خالد لا تحتاج لبرهان، وأقصى سعادته كانت عندما رقص الشيخ طه بالعكاز.

بعد أن أكل الحضور وانبسطوا أشار لي عمي مختار:

«فاطمة. أريدك دقيقة».

أدخل غرفة الضيوف وأنا أضم إياد إلى صدري، يسند عمي يديه مجتمعتين فوق رأس الحية، يلف عصاه ببطء:

«حافظي على ولدكِ مهما كان الثمن».

«وما الذي يجعلك تقول هذا الكلام يا عمي؟».

يتلعثم قليلا:

«لا شيء يدوم على حال. فقط أردتُ أن أنبهكِ».

في ذيل عمي مختار يدخل أبي، كان ظهره قد انحنى كثيرًا وأصبح من الصعب حصر الشعر الأبيض في رأسه:

«مبروك يا فاطمة. ربنا يبارك لكِ فيه. يشبهني قليلا».

ثم أخذ يلاعب إياد بشكل طفولي بريء، وأخرج ورقة نقود ووضعها في عب الولد:

خرج أبي ولم يزد، لكن عمي أضاف لما قاله:

«فاطمة. لقد خبرتُ كل شيء. وبرغم ذلك حافظي على الولد، فهو هبة من الله لا تقدر بثمن».

عاد يتكلم بالألغاز مرة أخرى، ما هو ذلك الـ «كل شيء» الذي خبره؟ أخذتني دوامة خفيفة كدوار البحر، جلستُ وأنا أحمل إياد، أضمه إلى صدري، بين ضلوعي، أخشى عليه من سماع أية كلمات حقيقية من كل مَنْ حولي.

اكتملت الليلة بشكل يليق بمناسبة سعيدة، أمي اشترت لإياد حصانا يعمل بالبطارية ويقفز على البلاط، ومنصور اشترى له خاتما صغيرا، أما عمي مختار فقد ترك لي مظروفا به ألف جنيه، لماذا يترك هذا المبلغ الكبير؟ أصبحتُ في حالة تفكير مرنة ورخوة، لا أتوقف كثيرًا أمام الأحداث التي تجري من حولي، أحاول طوال الوقت أن أقاوم نفسي التي تحادثني بأني هُلام بلا روح.

انقضت الليلة، أخذ البواب والعسكري ما فاض من طعام ومشروبات، وعادت الشقة من جديد كما كانت. لم يبق فيها إلا حماتي وأنا وخالد والوافد الجديد، ابننا إياد، أو بالأدق ابني إياد.

40

يذهب خالد إلى عمله، ولا يبقى معي إلا حماتي وإياد، إياد يلعب على كتفي وحماتي تغيرتْ كثيرًا، صحتها في النازل وجلوسها على كرسي متحرك كان يترك في نفسها أثرا سيئا، خف وزنها حتى أصبحتْ نصف إنسان.

عملتُ لها ساندويتش من الجُبن، ولي مثله، تركتها ودخلت غرفتي لأرضع إياد. بعد قليل، وبوهن شديد دفعتْ حماتي كرسيها باتجاه غرفتي، طرقت الباب ودخلتْ، ابتسمتْ ابتسامة سارحة:

«فاطمة».

فتحتُ عيني بصعوبة من أثر الإجهاد:

«نعم».

ترددتْ في تكملة الحديث، صمتتْ ثوانيَ ثقيلة ثم قالتْ:

«هل تذكرين منذ عام مضى، قلت لكِ بأنني أحمل في صدري سرًّا ترددتُ كثيرًا قبل أن أبوح به لإنسان؟».

كنتُ قد نسيتُ بالفعل ما قالته منذ هذه المدة الطويلة، فرفصتُ على السرير وأصبحتُ على استعداد تام للاستماع إلى حكاية تصلح سرًّا تأجل لمدة عام:

«كنتُ قد عزمتُ على ألا أقوله لكِ».

«وما الذي جدَّ؟».

حرّكت حماتي كرسيها ودارتْ في الغرفة ببطء وهي تنظر في الأرض:

«بالأمس أطبق شيء على صدري، ورأيتني في مكان لا أعرفه. وقلت إنني مُتُّ، وعندما استيقظتُ ولمستْ يدي مقبضيْ كرسيَّ المتحرِّك؛ قلت لقد أجَّل الله موتي كي أحكي لكِ يا فاطمة».

لم يعد الزج بلفظ «الله» بين كلمات عاديَّة يرهبني كما كان من قبل، لا زلتُ أرى كلامهم عاديًّا، لم يصبح بعد إلهيًّا.

لكنني بعد أن استمعتُ إليها تمنيتُ أن يُقَص هذا اليوم من شريط حياتي بالكامل، وعدتُ فاستغفرت الله العليم الخبير، فقد كان الأمر قد تحوَّل بالفعل وأصبح إلهيًّا دون أن أدري.

طالما تخيلت أن الأشياء السيئة تحدث للآخرين فقط، الآخرين الذين يبعدون عنا آلاف الكيلو مترات، غالبا يكونون أشخاصا أغرابا، يسكنون خلف الجبال والبحار، تبدد هذا التصور عندما اكتشفتُ الآن أن الأشياء السيئة يمكن أن تحدث لأناس قريبين جدا منّا، ملتصقين بنا، يفصلنا عنهم كرسي متحرِّك أو جدار غرفة فقط.

حافظتُ على ما تبقى في رأسي من حِيَل الخيال كي لا أموت بردا، الخيال يمكنه التنبؤ، استعدتُ سلام عقلي عندما أحلتُ ما قالته أم خالد إلى الظن.

لخَّصت حماتي الحقيقة كلها في جُمل قصيرة. ولكنني عندما استعدتُ هذه الجُمل أجريتُ لها بعض الترميمات حتى تكتمل الصورة.

أثناء جلوسها على الكرسي طلبتْ مِنِّي أن أقترب منها، كان ساندويتش الجبن لا يزال في يدي، ولم تتناول هي طعامها، اقترب الكرسي مِنِّي أكثر مما يجب، ودَنَتْ رأس حماتي حتى كادت تلامس رأسي، فتحت عينها على آخر وسع ممكن، ثم زفرتْ زفرة طويلة، تصرفات من يريد أن يقول شيئا يعرف أنه مهم. من يريد أن يحكي ليزيل عنه هَمًّا، تنقل إلي بعض المعلومات التي رأتها تستحق أن ترتقي لمكانة الوصايا.

بعد أن أسرَّتْ أم خالد لي بما في صدرها تملكني الرعب، أصابتني حالة من الوجوم لا أعرف كيف أخرج منها. نَمَتْ في نفسي الحكاية كما قالتها بالضبط وبدأت أحكيها لنفسي بكل الملابسات والتفاصيل.

بعد زواجها بخمس سنوات كاملة لم تتمكن من الإنجاب، وبعد الكشف عند المتخصصين وضحت المشكلة جليَّة، زوجها لا يمكنه أبدا أن يصبح أبا، تمسَّكتْ به كأي امرأة مخلصة، لم تربط بين مشاعر الأمومة ورغبتها في الطلاق، سارت الأمور بين الود المتبادل والدعاء

بـأن يفرجها الله مـن عنده، فهو الخبيـر ببواطن الأمـور والعليم بفرج الكروب.

إلـى هُنـا والحكايـة عاديـة، وربمـا مُكـرَّرة، حتـى جاء يـوم انتقل فيـه زوجها الرائـد أحمد درويش للعمـل في قريتنا، اشـترى بيتا وأقام فيه لأكثر من عشـر سـنوات، تعـرَّف خلالها على عمـي مُختار، عمي مقـاول كبيـر وله نفوذ، والرائـد أحمد درويش يمكنه أن يُرسـي قواعد هذه النفوذ بسـلطاته المتشـابكة الراسـخة. أصبحـا صديقين، أم خالد وزوجهـا يزوران عمي مُختار فـي بيته الكبير بقريتنا، وهو يزورهما في منزلهمـا بالقريـة، امتدت الصداقة وتداخلت بشـكل سـريع، حتى أن عمي أصبح يذهب إليهما في بيتهما بالألف مسـكن، تعرف من خلال تلك الزيارات المتبادلة على بعض أسـرار أم خالد وزوجها، ومن هذه الأسرار أنهما لا ينجبان، الرائد القوي صاحب النفوذ لا يمكنه أبدا أن يُصبح أبا.

قبـل أن أكمـل مـا قالتـه لي أم خالـد؛ يجب أن أشـير إلـى أن لقب الخنزير الذي أطلقته أمي على عمي مُختار قد أصبح مناسبا له تماما.

كانـت آلة سـرد القصص التي تعلمتها من أبي تعمل بأقصى طاقتها عندمـا أريد ذلـك، لا أدع الحدث يمر بمثل هذه الاختـزالات المُخلَّة دون تدخـل مِنّي، ليس ذلك التدخل الـذي يغير الأحداث، لكن الذي يفسـرها ويحـاول وصفهـا بدقة. الجُمل البسـيطة التي قالتهـا أم خالد كانت كثيفة جدا، لا يمكن أن تمر هكذا مرور الكرام.

في إحدى الليالي البعيدة زار عمي مختار صديقه الرائد أحمد درويش، لم يكن موجودا، لكن زوجته كانت موجودة، رن الجرس ففتحتْ أم خالد، رحّبتْ بضيفها وعاملته بشكل يليق بالكِرام، دخل عمي وأصابعه تقبض على عصاه الأبنوس، يجرجر عباءته الجوخ ويلمها بكفه التي يتوسطها خاتم فضي كبير. وككل النساء ذوات الأصل دخلتْ أم خالد لتجهيز مشروب للضيف، بعد أن وضعتْ كنكة البن على النار أحستْ بحركة غريبة من خلفها، ورأتْ ظِل عباءة يتحرّك في الضوء الخافت، عندما التفتت ظهر صوت عمي واضحًا:

«ممكن أدخل الحمَّام من فضلك؟».

وككل الكِرام أيضا أضاءت لضيفها النور وذهبتْ إلى المطبخ لتُكمِل القهوة. خرجتْ بالصينية عليها فنجانان، وضعتْها وفتحت النوافذ لتجديد الهواء، لمحتْ عمي بطرف عينها وهو خارج من الحمام، كان يُخبئ في طيّات عباءته زجاجة صغيرة، لم تأخذ أم خالد المسألة على محمل الجد، قالت في نفسها ربما هي زجاجة براندي أو ويسكي أو أي شيء آخر من هذا القبيل. خرج عمي مهندما، جلس على الكرسي المُقابِل:

«ولماذا التعب يا ست هدى؟».

قدَّمتْ له أم خالد فنجانه، شرب كوب الماء وقال لها بنعومة:

«كوب ماء آخر من فضلك».

تقوم أم خالد لتُحضر كوب الماء الآخر، ولأن الحقيقة دائما أغرب من الخيال؛ فعندما عادتْ بكوب الماء كان فنجان قهوتها قد تحرَّك قليلا من مكانه، لم تتوقَّف طويلا أمام هذه التفصيلة، جلسْت ومدَّتْ يدها إلى فنجانها وبدأتْ في استطعام الرشفة الأولى، فيما عمي مُختار قد شرب نصف فنجانه، الجو الشتائي كان مدوّخا بعض الشيء. دارتْ رأس أم خالد قليلا، ثم توقفت الحياة عن بث المَشاهد..

هي، أم خالد، نائمة على سريرها، منثورة الشعر، لكن ملابسها مهندمة إلى حد ما، فاقدة لبعض الوعي، وكدمة خفيفة بجوار خدها، أما داخلها فليس كما كان، تقلصات تقرص بطنها ودوخة تلف برأسها، قرصات حمراء في كتفها وفخذها، ليست مؤلمة لكنها واضحة. أفاقتْ وانتبهتْ لنفسها، بالخارج، رأتْ بعض التفاصيل قد تغيرتْ في المشهد، الفنجان الذي كان في يدها واقع على الأرض، مكسور وفتاته منثور، كوب الماء واقع وسليم، وفنجان عمي مختار مائل ويحتفظ ببصمات شفتيه، السجادة ملمومة من أثر جرّ أقدام عنوة، الإضاءة خافتة كما هي، لكن ضيفها غير موجود بالبيت، الباب الرئيسي مُغلق بشكل طبيعي، ومقتنيات الشقة قريبة من ترتيبها القديم، ثابتة في المكان، لكن حماتي لم تستطع تثبيت الأفكار الهائمة في المكان، روحها كانت قلقة.

مرت هذه الواقعة بكل تناقضاتها، لم تفكر فيها أم خالد طويلا، لم تفتح سيرة لزوجها الرائد أحمد درويش. مرت الأيام وهي لا تفكر

إلا في هذه الواقعة ليل نهار، فقد طرأ عليها بعض التغيرات الجسدية، نَضرَ وجهها وتورَّد، وأصبحت تنام نصف اليوم، ثم شعرتْ بدوار، ثم كان كشفًا اعتياديًّا في مستشفى الشرطة ولم يتردد الطبيب في إبلاغ سيادة الرائد أحمد درويش بأن زوجته حامل في شهرها الثاني.

وبدأ المشهد يأخذ أقصى حدود التركيز من أم خالد، فكَّرتْ في كيفية استقبالها للخبر الذي يمكن أن يضفي بعض السعادة المتوقعة على شخص بائس حُرِمَ من الإنجاب طيلة خمس سنوات، ظل الشك يراودها طوال فترة الحمل، ولمَّا أنجبت الولد أسمته خالد، ولما سُئل الرائد أحمد درويش عن العطيَّة الجديدة؛ التي قيل عنها منذ أشهر بأن حدوثها مستحيل، قال بأنها أشياء ربَّانية تتحكم فيها يد الوهاب الرحيم.

دارتْ بي الدنيا بعد أن استمعتُ للحكاية كاملة، وسألتُ نفسي: لماذا اختصتني حماتي بمثل هذه الحكاية؟ ولماذا الآن؟ هل قال لها عمي مختار شيئًا؟ هل عرف بما حدث؟ ثم استجمعتُ قوتي الجديدة وقلت لنفسي: «وهل حدث شيء أصلا؟ انشغي يا فاطمة، شدِّي عودكِ وتباهي بمولودكِ. فلم يحدث من الأساس أي شيء..».

كل شخص قابلته في هذه المدينة الشاسعة يريد أن يودع أمانة من الحكايات مع شخص ما، وهذا الشخص؛ ولسبب لا أزال أجهله حتى الآن، يكون دائما أنا، السيدة العجوز تريد أن أقرأ قصصها وأن أدق لها جرس الإنذار، وكريمة شوقي الصغيرة تُسِرُّ إليَّ بكل مخزونها،

والكبيرة تريدني أن أمثل معها، لا أعرف لماذا، فأنا أضعف من أن أتحمل كل هذا الميراث، أصبحتُ أبعدَ ما أكون عن تصديق مقولة: «إن الأشياء السيئة تحدث فقط للآخرين».

بعد أن أنهتْ أم خالد سرد حكايتها دارت بي الدنيا، كنتُ أظن أنني أنا التي أتحكم بزمام الأمور، أثبتت الأحداث من حولي وهم هذا التخيل، إذ كانت الأمور كلها تلعب بي.

إن كان هناك درس تعلمته خلال المدة التي قضيتها هُنا؛ فهو أن أحدا لا يتعلم شيئا، القصة المُكررة، علاقة مُلتبسة بين أم خالد وعمي مُختار، لم تقل لي صراحة إنها علاقة، فهي لم تره منذ تلك الليلة البعيدة إلا يوم خطبتي، هل يكون قد منحها خالد دون أن يدري؟ هل تكون قد منحته جسدها وهي في حالة وسط بين الوعي والغيبوبة؟

ما هي علاقة عمي مُختار بالنساء؟ لماذا عندما تزوره أمي تكون في كامل زينتها، ثم بعد ذلك تلعنه كلما ذُكِر اسمه؟

هناك نوع من المناجاة عندما أحن إليه أشعر بأنني ذهبت إلى دنيا غير الدنيا، أو بالأدق، انسحبت الدنيا من تحت قدميّ كسجادة، وأصبحت أرفرف في الهواء، بلا أرض.

41

أرهق التفكير ساقيّ، لم تستطيعا حملي، كل ما كنتُ أشعر به حقا هو أنني لا أنتمي إلى هذا العالم بروحي، أما جسدي فليفعلوا به ما يريدون، أخذتُ قطعة اللحم التي تخصني وخرجتُ باتجاه السطح، مرة أخرى يتجوّل في رأسي الشاب الصغير ذو الابتسامة والطاقية البيضاء الناصعة، خالد التخيلي، كم أحتاج إليه الآن بشدّة.

في طريقي للصعود سمعتُ صوت ارتطام قوي تبعه صُراخ، احترتُ، هل أنزل أم أصعد؟ انتابتني فوضى عقلية أوقفت تفكيري، نزلتُ مسرعة، فزعة، عندما وصلتُ إلى الدور الأرضي لمحت عددًا قليلًا من الأشخاص يتحلّقون، ورأيتُ جسدًا راقدًا على الأرض والدماء تنزف من رأسه، حوله بعض زوجات البوابين، وبعض أطفال يقتربون، البنت المسجاة على الأرض لا تتحرّك، والنسوة يصرخن، والأطفال يتابعون الدماء التي لا تزال تسيل على الأسفلت، تأملتُ ملامحها جيدًا، كانت شروق، ابنة كريمة شوقي.

تقدّمتُ الجميع وبين ذراعيّ إياد، مِلتُ على شروق ورفعتُ رأسها لأعلى، كلما فتحتُ عينها كانت تُغلقها بقوة، كأنها لا تريد أن ترى

شيئًا، رفعتُها بمساعدة امرأة أخرى وأدخلناها غرفة البواب. نزلتْ أمها متأخِّرة عن الجميع، كانتْ كريمة شوقي جامدة الملامح متحجرة النظرة، تسير من خلفنا كأنها تنتظر ما نفعله بابنتها ولا تشاركنا فيه. بعد أن نقلنا البنت للداخل وضعتْ أذني على صدرها لأسمع نبض قلبها، كان خافتا وبطيئا، ضغطتُ صدرها بقوة حتى تستعيد التنفس، لم يعطني جسدها أي إشارة أو حركة، لاحظتُ أن اللون الوردي لبشرتها ينسحب، ويحل محله لون الكوبيا القاتم. كان كل همّي أن أُعيد إليها النبض والحياة. قبل أن أهتدي لأي إجابة سعلت البنت بشكل مُخيف، قامت بنصف جذعها وفتحت عينها مرة واحدة ثم عادت في ثوانٍ لسيرتها الأولى، هامدة ومسجاة، وخيط من الدم يسيل على جانب شفتها، تكوّن السيل وصنع ما يشبه زهرة صغيرة قاتمة على رقبتها، ثم هَمَد جسدها بشكل كامل، حاولتُ بكل استطاعتي أن أعيد الدفء لجسدها، قبّلتها ونفختُ في فمها بكل قوتي، ضغطتُ على صدرها ولم يستجب للنهوض ولا ملي واحد، كانت البرودة تجتاح جسدها، والزرقة تمتد من أسفل إلى أعلى.

انفض عنها كل من تجمّعوا، لم يبق بجوارها إلا أنا وأمها، كريمة شوقي، وصغيري الذي يبكي على كتفي. بعد أن تأكدت كريمة أن ابنتها فارقت الحياة بدأتُ أرى دموعها تلمع، تضع خطين يجرفان الكحل، للحظة، هُيئ لي بأنها تقوم بتمثيل دور ما، ولم ألمح الرجل الأصلع الطويل بجوارها.

تركت المشهد بالكامل وصعدت، وقبل أن أفتح باب شقتي سمعتُ صوت جارتي العجوز تناديني:

«فاطمة».

وقفتُ على بابها وأنا أحاول الاعتذار عن الدخول، لكن المرأة المُسنَّة أصرَّتْ، قلتُ لنفسي لن أبقى عندها لأكثر من عشر دقائق. كانت المرة الأولى التي أدخل شقتها ومعي إياد، لاطفَته بيدها المتعبة وهزَّت وجنتيه:

«بنت كريمة شوقي. أليس كذلك؟».

«نعم. هي».

«كنتُ أعرف بأن نهايتها قد اقتربتْ».

جلستُ ووضعت إياد في حِجري:

«كيف كنتِ تعرفين؟».

قالتْ وهي تحضر عدَّة القهوة:

«ما دامتْ تعلَّمتْ صعود السطح..».

ثم صمتتْ كمن تنتظر تدخلًا إلهيًا يثبت صحة كلامها، أشعلت السبرتاية، تأملتُها وكنتُ أفكر في أشياء أخرى، كانت تكسو فمها الوقور تعبيرات طفولية، سمعتُ صوتها يتقاطع مع أفكاري:

«وهل بعد السطح شيء إلا الهاوية يا فاطمة؟».

وأرَكِّب كلامها على تصرفاتي، فأنا أيضا أصبحتُ أصعد السطح في الآونة الأخيرة كثيرًا:

«كل امرأة يا ابنتي لديها صورة في رأسها عن رجل فيه كل الصفات الحُلوة».

«ولماذا لم تتحقق دائما هذه الصورة؟».

قلَّبت البُن ببطء:

«ربما كانت هذه الصورة هي المتسبب المباشر في جميع الكوارث يا ابنتي».

وتدور رأسي في دوامة، تمر أمامي تأملات عصيّة على الفهم، أتوقف عن الحديث حتى تُقدِّم لي فنجان القهوة، أرشف منه ثم أعاود الكلام:

«كيف تكون صورة الصفات الحلوة سببًا في الكوارث؟».

تعود بجذعها إلى الوراء وتزفر:

«لأن هذه الصورة غير موجودة إلا في الخيال فقط. ومحاولات المقارنة دائما تبوء بالفشل. لقد حدثتكِ من قبل عن سبب عزوفي عن الزواج، وقلت بأنه الخوف من الوحدة. كنتُ أكذب عليكِ يا فاطمة».

رشفتْ من فنجانها:

«فالكـذب صفة الكائنات الأرضيَّة، أما الكائنات التي تسـكن فوق الأسـطح فهي لا تكذب أبدًا. دائما صوتها منخفض ومجالستها لطيفة ورائحتها مسـك. لماذا كنتُ أكذب عليكِ؟ لأن السـبب الرئيسـي في عدم زواجي حتى الآن هو تلك الصورة التي لا تفارق خيالي. الشخص الذي يتجول هُنا».

وأشارت إلى رأسها:

«وينام هُنا».

وأشارتْ إلى أعلى صدرها:

«لـن تصدقينـي يا فاطمة لو قلـتُ لكِ بأن رَجُلي الخيالي لا يشـيخ أبدًا، لا يزال دائما شابًا. فالخيال لا يتأثر بالزمن».

قامتْ بصعوبة، وقفتْ أمام صورها المُعلَّقة على الجدران، أشارت إلى إحداها، انعكس ظل إصبعها بسبب الضوء الضعيف على البرواز، كان يضم شابا في حدود العشرين:

«قريب الشبه من هذا. لكنه أجمل بكثير».

«من؟».

«الرجل الذي يسكن رأسي يا فاطمة».

أنهيتُ فنجاني ووضعته على المنضدة:

«أنـا لا أهـوى جمع الصـور القديمة كمـا قلتُ لكِ مـن قبل. كنتُ أبحـث عـن الصورة التي فيهـا كل الصفات الحلوة. ولـم أجدها حتى

الآن. لكن الفرق بيني وبين بنت كريمة شوقي أنني أضع حدًّا فاصلًا بين واقعي وخيالي كي لا أُجَن أو أقتل نفسي».

صمتتْ قليلًا:

«أو.. ربما أقتُل أحدًا».

«تقتلين؟»

«مثلما فعل سيد حافظ؟»

«مَنْ؟»

«الرجل الذي تمرّين عليه كلما خرجتِ من بوابة الحي»

وأنتبهُ بعد استراحة ذهنية قصيرة، فقد أخذ مُخي طريق الرخاوة بسبب الإجهاد المتواصل:

«المجذوب؟»

كان رأسي مثقلا بالحكايات ولا أريد المزيد، لكن جارتي أصرت أن تحكي وتضيف أعباء ذهنية لا وقت لها بالمرَّة. لا أجد دافعا قويا يجعل شخصًا مُجهدًا إلى حد الإعياء يقف ليستمع لمأساة شخص آخر، لسبب لا أعرفه، كانت آلة التفسير تعمل الآن بطاقتها القصوى، فربما كان دافعي الوحيد الذي جعلني أكمل الاستماع هو البطل، بطل الحكاية، ذلك الرجل الذي ارتضى لنفسه أن يكون خارج جميع الحسابات الزمنية والعقلية، كانت صورته قد بدأت تشحب وتنزلق

إلـى المنطقة السـلبية فـي مُخي، كيـف يمكن أن تكون لـه حكاية مثل الناس الواقعيين؟ بعـد أن أتمت جارتي حكايته لـم أصـدقها، ليس لأن عقلهـا الواهن أضـاف بعض المبالغات، لكن لأننـي كنتُ أود لو يظل في منطقتـه الآمنة، بعيدا عن تصاريف الزمـن وملوثات الحياة، مجرد مجذوب صامت وطيب.

كان الرجـل طبيعيا جدا مثلنا، تقول جارتي، بل كان يسـكن بشـقة كبيرة في حي الزهور، مثلي ومثل كريمة شـوقي، يعمل بمطار القاهرة القريب من الحي، يقف في برج مراقبة الطائرات، يظل لساعات طويلة لا يكلـم أحدا، لم يكن بطبعه كثير الكلام، فيتحول صمته طوال اليوم إلـى صخب ومشـاجرات مع زوجته التـي لا تتحمَّل الصمـت لدقيقة واحدة. ظلَّت وتيرة المشـاجرات تنمو بينهما يوما بعد يوم، حتى غاب ذات صباح عن عمله بسبب تأخره، وكان تأخره بسبب زوجته، عاتبها فنهرتـه، دفعها فسبَّته، هددها بالضرب فحاولتْ خنقـه، تحول صمته إلى غضب داخلي لا يخرج على هيئة كلام، بل انفجارات صغيرة تنمو سريعا، تُشكِّل كُرة غضب كبيرة في ثانية.

استـل أكبر سـكين في المطبخ وطعنها عشـرين طعنـة. «كيف لهم أن يعـدّوا مثل هذه التفاصيل الدقيقة المرعبة؟» أسـأل نفسـي وتُكمِل جارتـي، ثـم جلس بجـوار جثتها بعـد أن أبلغ الشـرطة بمـا فعله. بعد القبـض عليه باع أبوه قطعة أرض يمتلكهـا وأعطى ثمنها كاملا لمحام كبير، دبَّر المحامي ملفًّا مُحْكمًا يشـكك في قُوى سـيد حافظ العقلية،

أقام بمستشفى العباسية قرابة عام، حُجِزَ في القسم الاقتصادي مدفوع الأجر، ولمّا أعجبه الحال بالداخل رفض الخروج؛ لأنه لا أحد يطلب منه الكلام، لكنهم طردوه بعد أن توقفت يد الأب عن دفع القسط الشهري للمستشفى، ومنذ ذلك اليوم وسيد حافظ رابض عند بوابة حي الزهور، عند تخوم الماضي يقف ولا يريد التزحزح أبدا.

لم تكن حكاية السيدة العجوز مثيرة، لكنها على الأقل أعادت الرجل إلى الحياة، أعطته اسمًا وفعلاً ورسمت له قصَّة.

طالما سألتُ نفسي: «لماذا يحدثونني كثيرا عن تجنب القتال؟ ألم يقل أبي مَنْ يخاف وقوع شيء فلابد أن يقع؟».

أصبحتُ كالسائرة أثناء النوم، فيما تُكمِلُ جارتي حديثها وترشف من فنجان قهوتها:

«لا تخلطي بين العالمين يا فاطمة كي تمر حياتك على خير. هذا ما وددتُ أن أقوله لكِ».

ودّعتني السيدة العجوز وهي تبتسم، حاولتُ أن أقرأ ملامحها كي أستريح من الهموم فلم أستطع، منعتني الخريطة والتقاطعات المحفورة بقسوة على وجهها.

أشارتْ لي بكفها، وقبل أن أفتح باب شقتي سمعتُ صوتها واهنًا:

«لا تفكري كثيرًا يا فاطمة في الوصول إلى الحقيقة. فالحقائق ليست دائما عظيمة».

دخلتُ شقتي، تجاوزت حماتي بكرسيها المُتحرِّك، وقفتُ في البلكون وإياد لا يفارقني، لا أرى حوض السمك ولم أعد أهتم بإطعامه، والعصفور الذي آل به الحال وحيدًا في القفص لم ألتفت إليه، حتى حماتي القعيدة كأنها غير موجودة معي بين أربعة جدران، أتابع فقط المارة، كانوا يسيرون تائهين، تمنيت لو أنزل إليهم وأهزهم ليستفيقوا، تمنيتُ لو أصرخ فيهم وأقول لهم: هناك إنسانة ماتت بينكم، ماتتْ وأنتم لا تعلمون.

42

الرغبة في فضح النفس وكشف أسرارها، في كسر كل القيود، الرغبة في نزع كل ما أسدِلَ على نفسي الطبيعيَّة من ملابس زائدة، حزمة من الرغبات التهمتني في تلك الليلة، ولمحت الحبل الكتان ذا العُقد متدلّيًا من البلكون، يؤرجحه الهواء أمام عيني، يذكرني بأفلام عشماوي وعواء الذئاب الليلي. هل أرادتْ شروق أن تنزل إليَّ فخانتها أعصابها وسقطتْ؟

وأحضن إياد، إياد هو الحقيقة الوحيدة التي أنا متأكدة منها، جزء مِنّي، كنتُ واعية وهُم يسحبونه ليترك بطني من بعده خاويًا، يظل وجع الفقد بعد ذلك ما تبقى من العُمر، أريده أن يكون قريبا من بطني بشكل دائم، بيته الأول.

بدأ اللبن يضغط على صدري، ألقمت طِفلي طعامه، ثُم سرحتُ في دنيا الله مدة لا أعرف مقدارها، رأيتُ بعدها العسكري سعيد البسطامي يضحك وهو يفتح الباب، سمعتُ صوته «تفضَّل» ثم غاب عن المشهد، قمتُ وولدي ملتصق بصدري، رأيته يدخل وكأنه في بيته، بلا استئذان أو سماح حتى باجتياز الصالة، كان الطارق هو الشيخ طه.

كالمجرم الذي تعوَّد الحومان حول مكان الإثم، جاء تحت دعوى البحث في ملفَّات المقابر، وكان خالد يُصدقه في كل ما يقول. والرجل نفسه ينظر إليَّ نظرات مُريبة، كلما حاولتُ اعتباره ماضيًا نط وقفز إلى الحاضر بشكل مقزز ومُثير. عندما دخل كنتُ بمفردي، إذا اعتبرتُ أن إياد لا يُحسب في العدد. كالعادة ترك أوراقًا في دوسيه أصفر، كرهتُ اللون الأصفر بسبب تراكم الدوسيهات بذلك اللون، وكلها عن حسابات القبور:

«تعالي يا أم إياد. اجلسي بجواري».

طلب غريب، لم أكن أفكر فيه بقدر ما كنتُ أفكِّرُ في العسكري سعيد البسطامي، كيف سمح لذلك الرجال أن يدخل الشقَّة بمثل هذه السهولة؟ لم أجلس بجواره، بل لم أجلس أصلًا، وقفتُ قريبة من الباب، ولكن ملامح العسكري كانت غريبة، يبتسم بغير سبب. اقترب الشيخ طه من اللفَّة التي تنبض فوق صدري، إياد، مال وحاول ملاعبته، ثم رفع يده الصغيرة إلى فمه وقبَّلها، كانتْ رائحة أنفاسه وعضلاته تعبق بالعرق، طلب مِني أن ندخل الغرفة معًا، لطمته على وجهه، فقال: «هيا بسم الله نبدأ» كيف لهذا اللسان القذر أن ينطق بلفظ الجلالة؟ «ابتعد يا أنتن الأنفاس» قلتُ في نفسي ولم يبتعد، بل اقترب أكثر، والعسكري سعيد ينزوي خلف الباب ويضحك، في هذه اللحظة بالذات حاول إغلاق الباب وهو بالخارج، كيف يجرؤ أن

يفعل هذا؟ هل يحرسني أم ينتهكني؟ لماذا يتركني فريسة للشيخ طه بكل هذه السهولة؟ وأين ذهبتْ حماتي بكرسيها المُتحرِّك؟

* * *

عرفتُ بأنني رحتُ في غفوة قصيرة عندما تعلّق إياد بحلمتي وعضَّها، وجدتُ نفسي لا أزال جالسة على الكرسي كما أنا، حماتي تتأمل الزرع في البلكون، توقفتُ أمام شجرة ياسمين وجسَّتها بأناملها:

«هذا ياسمين كاذب».

«ياسمين كاذب؟».

«نعم، من أكثر الزهور التي تُباع هُنا».

وقبل أن أكمل حديثي سمعتُ طرقًا على الباب، فتحت فكان العسكري سعيد، لابد يريد دخول الحمام أو يرغب في شرب كوب شاي، دخل يقدم رجلًا ويؤخر الثانية:

«الشيخ طه بالخارج يا هانم. هل أسمح له بالدخول؟».

وأتذكر الحلم:

«لا».

ينتبه العسكري ويحملق في الأرض، فأستعيد وعيي وأقول له:

«دعه يدخل».

ويدخل بالفعل الشيخ طه، لم يكن في يده دوسيه أصفر، لكنه ترك ورقة في مظروف صغير:

«هذه الرسالة تصل إلى خالد باشا في أقرب وقت يا هانم».

قال وعينه في الأرض، كأنه يكلم حذاءه، لأول مرة لا تُخيفني نظراته. ترك الرسالة وانصرف، لم تتابع أم خالد ما يحدث، انصرف الشيخ طه والعسكري وظللتُ بصبحة إياد وهواجسي، كانت الرسالة مُحكمة الغلق، راودتني نفسي بأن أعرف محتواها، تركتُ إياد في حِجر حماتي ودخلتُ إلى المطبخ، علمتني الأفلام القديمة بعض الحيَل، سخَّنتُ قليلًا من الماء في كنكة صغيرة، وعندما علا البخار وحام فوق الفوّهة مرّرتُ الجزء المُغلق من الخطاب، كنتُ حريصة على ألا يبتل من البخار، أقربه وأبعده بسرعة، عندما لانت الورقة وارتخت ساحت المادة التي تلصقه، فتحتُ الخطاب على مهل وأخرجتُ محتواه، فردتُ الورقة بأصابع مرتعشة، لم أجد فيها إلا ثلاثة أسطر: «خالد. منذ فُصِلتَ من العمل بالشرطة وأنت تحت أعيننا. نعرف بكل ما تفعل ونتركك برغبتنا لأنك تُسهِّل لنا بعض الأمور. يكفيك توسعة مشروع المقابر بمساحة خمسة أفدنة إضافيَة. ولو أنك أصررت على التوسعة الجديدة بخمسة أفدنة أخرى فلا تلُم بعد ذلك إلا نفسك».

لم أصدق عيني والكلمات، منذ متى وخالد مفصول عن عمله؟ قبل الزواج أم بعده؟ هل هو وحفار القبور مجرد موظفَين فاسِدَين

تم فصلهما للأسباب نفسها؟ عشرات الأسئلة طرقتْ رأسي والورقة في يدي، وضعتها داخل المظروف وأنا سارحة في كل ما حدث لي، أكدتُ على اللاصق وأعدت المظروف كما كان، وضعته في درج الكومودينو وخرجتُ إلى حماتي وإياد. حماتي نائمة وإياد لا يزال راقدًا في حِجرها.

عاد خالد من الخارج، فكرت قليلًا، هل أعطيه الخطاب أم لا؟ وفي النهاية قررتُ تسليمه له.

عندما أخذه من يدي كانت نظراته توحي بأنه عرف ما فعله البخار بمظروفه، فتح اللاصق وقرأ، بعد أن انتهى وَضَعَهُ في جيبه ولم يتكلَّم، حاولت كما عودتني العيشة هُنا كتمان ما أشعر به، لكنني لم أستطع:

«ممن هذا الخطاب يا خالد؟».

تلعثم قليلا:

«من العمل. الوزارة. أقصد من المديرية».

قالها ثم انصرف من أمامي بسرعة، أعطاني ظهره، قلتُ له قبل أن يقترب من غُرفته:

«أنت تكذب يا خالد».

تسمَّر في مكانه، ولم يلتفت:

«هل قرأتِ الخطاب يا فاطمة؟».

«قرأته».

اقترب مِنّي وصفعني، كانت المرَّة الأولى التي يفعلها، لم أشعر بالإهانة بقدر ما شعرتُ بأني تائهة، عند هذه اللحظة بالذات تمنيتُ ألا يكون خالد موجودًا في الحياة كلها، وداهمتني رغبة مفاجئة في رد الصفعة، خانتني شجاعتي، تعوّدتُ منها في الآونة الأخيرة على ذلك. قطع حبل تفكيري صوت الكرسي المتحرّك، تجلس عليه حماتي في نصف غيبوبة، تائهة عن عالمنا وتتفوّه ببقايا كلمات لا توضِّح أي معنى.

43

سجادة سلم بالية، تُمسحت عليها أقدام العابرين، أثناء أصابني إحساس بأنني حيوان رقيق التكوين، لم تمنعه رقته من الشعور بوحشيته الكامنة في أعماقه، وأيضا لم تمنحه المعاملة اللائقة من الآخرين، صرخاتي الداخلية لا يكترث بها أحد، فهي بلا صوت ظاهر، والناس لا يشعرون إلا بمن يُكلمهم.

جلسنا حول قفص العصفور الوحيد، أنا وخالد:

«أريد أن أريح أعصابي»

يهز القفص بعنف ولا يرد، يتأرجح الطائر المنهك وتتشبث قدماه بسلكة رفيعة لا تضمن له التوازن، آملا أن يستقر بيته الصغير على حال، وأعيد على مسامع خالد ما قلت من قبل:

«سأذهب إلى البلد أسبوعًا أو اثنين حتى تستريح أعصابي وأهدأ».

«أنتِ التي تحتاجين الراحة؟ لقد أتلفتِ أعصابي وأظلمتِ حياتي».

نظرتُ للعصفور من بين الأسلاك، تابعتُ تشنجاته وخوفه، كان يرتعد كأنه تحت المطر والريح، بعض الكلمات يُعَد التفكير فيها خطرا، أقل ما يمكن أن تفعله هو الهوان والضعف، وأنا أكره ذلك الإحساس. عاد الحوار بيننا كشريط سينمائي صامت وقديم، تكسو ملامحنا تعبيرات دون التلفظ بمعناها، حاولتُ أن أعكس شعورا وهميًّا بعدم الاكتراث، سبب لي ذلك نخسة ملحوظة عند أعلى صدري، ثم بدأت دقات قلبي في التسارع، ودون أي مقدمات لم أعد أشعر بقلبي نهائيا، يُهيَّأ لي أنه طُرِد من جسدي.

حملتُ إياد ودخلت غرفتي، أجلسته على السرير الذي وُضِعت فوقه بذرته، كنتُ أتأمله وأفصل ما أخذه من ملامحي، ثم أطرح ما تبقى منه وأبحث عن الطرف الثاني المُشارك، لم أتوصل لإجابة، ولم يخبرني أي فيلم عن النهاية اللائقة، فجميع الأفلام التي شاهدتها كان المذنب فيها ينال جزاءه قبل النهاية بقليل، لكن يبدو أن الحياة الحقيقية بعيدة عن الأفلام، مثلما كانت طوال أربع سنوات مضت بعيدة عن الأحلام.

خرجتُ وإياد أحمله فوق صدري، لم أجد خالد ولا العسكري، نظرتُ من البلكون فرأيت السيارة اللادا التي يقودها الشيخ طه، تحركت بثلاثتهم وتركتُ حي الزهور.

لفني دوار وكدتُ أسقط، لم أتذكر متى كانت آخر لقمة وضعتها في فمي، وما هي آخر مرة نمتُ فيها بعمق؟ ولا أتذكر متى فكرتُ في

معدتي أو راحة بدني، أشعر بما يشبه الألم في أنسجتي الداخلية، ألم فيه نشوة وخدر.

يدفن إياد رأسه في صدري، يلقم طعامه فيزداد خدري. وتخرج حماتي بكرسيها المتحرك، تلف عجلتيه ببطء ووهن، تنظر لإياد المتعلق بصدري:

«خالد. لا يذهب أين في زمن منذ المكان. وهو قهوة»

أستمع جيدا لكلماتها، أنصت فتعيد ما قالته، ولا مرة تستطيع نطق جملة لها غرض يُفهم، أعيد ترتيب الكلمات في رأسي حتى أستوعبها، ربما كانت تقصد «أين ذهب خالد قبل أن يشرب القهوة؟» أشفق عليها وأربت على كتفها، كانت تضحك وتُسر عندما تشعر بالأمان، تُحرك كرسيها في الاتجاه المعاكس وتمضي مثل حلم قصير.

لو لم يتلف مخها، لو لم تفسده بقعة دم عابرة أرادت أن تستريح من الدوران فجأة؛ كنتُ الآن سأحكي لها وأشتكي، لم أعد أحتملُ وحدتي، أريد الآن وأكثر من أي وقت مضى أن أعود إلى قريتي، نبعي الذي أعرفه، ينتابني شعور دائم بأنني أصبحتُ ملفوظة، كان هذا الإحساس يطمس ما تبقى من محاولات تماسكي الواهية، مقاومتي تتكسّر، أصبحتُ مثل الأطفال عندما يختزنون في ذاكرتهم بعض المواقف الصلبة لتكتسب حياتهم المناعة اللازمة.

وعدت أبحث عن رفيق يتحمل معي ما أنا فيه، هل أتصل بأمي؟

وفيمَ يفيد وجودها معي؟ لابد سترسل شخصًا يخاف منه خالد، وهل يوجد غيره نخاف منه جميعًا؟

اتصلتُ بالفعل:

«أمي أنا تعبانة جدًا».

لم يستمر حديثنا طويلًا، لم أوضح لها حجم المهانة التي وصلتُ إليها مع خالد، كانت مكالمة مقتضبة، تحدثتُ معها عن الملل والوحدة، وكما هو منتظر؛ ردت عليّ بالأسطوانة المتوقعة، الصبر والصلاة. وضعتُ السماعة وأنا أسأل نفسي: «هل فهمت أمي مقصدي؟».

بعد ساعات قليلة، وقبل أن ينتصف نهار اليوم حضر أخي منصور، أرسلته أمي مندوبًا عن أبي أخفّ حركة، كانت علامات الرجولة قد بدأت تنحته ويتشكل شابًا يملأ العين، لكن المسافة بيننا أيضًا كانت تبدو شاسعة، إذ بدا شابًا في مقتبل العمر وأنا في منتصفه. حكيتُ له عن كل ما يؤرقني، لم أقل له بالطبع كل شيء، لكن منصور غاب ساعتين بالخارج ثم عاد، جذبني من يدي ودخل بي الغرفة، أخذ يبحث عن الكلام قبل أن يقول:

«أنا لا يهمني ضابط ولا غيره. من يُهِنْ أختي ويضربها لا يستحق أن يعيش. سأخلصك منه».

ثـم مد يده في جيب بنطلونه وأخرج مطواة جديدة، ضغط على زر فـي بطنهـا فخرج منها نصل يلمـع، كانت المرة الأولـى التي أرى فيها مطـواة مثـل هذه، والمـرة الأولى أيضا التـي أرى فيهـا منصور يحمل سـلاحا. تلبّسـتني روح أمي ولا أعـرف كيف، تلفظـتْ بجُمَل منقولة حرفيـا عن لسـانها، أخذتُ أهدئ من روعـه وأطمئنه بأن المسـألة لم تصـل أبدا إلى هذا الحـد، فخالد زوجي ارتكب بعـض الأخطاء لكنه لـم يرتكب جريمـة، وفهم منصور من كلامي أنني أدافـع عنه أو أحبه، وعدت أصارع الكلمات حتى تستطيع أن تعبر عمَّا بداخلي، فشكواي لأخـي سـتدفعه لأن يصبـح قاتلا، ومحاولـة تنحيته عن هـذه الحماقة فُهِمت حبا لخالد، كرهتُ الكلمات وابتلعت أحزاني في صمت.

خرجـت حماتي تحرك كرسـيها بصعوبـة، لم تتعرف على منصور، تفوهـت بكلماتها غيـر المترابطة ثم وقفت تتأمل جـدارا خاليا من أي صور أو براويز، اعتبرتُها غير موجودة.

دخلـتُ ونبشـتُ دولاب ملابسـي، بحثـتُ عنه حتـى وجدته، تاج السـنديان، وضعتـه فوق رأسـي وهيـأتُ نفسـي للجري أمام منصور كـي تتركه تلك الروح العدائيـة الغريبة، لكن منصور لم يلحق بي، فقد كنتُ أحمل إياد وأمشـي ببطء، وكانـت ملامح منصور قد بدأت تأخذ تدريجيا هيبة الرجال:

«لماذا لا تجري ورائي يا منصور؟ أنا فاطمة التي كانت تلف القرية معك وتركب من خلفها البوصة».

يبتسم منصور بجانب واحد من فمه، يُقبّل إياد ويخلع التاج عن رأسي ويضعه فوق رأس رضيعي، يخرج ورقة نقدية ويضعها في عب إياد، ثم يهمّ بالانصراف:

«كنت أتمنى أن أراه. لكن يبدو أن ربنا رحمه من يدي».

تبدو الكلمات التي يقولها كبيرة جدا على ملامح لم تودع البراءة بشكل كامل، وعدتُ أفكر بأن الأشياء السيئة لا تحدث فقط للآخرين، فنحنُ نعتبر آخرين في مكان غير هذا، لذلك تحدث لنا الأشياء السيئة نفسها.

ينصرف منصور ولا ينصرف طيفه، هذا الولد المفعوص أصبح يتحدث مثلهم، مثل الرجال الكبار، جدية خشنة لا تليق مع طفولته التي لا تزال واقفة على مرمى الخيال، كيف تحدث مثل هذه التغيرات للناس دون أن تطالني؟ هل العيب فيمن يتغيرون بسهولة أم فيمن يعاندون فيتوقف بهم الزمن في محطة نائية وثابتة؟

«أين فاطمة يا خالد؟»

صوت حماتي يتهادى متقطعا من خلفي، أضعُ إياد في حِجرها وأدفعُ الكرسي صامتة باتجاه غرفتها.

44

مصابيح أعمدة الشوارع في الحي يظللها الوَسَخ، تنكمش إضاءتها وتنعس، كأنها من مخلفات أحلامٍ قديمة. نامت حماتي على كرسيها، فرفعتُ إياد من حجرها ووقفتُ في البلكون، أخذت أحدد مكان الحبل الذي كانت شروق تنزل عليه، هُنا كان، أم هُنا؟ أسترق السمع إلى وشيش طائرة تغادر المطار أو في طريقها إليه، وأرقب السماء باحثة عن أجسامٍ فضيَّة مضيئة تعبر الفضاء.

لا رغبات يحملها الماضي بداخلي للمستقبل، بل لا أشعر أن هناك مستقبلًا، فقد أصبح أقصى طموحي هو أن أنال عذابًا روحيًّا أقل، لا أن يزول العذاب بشكل نهائي.

كنتُ أهرب من التركيز، لا أستطيع الفصل بين أفكار أصيلة وأخرى عابرة، لا شيء يقود حياتي إلى طريق واضح، أو كما يقولون في صفحات الحوادث، اختلتْ عجلة القيادة في يدي.

راحت بعض مناوشات صغيرة هدَّامة تنخر نفسي وتدفعني للهروب من هُنا بأي ثمن، فكرت أن أعود إلى قريتي، دون موافقة خالد، فقد تجاوز كلٌّ منَّا خطَّه الأحمر، صارحته بفشله وضعفي، لم يعد بيننا من

الود ما يشجعني على توخّي المحاذير، لكن بقيتْ حماتي عقبة، كيف أتركها مع العسكري؟ فهو رجل، لن يستطيع تلبية احتياجاتها، ولن يفهم لُغتها الجديدة.

عشرات الاحتمالات تضرب رأسي، كلها مرتبطة بمحاولات تسوية الأمور، فكل ما يحدث يمكن اعتباره مقدمة لحياة حدثت بها بعض الشروخ والجروح. لا أحد في الدنيا يعيش نقيا طوال الوقت. وخالد بشر، وقبل أن أنجر في هذه السكة توقفت الاحتمالات في رأسي، فقد سمعتُ صوت جرس الباب، هل عاد أخي منصور بعد يوم واحد من مغادرته؟ هل عاد خالد مع شيخه الضال وسيخططان لمشاريع مستقبلية جديدة؟ لم أعد أهتم بتصوراتي عما سيحدث بقدر ما أصبحتُ أنتظر حدوثه كأنه أمر لا يعنيني، لم يتركني الخوف بشكل نهائي، نظرتُ أولا من العين السحرية كأي شخص واقعي، رأيته. العباءة الجوخ والسبحة معلقة في معصمه، ما الذي أتى به الآن؟ عمي مختار. فتحت الباب، أعطاه العسكري سعيد تحية عسكرية مرتجلة ورخوة، اقترب عمي مني وقبّل رأسي بأبوة، دخل وجلس، أمّا سجّاني، العسكري سعيد البسطامي، فقد أغلق الباب علينا وظل بالخارج:

«منصور قال لي ما حدث معكِ من تجاوزات. وذلك لا يرضيني».

متى قال له منصور ذلك؟ سواد الليل فقط، هل تباحثا بخصوصي وأنا فقط نائمة في خيالات وشطح؟ لماذا حضر عمي وحده؟ هل هو وكيل دائم عن أمي وأبي وأخي؟ باغتني إحساس مقامر يوهم نفسه دائما أنه سيعوض خسائره في اللعبة القادمة.

اهتز بطنه الكبير قبل أن يقوم ويقترب مني:

«فاطمة. لو لم ينصلح حال خالد فسوف أطلقكِ منه».

كان عمي يتكلم بطريقة من لا يريد أن يلوث نفسه بدنس الواقع، كمدير كبير يتحدث عن عامل ضئيل الشأن، وتحدثني نفسي الأمّارة بكل صنوف الشر والأذى، لو طلقني عمي من خالد، هل أصبح مجرد مطلقة تحمل طفلا؟ وعندما أتزوج من غيره فمن ذا الذي سيُزوِّجني؟ أليس عمي مختار؟ هو الذي سيختار لي عريسا كما حدث معي منذ أربع سنوات ومع أمي منذ اثنين وعشرين عاما؟ تساوت كلماته لأول مرة، أصبح قوله مثل صمته، في جميع الأحوال هناك شخص قوي لا يمسسه الباطل من أي اتجاه، وآخر ضعيف مثل عصفور في قفص، ولن تتغير المعادلة أبدا.

بصعوبة، وضع عمي ساقا على ساق، ثم تذكر أنه لم يُخرج علبة دخانه، أنزل ساقه وسحب العلبة، أخرج سيجارة ولفَّها، بصق فتات ورق من بوز السيجارة ثم أشعلها:

«هناك من ليس لديهم عم».

«طبعًا».

«احمدي الله».

«الحمد لله».

«ماذا سيفعلون من يواجهون الحياة بلا عم؟».

ولم أرد، فكل ما أفعله منذ أن جئتُ إلى هُنا أنني أحمد الله، لكن ذلك لم يهذب من تصرفات خالد، ولم يمنع الضُّر من مسّي وتلويثي. كل مَن حولي أصبحوا يشبهون بائع يوسفي يغرس فوق عربته غصن برتقال مورِقًا؛ فقط ليضفي عنصر الطبيعية على بضاعته أمام الزبائن. الكلام الكثير لمن حولي أصبح بلا معنى، حتى هذا الرجل البدين الذي قالوا لي بأنه أخو أبي، والذي أقنع نفسه بتكبُّد سفر طويل ليحل لي مشكلة. لا يدري بأنه الآن يصنعها، لو كنتُ أملك الشجاعة على نحوٍ أفضل لقتلتُ عمي الآن. قتلته؟ هل قلتها؟ وهل هناك أسباب كافية لأن أقولها؟ هل فعل عمي مختار ما يستحق عليه القتل؟ لقد تراجعتُ عنها، عادت الكلمة إلى حيث جاءت، مجاهل المخ المظلمة، ليس بسبب نقاء عمي المُحتمَل، لكن بسبب شجاعتي الناقصة.

ظل عمي يتكلم حتى انسدت قنوات الإنصات بداخلي، فأصبح كتليفزيون انتُزعت عنه السماعات، خرجت حماتي ولمحته، نطقت اسمه بشكل عابر ثم غادرت المكان، وظل عمي يتكلم ولا أسمعه، لم يكن هنا. فقدت ذاكرتي الإحساس بالزمان والمكان، وأحسست بأن

شمعتي في طريقها للذوبان، ولن يبقى مني إلا الظل الكاذب الباقي من عملية الاحتراق.

بعد أن أتمت العمليات في رأسي حساباتها لم أجد أحدا من حولي، الباب يُصفق بيد العسكري سعيد، وشخص يخرج أمامه، ومؤخرة كرسي متحرك ساكنة في عمق البلكون، وطفل رضيع يُعبِّر عن رأيه في طلب الطعام بشكل مزعج.

45

أصبحتْ أم خالد خارج كل الحسابات، تقول كلاما غير مفهوم، كرسيها المُتحرِّك تسكن فوقه كقطعة لحم كبيرة لا يمكنها الحركة ولا الوعي، فقط تتلفظ بكلام غير مفهوم، كأن إشارات مخها تقرأ الكلمات بشكل عشوائي لا تنظيم فيه ولا يظهر منه قصد. لم تعد تعي كل ما تقول.

أمّا أنا، فكأنني سمكة أقنعوها بأن حياتها في الصحراء ستصبح أفضل، لم تعد تشغلني تفاصيل حياتي بقدر ما يشغلني رجوعي إلى النبع، ابتعادي عن هُنا بأي ثمن، لم أتخيل بأنني سأقضي ما تبقى من عمري بين هذه الوجوه، لم يعد شيء يهمني، فكّرتُ أن أصارح خالد بشكوكي عن إياد، وفنجان القهوة وما يمكن أن يفعله في هذه الحياة، بل فنجانين، هل يعرف خالد شيئا عن الفنجان الأول؟ أخذت الدنيا تدور بي، الأرض تلف ولا أشعر بالمركز.

أصبحتُ أحمم حماتي يوما بعد يوم، أحدثها ولا تحدثني، تبتسم لي وهي عارية تحت الماء والشامبو، أغير لها ملابسها وألفّها كما أفعل مع إياد، أدعك يديها بفلق ليمون للانتعاش، وأصب لها الينسون

ليهدئ معدتها، وعندما تنام أحملها بسهولة إلى فراشها. كانتْ تحاول ببعض تصرفاتها الاعتماد على نفسـها، كأن تقبض على كوب اليـنسون بكلتـي يديها ولكنه يقع، تحاول أن توجه إليَّ بعض الكلمات، يخونها فكهـا ويعوج، فتنـزل دموعها في حجرها دون بـكاء. ثم تقول كلمات لا أستطيع فهمها:

«كانت السـجائر في شبابي تدخن فمـي، ثم بطَّلتْني، خفتُ على خالد يا فاطمة، خفتُ أن يولد وفي صدره مزيكة حسب الله».

تضحك بشدة وهي تقول: «مزيكة حسب الله».

* * *

العسـكري سعيد البسطامي كان خادمًـا، ثم تحول إلـى حارس، وآخر المطاف أصبح سـجّانًا. لكننـي ذات صباح لاحظت عليه بعض التصرفـات الغريبـة، كان خالـد بالخـارج، وعند دخولي إلـى المطبخ رأيتـه يقف فوق كرسـي في غرفة نومي ويمسـك بالنجفة، عندما رآني لم يرتبك، بل قال بثقة:

«أغيِّـر لمبـة محروقة يـا هانم. لا أريـد أن أتعبكِ بمثـل هذه الأمور التافهة».

كان ذلـك قبل أن يأتي إياد إلى الدنيا، أخذتُ أُرتـب أوراق الأيام من جديد، أسـأل نفسـي عما يفعله العسكري سـعيد، ففي اليوم نفسه ظلَّ لأكثر من سـاعة يُقنعني بـأن درج الكومودينو المركون في الصالة

يحتاج لإصلاح، ولما وجع دماغي قلت له: «أصلحه وخلّصنا» وظل لنصف يوم يدق في الدرج. ثم عاد ليجلس فوق كرسيه خارج الشقّة كما يفعل في جميع الأيام. حدث كل ذلك قبل أن يأتي الخطاب لخالد، الأسطر الثلاثة التي أطاحت بآخر أمل لي في البقاء هُنا.

في المرات التي يذهب فيها العسكري لإجازته كنتُ أتنفَّس الحرية قليلا، لكن بعد أن أصبح خالد مقيمًا بشكل شبه دائم في الشقّة كبت حريتي وضيّق الخناق حول عنقي، قلّتْ مساحة التنفس ولم يعد بإمكاني إلا الاكتفاء بالمتاح من الأكسجين، فخالد لم يعد ضابطًا، وشروق ماتت وحماتي لم تعد معنا في هذا العالم، لم يبق لي إلا جارتي العجوز، هي التي تصبّرني على الأيام، أمّا العزاء الكبير لكل ما عشته في سنواتي الأربع هُنا فهو إياد، لا تهم كل الملابسات التي تسببتْ في مجيئه، لكن المهم أنه جاء، قطعة من العالم الخيالي شقّتْ طريقها إلى الحياة الواقعيّة، يمكن أن يصبح مستقبله أفضل منّي، بل لابد أن يكون أفضل.

جاء خالد من الخارج، كان حاله غريبًا، لم أنتبه في الأيام الأخيرة لما طرأ عليه من تغيرات، نقص وزنه كثيرًا، لم يحلق لحيته منذ أسبوع، وملابسه لا تذهب للكواء، هل ستسحب منه هذه الوزارة الوهمية وظيفته الوهمية؟ هل ستُعيد إليها العسكري المُقيم معنا؟ العسكري، هل يصبح مزيفا هو الآخر؟ فهو لا يزال هُنا، يجلس على كرسيه ويؤدي التحية العسكرية، يقول لخالد يا باشا ويقول لي يا هانم.

لم أعد أفهم شيئًا مما يدور حولي. لكن تصرفات خالد في هذا اليوم فسَّرتْ ما صَعُبَ عليّ فَهمه.

جذبني من شعري في حركة مباغتة، وبسبب سرعته في الركض وقعتُ على الأرض، أخذ مِنّي إياد وأجلسه بعيدا، ثم جرَّني على الأرض حتى غرفة النوم. كيف تغيرت الأمور إلى هذا الحد؟ أحسستُ بأن الأكسجين في الغرفة يتناقص بسرعة كبيرة، كأن دمي يتسمم، كانتْ روح ثائرة مجنونة تتجول في الغرفة، أحسستُ بشبح عمي مُختار يمر برأسي، ثم هدأتُ قليلا، فأحسستُ بطيف الشاب ذي الطاقية البيضاء الناصعة يمر هو الآخر، وتزيد نسبة الأكسجين قليلا. ألقى بي خالد على السرير وجلس على الكرسي، أمطرني بأسئلة كالمحققين:

«لماذا فعلتِ ذلك؟».

وتلبستني روح قويّة لم أستخدمها كثيرًا:

«لم أفعل شيئًا».

«ومن الذي أخبرهم بأسراري؟».

«أخبر من؟ وعن أيّة أسرار تتكلم؟».

كادتْ ثورته الهائجة تتلف شعيرات مخه، وكادتْ أصابعه المتهورة تقتلع الشعيرات من رأسي، هاج وكأنه أصبح في طريقه التدريجي ليصبح حيوانًا:

«كل كلمة قلناها أصبحتْ عندهم».

«عند مَنْ؟».

«أسرار بيتي أصبحت في مديرية الأمن».

هل ما خبأته عن زوجي أصبح بإمكان الأغراب أن يروه؟ لم تعد كلمة أسرار تفي بغرضها، وربما أصبح ستر حماتي أيضا مستباحًا، وربما قطعوا أجزاء من هذه الأسرار وصنعوا منها فيلمًا كالذي رأيته ليلة زواجي، وربما وربما..

«المصلحة ضاعت كلها بسببكِ، سر بيتي بين أيديهم الآن، وأصبحتُ مُهددًا بالطرد من المديرية».

قلتُ وأنا بنصف وعي:

«أنت مطرود أصلا»

استفزَّته الجملة فلفَّ شعري أكثر على كف يده:

«كنتُ أستفيد من الوزارة أكثر من الضباط العاملين بها. أنتِ السبب في كل ما حدث لي. أنتِ مَنْ بُحتِ بِسرّي وجعلتِني لقمة سائغة في فم أعدائي».

قبل هذا الكلام كنتُ أحاول فهم ما يدور من حولي، أما الآن فلا أفهم شيئا، كيف يكون خالد مفصولًا ولا تزال له علاقة بالمديرية أو الوزارة؟ ولماذا يركز على كلمة «السر»؟ أيقنتُ بأن الموضوع لا علاقة له بإياد، سحب يده مِن شَعري ومنحني الفرصة للوقوف أمامه، تأملتُ بعض شعيرات رأسي التي تركتني وتعلَّقتْ بأصابعه:

«مشروع تخصيص الأرض الجديدة. لا يعلم أحد عنه شيئًا إلا أنتِ وطه. طه من رجالي المخلصين. أما أنتِ..».

صمتَ لبرهة ثم صفعني، وقبل أن أترنَّح من شدَّة الصفعة قمتُ، وقفتُ أمامه بكامل قوتي وقد عزمتُ على ألا أُبقي على شيء. رفعتُ يدي، وبكل ما قدرني الله من عزم صفعته على وجهه، بسبب صدمته من رد فعلي لم يتحرك من مكانه، تسمَّر لدقيقة وهو يُجري أصابعه على مكان الصفعة. انفتح الباب ودخل منه الكرسي المتحرِّك، ومن فوقه حماتي تتكلم كلامًا مبهمًا، تتمزَّق وهي تجاهد في إخراج كلمة واحدة ولا تستطيع، دفع خالد الكرسي بقدمه فجرى بسرعة إلى حيث جاء، وقعت حماتي وارتطمت بالأرض أثناء عودته. كان من الصعب أن أحتفظ برأسي كما هو بعد ما شاهدته. ركض خالد إلى الخارج، كان يجري كشخص فقد عقله، اندفعتُ باتجاه حماتي لأرفعها وأعيدها كما كانتْ، لكن محاولتي جاءتْ بعد فوات الأوان.

46

لـم يتحمل خالد أمه بيننا، وبرغم ذلك يحملها الآن مع المشيِّعين فـي موكبهـا الأخير، ذراع النعش تسـتند إلى كتفه، والشـيخ طه يسـير بجـوارِه، كانـت الصحراء الممتدة في نفسـي أكبر من تلـك التي تراها عيني، سرنا بالسيارة مدة طويلة حتى وصلنا إلى مقابر بلبيس، المشروع المستقبلي. خالد يغطي نصف وجهه بنظارة شمسية كبيرة، والشيخ طه يسحب النعش الخشبي بيقين إيماني لا يقبل شكًّا، وعين خاشعة تنظر إلى الأرض، أقدام المشيعين تزحف الأرض الرملية عند كل منحدر.

وقفنـا جميعـا أمـام بوابـة خضـراء، أخرجـوا حماتي من الخشـبة وحملوها بسـرعة إلى حفرتها، بعد أن اختفى السهم الأبيض بالأسفل جـاء بعض عمـال يرتـدون ملابـس متسـخة، حملـوا حجـارة طولية ووضعوها كسـقف للحفرة، ثم نثروا فوقها مقطفين من الرمال، تجمَّع الناس أمام قبرها وتوجهوا للقبلة، تقدمهم الشـيخ طه في دعاء مهيب، قـرّب كفيه من لحيته ونظر إلى موضع السـجود، لكنه لم يذرف دمعة، ولا خالد أيضا. كنتُ مغمومة وأشـعر باسـتياء وقَرفة، فاللحظات التي

أشعر فيها بالتعري الكامل أمام نفسي لم تكن كثيرة، لكن عندما يحين وقتها وتتملكني لا يمكنني مقاومتها، التعري الداخلي مثل العطر، شيء لا يمكن وصفه بالكلمات، وفي الوقت نفسه لا توجد وسائل لوقف تمدده أو حتى تأجيله.

استبد بي التعب والعطش، جلستُ على حجر بعيد عنهم، المكان نفسه الذي رأيتُ فيه خالد صاحب الطاقية البيضاء آخر مرة، منذ مدة طويلة وأنا لم أره، كان يبتعد عن رأسي كلما تمكنت مِنّي الأحداث الواقعية، ويقترب عندما أعود لطفولتي، لكنه في النهاية ابتعد عني ورحل، هرب بعد أن ترك في نفسي فجوة خلّفتها نظراته الصافية، وصوته العريض المبحوح، حاولتُ أن أستعيد اللحظات التي شكّلته في البدايات، ولم أستطع استعادة قطعة من نفسي عندما استعدتُ بعض الذكريات المشوَّشة، فالزمن لا يرتب ما يمر به مثلما هو منقوش في رؤوسنا.

نظرت أمامي فوجدتُ مقبرة الشاب الحي، محمود عبد الله نسيم، لكنه لم يكن موجودا يقرأ الفاتحة لنفسه.

كنست ريح عابرة بعض الرمال والأفكار، انتبهتُ عندما حرثت أقدام الرجال المنحدرات وصنعت في الهواء شبورة من غُبار، طارت في وجهي رمال مخلوطة بالأسمنت. أثناء خروجهم من

محيط البوابات الخضراء كان زوجي يتقدمهم، ورأيتُ بعض الرُّتب بملابسهم الميري يسيرون إلى جواره، كيف يكون خالد مفصولا من عمله ويجامله بعض الضباط؟ عادت الظنون تضرب رأسي من جديد.

توجهتُ إلى السيارة وأنا أحاول إبعاد شبح ذلك التصوّر:

«خالد قتل أمه»

«اسكتي يا فاطمة»

أعيدُ على نفسي الكلام ولا تسمعني:

«اسكتي يا نفسي»

لا تسمعني أيضا:

«يمكن أن يقتلك»

«اسكتي»

ولم تسكت، بدأت نفسي تتحول إلى شيء حقير بداخلي، في اللحظة نفسها رُسِمت في خيالي بعض الطرق التي يمكنه أن يتخلص بها مِنّي، حالة تفكير شاردة أعطتني المفاتيح بسهولة.

قبل أن يقترب موكب الرجال حددتُ ما يمكن أن يفعله خالد معي، هل سيلقي بي من البلكون كما حدث مع شروق، أم يقتلني

ويدعي الجنون كما فعل سيد حافظ؟ تغلبت روح أبي على تفسيراتي الأخيرة، الطريقة النظرية الحالمة، وتركتُ مؤقتا طريقة أمي المنطقية في فهم الناس وتفسير الأشياء.

سِرتُ في ذيل الموكب، أثبّتُ عيني على أحجار الرصيف؛ كي لا أضطر للنظر في عيون المشيعين، أو تأمل خالد وطه، حاولتُ أن أزيح أي أثر لظنوني الأخيرة، أو بالأدق، حاولتُ أن أتجنّب تصوراتي كأنها شظايا قاتلة، وكأن العيب أصبح في خيالي.

هذا ما عثرتُ عليه بداخلي لأقوله الآن.

47

عندما عدت إلى الشقة بحثتُ عن إياد فلم أجده، غافلتُ العسكري وقمت بدفعه، استجمعتُ كل قوتي وأسقطته بكرسيه على الأرض. قام ينتفض والبيريه وقع من فوق رأسه، رفع يديه في الهواء، ثم وضعها بالطبنجة فوق رأسه وظل يصرخ كالمجنون:

«حرام عليكِ يا ست هانم. حرام والله».

حملني بين ذراعيه كطفلة، لم يسلم من أسناني التي انغرزتْ في كتفه وذراعه، ألقى بي على كرسي الأنتريه بالداخل، هدأ قليلا ثم قال:

«يا هانم أنا عسكري غلبان. أريد أن أنهي خدمتي على خير وأرجع أزرعَ الأرض في بلدنا».

«وهل يوجد شخص غلبان يحبس امرأة؟!».

«أوامر. وأنا سيادتكِ عبد المأمور».

«أنتَ لست رجلا».

عندما استفزته الكلمة ابتعد عني بمسافة كبيرة، رفع يديه في الهواء مرة أخرى، وضعها على رأسه، ركن كوعيه إلى أقرب كرسي وقال:

«حكم القوي يا هانم. أنا كنت أزرع أرضي. يأكل منها أهلي وناسي. وآتي إلى هُنا مرغما لتأدية خدمتي العسكرية. الاسم أخدم بلدي. لكنني أعمل الشاي وأشتري الخضار للضبَّاط. أنا رجل وسيد الرجال لكن في بلدنا فقط. أرجوكِ يا هانم. خالد باشا قال وهو خارج: لو تحركت المدام من الشقَّة اعتبر نفسك فقدت دفعة، يعني ستة أشهر زيادة في الميري يا هانم، أرجوكِ. يأتي فقط خالد باشا ثم بعدها اضربيني لو شئتِ. ثلاثون يوما وتنتهي خدمتي وأعود إلى بلدي، أبوس يدك يا هانم اجعليها تمر على خير».

لم يشعرني انكسار العسكري أمامي بالعزة كما يحدث مع السادة الضباط، بل بالخيبة الثقيلة. حاولتُ أن أبدو متماسكة أمامه، لكنني كنتُ أتهاوى من الداخل، كمن يسقط في بئر لا حدود لعمقها. عاد العسكري يصل ما انقطع من كلامه. وكأنه يناجي نفسه:

«خالد باشا لن يرحمني لو جاء ووجدني وحدي».

وأنتهزُ الفرصة كما يفعل الأقوياء، فما إن أعطاني ظهره حتى انقضضتُ عليه مرة أخرى. يسمع خطواتي فيلتفتُ إليّ، يرفع يديه في الهواء ويدافع عن وجوده بشراسة، يدفعني بقوة فأرتطم بحوض السمك، يقع الحوض ويتكسّر البلاط، يتفتت الزجاج وتتبدد المياه تحت أقدامنا، تتناثر الأسماك الملونة بطول الصالة، أترك خناق

العسكري وأبحث عن كيس في أي مكان، لا أجد، أحاول رفع الأسماك في كفي فتتشنج وتنزلق إلى الأرض. الأسماك الثمانية لا أرى منها إلا خمسة، ثم أربعة، تتناثر تحت الكراسي، تبحث عن قطرة ماء تتنفسها، أرفع سمكتين وألقي بهما في حوض المطبخ، أفتح المياه فوقها فتتسرب ولا يستقر منها شيء فوق السمكتين، أبحث كالمجنونة عن طبق، أضع فيه المياه وألقي بالسمكتين، والعسكري يتابعني، ينظر إليّ ولا يعرف أن حياة هذه الأسماك الضعيفة مهمة جدًّا بالنسبة لي، فحياتها كانت جزءا من أحلامي القديمة. أخرج مسرعة كي أنقذ ما تبقى من الكائنات التي تفيض روحها ببطء، رأيتها مُلقاة في الصالة، وميتة، آخر سمكة فتحتْ فمها مرة واحدة ثم تجمدت عينها، عدتُ إلى المطبخ أبحث عن أحياء، كانت سمكة قد ماتت بعد أن قفزتْ من الطبق، والأخرى تفتح فمها وتستعد للحاق برفيقة الحوض الزجاجي. تحولت الشقة إلى سجن يموت فيه كل شيء. والعسكري مُصر على حبسي إلى أن يأتي خالد، حتى التليفون قطع فيشته الموصّلة للحرارة، لا يمكنني الاتصال بأمي أو أبي، كنتُ أحتاج لشخص ثالث أكلمه غير خالد والعسكري، مللتُ من كل شيء. وكانت المرة الأولى التي فكرت فيها في الانتحار.

بعد ساعة كان الجو قد سكن، همد العسكري على كرسيه كما كان في الصباح، ينظر بتوتر ويتأكد من وجود الطبنجة كما هي معلقة في القايش، وقف على الباب يتابعني كي لا أهرب من الشباك أو أتسلل من البلكون. لملمتُ أسماكي الميتة ووضعتها في سلة بالمطبخ، لم

يبقَ حيًّا معي في الشقة إلا العسكري وعصفوري الصامت في قفصه، كان منتوف الريش ضئيل الحجم، حاولتُ أن أهز القفص لأنبهه بأنه لا يزال على قيد الحياة، تحرّك منقاره ببطء، وجناحه اهتز قليلًا، كان الطعام مُلقًى تحت قدميه، يدوس فوقه ولا يبالي به، أو بنا، تركته فقط عندما سمعتُ الجرس، ليس جرس شقتي، بل جرس السيدة العجوز التي تسكن الشقة المقابلة.

تذكرتُ كل توصياتها في لحظة، اعتقدتُ بأنني حُرّة، جريتُ باتجاه شقة العجوز، حجزتني يد العسكري القويّة، قطعت الطريق عليّ لإنقاذ المرأة الوحيدة، كان صوت الجرس يتعالى، يرن بشكل متكرر، متوتر، جذبتُ يد العسكري لأسفل، كان بنيانه قويًا لدرجة أنني لم أستطع تحريك يده من مكانها:

«ستموت جارتي العجوز».

تنشف يده ويشد عضلاتها بأقصى ما يستطيع:

«لا علاقة لي بجيران».

«امرأة عجوز تموت يا بني آدم».

«تموت. المهم أن أعيش أنا».

أمرّ من تحت ذراعه، فيجذبني مرّة أخرى للداخل، أجري في اتجاه المطبخ، أستل أكبر سكين، أشهره في وجه العسكري فيخاف، يبتعد عني وهو يضع يده بالطبنجة على رأسه، حركته التي اعتدتها، تخرج منه جُملة سريعة:

«يخرب بيتكِ».

ينزوي في ركن بعيد، عند الأسماك الميتة، أعبر باب الشقة بظهري، والسكين أمامي. الجرس لا يزال يرن، أطرق باب العجوز، لا أحد يفتح، ولا يتوقف صوت الجرس، أخبط الباب بقدمي، بكتفي، لا يتحرك ملي واحدًا، أفكر في العسكري، أدخل إلى شقتي مرة أخرى، السكين لا يزال في يدي، ينزوي العسكري خلف الباب ويتابعني من العين السحرية، عندما فتحت الباب ورأى السكين رفع الطبنجة في الهواء، كانت حركة لاإرادية يفعلها كلما أحس بالخطر، اقتربتُ منه:

«لا تخف. اسمعني جيدا. أريد منك أن تكسر هذا الباب».

عندما أشرت إلى باب السيدة العجوز ونظر إليه العسكري هز رأسه بالنفي:

«أنا مهمتي هنا أن أحافظ عليكِ فقط. وليستْ كسر الأبواب».

«افهم يا بني آدم. الست تموت بالداخل».

وهنا تغيرتْ قسمات العسكري وراح ينظر إلى الباب بشفقة، تأمله لثوانٍ ثم قال:

«كيف عرفتِ أنها تموت؟».

«عندما تُعاجلها الأزمة الصحية ترن الجرس. والجرس أسمع صوته منذ مدة طويلة. تعال اكسر الباب كي ندخل ونطمئن عليها».

ولكي أطمئنه ألقيت بالسكين على كرسي الأنتريه، قام معي وكأني أسحبه ليدخل إلى مشارف حلم، يمشي ببطء وترقب تتقدمه طبنجته، يصل للباب ثم يقف أمامه يتأمله، وأنبهه كي يستفيق:

«اكسره بكل قوتك يا سعيد».

ينظر إلى الباب ثم ينظر إليّ:

«لا تخف. أنا المسؤولة».

يبتعد العسكري إلى الوراء ثم يندفع بكل قوته في اتجاه شقة السيدة العجوز، يهتز حلق الباب شيئًا فشيئًا، يركله بقدمه ركلة قوية فينكسر، يُفتح الباب، وعندما ندخل نرى السيدة العجوز مسجاة على السجادة، مقرفصة وركبتاها قُرب رأسها، كجنين شاخ على حاله، أهزّها، كان جسدها متخشبًا، مُنحنيًا. فتح العسكري عينها، هزّ ذراعها، ثم التفت إليّ:

«الست ماتت».

انفتح باب شقتها على آخره، طارت بعض وريقات من الداخل باتجاه الباب، حجزها الجسد الضامر الصغير، غطتها أوراق قصصها من كل اتجاه، تناثر حولها أبطالها المتخيلون الذين لم يعرفهم أحد.

تحيّرتْ مشاعري بين الحزن على العجوز الوحيدة والحزن على حالي، فهي قد تحررتْ روحها وفاضتْ، وأنا لا أزال محبوسة، هي

ابتلعها بحر البشر الكبير، وأنا بين جدران الشقة يتحكّم في حركتي عسكري يحمل في يده طبنجة، لم أدر بنفسي إلا وأنا أصرخ، قبل أن يتجمع الجيران كان العسكري يمد يده إليّ لنعود إلى المحبس مرة أخرى.

48

عدتُ إلى شقتي مع العسكري سعيد البسطامي، لم أستطع منع نفسي من التفكير في جارتي العجوز، السيدة التي خافت من الوحدة فعاشت طوال عمرها وحيدة، وخافت من عقوق الأبناء فلم تتزوج ولم تنجب، وخافت ألا يتمكن أحد من مساعدتها ولم يتمكن، كل ما خافتْ منه حدث لها، وكل ما تمنته لم يحدث، البراويز المعلقة لأشخاص لا تعرفهم، القصص التي اخترعتْها لم تساعدها على معرفتهم، الجرس لم ينقذها من الموت، كنتُ أقرب الناس إليها، لكنها دقت الجرس في وقت لا يمكنني فيه مساعدتها، وقت كان جسدي فيه محبوسًا، وروحي أيضًا.

وقفتُ أمام عصفوري الوحيد. أناجيه، أتفقّد عينيه الحزينتين وريشه المنتوف، كان قفصه مليئًا بالفضلات وبقايا الطعام، رائحة غريبة تخرج من بين أسلاكه، رائحة لا يمكنها أن تُعبّر عن أي نوع من السعادة، بيت من الخارج، وفضلات وبقايا من الداخل. مددتُ يدي إلى سلّة طعامه، ألقيتُ إليه ببعض الحبيبات من بين الأسلاك، سمعتُ صوته مُنهكا وحزينا، كأنه يرفض بصوت مسموع ما أقدمه إليه، كأنه

يحتاج لشيء أكبر من ذلك، تتشبث قدماه بالباب الصغير، يرق صوته، ينام على جنبه ولا يقرب الطعام.

أسمع صوت طرق باب شقتي، لابد أحد الجيران سيطلب مساعدة في نقل السيدة العجوز. فتح العسكري، رأيته وأنا أمام القفص أتأمل العصفور، خالد، أول ما دخل وبّخ العسكري:

«لماذا لا تجلس مكانك يا عديم النفع؟».

وتتسلل يد العسكري إلى رأسه لتؤدي التحية العسكرية:

«جارة سيادتك ماتت يا خالد باشا. وكُنا نحاول مساعدتها».

«تموت. تروح في داهية. أنتَ فقط تشوف شُغلك».

يدي التي كانتْ تستعد لفتح باب القفص للعصفور انسحبتْ، صففتُ شعري بيدي وربطتُ التوكة، اقتربتُ من خالد:

«أين إياد؟».

«إياد لن تريه مرة أخرى».

«لماذا يا خالد؟».

«لأنكِ لا تصلحين لتربيته. لابد أن تُربي أنتِ أولا».

قال خالد ثم تعلّقتْ عينه على الحائط، ينظر للكرباج المُعلّق، وينظر العسكري بطرف عينه إلى خالد، ثم يطرق بانكسار كأنه يناجي حذاءه، لا أرد عليه، وأتذكر، فأنا لا أجيد الكلام.

أتركهما وأتجه إلى غرفة النوم، أغلق الباب بالترباس من الداخل، أخلع كل ملابسي، أعود إلى اليوم الذي جئت فيه إلى هذه الشقة للمرة الأولى. أكمل تصفيف شعري، أشعر بانتعاش عندما تلمس أطرافه ظهري العاري، تطرق يد ما باب غرفتي ولا أبالي، أرتدي فُستانًا نبيتي، ميراث أمي عن جدتي، دائما مخصص للحظات المهمة، أبلل شفتي بإصبع روج وردي، أعيد طلاء أظافر يدي وقدمي، أربط حزامًا جلديًا حول خصري فتظهر أنوثتي التي أوشكتُ على نسيانها، أتأمل ملامحي في المرآة، واليد لا تزال تطرق باب غرفتي، لا أبالي، أصرت اليد على استمرار الطرق فاعتبَرْتُها موسيقى تصويرية لمشهدي الداخلي.

عندما اكتملتْ زينتي فتحتُ باب غرفتي بإرادتي، كان خالد في منتهى الضيق، والعسكري يقف كالخشبة ينتظر الأوامر، فستاني النبيتي له ذيل واسع وطويل، عندما درتُ مرتين لفَّ الذيل في الهواء، وعندما ضحكتُ اقترب مِنِّي خالد وارتخى الكرباج بين أصابعه:

«ما هذا يا فاطمة؟».

لم أرد، مددتُ يدي للقفص، عندما فتحتُ الباب للعصفور لم يقوَ على النهوض، دفعته بيدي للخارج، لم يستطع الطيران، كان يمشي بالكاد، كل نصف خطوة يقف، جناحاه فقدا ريشهما، وفقدا القدرة على الرفرفة، تركتُ العصفور يعيش أحزانه ويستجدي أحلامًا بعيدة، عندما كانت لديه القدرة على الحركة والطيران.

مددتُ يدي وسحبتُ تاج السنديان، لم يعد أخضر، بقاياه فقط كانت تُنعش ذكرياتي مع أخي منصور في الجري الحُر. وضعتُ التاج فوق رأسي، أخذتُ ألفّ في منتصف الصالة، خالد ينظر بغرابة للعسكري فيخرج ويتركنا وحدنا.

«فاطمة».

- صوت خالد:

«فاطمة».

صوت خالد أيضا:

«هل جرى لعقلك شيء؟».

يرمي خالد بالكرباج بعيدا ويقترب مِنّي، يمسك بذراعي، وكأننا نستعد لرقصة، دفعته بكل قوتي، وهو يتمسّك بخصري، أدفعه ويتمسّك، يخطو خطوتين للخلف، يقع على كرسي الأنتريه. وأنا فوقه، يلمع نصل السكين في عيني، وأشعر بغرابة في دماغي، تتفكك الصِّلات بين الأشياء، وتتداعى الكلمات من أعلى، كل الروابط المشدود وثاقها تترنح، تسقط، أمسك السكين بيدي، وقبل أن أقع كليًّا فوقه؛ أتمكَّن من ضبط السكين في قبضتي، ثم أمده للأمام، فقط أمدّه، وهو يُكمل عمله بعد ذلك من تلقاء نفسه، يصرخ خالد الصرخة الأولى، فيدخل العسكري، يتأوه خالد وتُكتم أنفاسه، يصرخ العسكري من خلفنا، وأنظرُ إلى يدي فلا أرى النصل نهائيا، يد السكين

بين أصابعي، والسكين نفسه يغوص في صدر خالد. يجري العسكري بالخارج، يصرخ ولا يسمعه أحد، يبتعد ولا يعود ثانية، أقفُ ولا أشعر بارتكابي أيّة جريمة، حتى السائل الذي سال من خالد والتصق بفستاني لم يظهر، فاللونان أحمر. كنت أستطيع سحب السكين فسحبتها، كنتُ أستطيع غرسها مرة أخرى فغرستها، فعلتُ ذلك كثيرًا، مرتين، خمسًا، لا أتذكَّر، لم يكن هناك أي غلّ بداخلي، كانت المسألة بالكامل أشبه بلعبة، عندما تجمَّدتْ لعبتي تركتُها، أصبحتْ سخيفة. رقصتُ والعصفور أمامي، عندما رآني أرقص حاول هز جناحه، تحرك قليلًا من مكانه، وأخذ يلف في دوائر خلف ذيل فستاني النبيتي.

49

فـي تلك اللحظة بالـذات؛ كان يجب علي أن أتكلـم، أتحدث إلى صاحـب الدقماق وأحكي له حكايتي مـن أولها، منذ البدايات البعيدة، منذ أن تركت نطفتي مستودع أبي واستقر بها المطاف في أحشاء أمي.

***

دفعتُـه بـكل قوتي وجريت، كانـتْ قوة اندفاعي مرعبة للعسـكري سـعيد البسـطامي، خاصة وهو يرى السكين مرشـوقةً في صدر سيده، رفع طبنجته في الهواء ولم يسـتطع فعل شـيء بعد ذلك. تمزَّق فستاني وهاش شعري من كثرة الشد والجذب بيني وبين العسكري:

«يا هانم أبوس يدك».

كان خائفا أن يلحق بسيده، والسكين في يدي موجه إليه:

«ماذا كنت تفعل بالنجفة يا سعيد؟».

«كنتُ أضع فيها زرًّا صغيرًا بأوامر من اللواء».

«ودرج الكومودينو؟».

«ودرج الكومودينو أيضا يا هانم. أنا عبد المأمور».

«هل وضعت جهاز تجسس؟».

«أعوذ بالله يا هانم. أنا أصلِّي وأعرف ربنا. لا أتجسس على أحد. لقد وضعتُ زرًّا صغيرًا في حجم عقلة الإصبع. كُله بالأوامر. وأنا عبد المأمور».

كُنَّا بعد منتصف الليل. جريتُ كالمجنونة، أمام غرفة البواب رأيتُ زوجته تحمل إياد، في لفته كما هو، خطفته من يدها، لم أعطها الفرصة للكلام. توقَّفْتُ قليلًا أمام السنديانة التي زرعتها منذ جئت، يبَّستها الأتربة وأصبحتْ شبيهة بالأعمدة الخرسانية، خابتْ زرعتي.

جريت باتجاه بوابة حي الزهور، رأيتُ المجذوب يقف وكأنَّه ينتظرني، أصبحنا نشبه بعضنا، ملابسنا ممزَّقة، ونظراتنا ذاهلة، تجاوزته إلى طريق الخروج، سمعت صوته عاليًا من الخلف:

«هل صَحَت السنديانة؟».

رددتُ عليه وأنا لا أنظر إليه، أركض وأبتعد:

«لا، الزرعة خابت».

لم أر أثرًا للمشتل ولا لصاحبه. هل ضاقت الشوارع وزادتْ أتربتها ومنحدراتها، أم أن إجهادي غَيّر الأشياء والأماكن؟

ظللتُ أركض حتى تركت حي الزهور نهائيًّا، ركبت تاكسي حتى موقف شبرا، ومنه ارتميتُ في ميكروباص حتى قريتنا، ليتني لم أتركها.

50

السائق يطوي الطريق بسرعة، كأنه يعرف كم اشتقت للعودة، الميكروباص مثل ريشة تطير فوق المطبات وتبتلع الشريط الثعباني الأسود، كانت المدينة تبتعد من خلفي، وفور وصولنا إلى الطريق الزراعي تنفستُ هواء مختلفا، رائحة الروث وعطانة المياه الراكدة. عادت الهوام الجميلة تحوم حول أعمدة الإضاءة وكشافات السيارة، ورائحة حرق القش تُدمع عيني، تلك الشبيهة بدموع الفرح. لم أعد امرأة قاتلة، قراري المكين يعود إليّ بسرعة، وأصبح إنسانة موغلة في التقدم.

كل ما حدث لي كان قشورا، أو ما يشبه برامج المقالب، ربما الآن أو بعد قليل، سوف يصارحوني بالفخ الذي نصبوه لي، وسأعود مثلما كنت لأكمل طريقي كما أريد، السنوات الأربع مرت كأنها عمر بأكمله، كأنها حلم سخيف وأنا الآن في طريقي للاستيقاظ منه.

لكن لا أحد يخرج من الحلم وبين يديه طفل!

ما زالت رنّة الأصوات من حولي شاهدة أن ما حدث ليس حلما، ولا حتى كابوسا، صوت جارتي العجوز، وشروق، وأمها الممثلة،

وخالد، وخالد الآخر، كل هذه الأصوات مرّت من هنا، أنظر لإياد وأسأل: «هل كذبوا عليّ عندما أقنعوني بأن ثمانية عشر عاما يمكن أن تعيش بجوار اثنين وثلاثين؟

عمي مختار، هو أصل البلاء في حياتي، لكن أنا وأمي وافقنا من قبله على زواجي من خالد، وأبي تبعنا، لماذا أتهم عمي دائما؟

سحبتُ نفسا عميقا لأتمكن من التفكير دون صداع، استيقظ إياد، وأيقظ معه كل العالم المرتبط به، تذكرتُ حي الزهور، والمجذوب، وبائع الورد، ترى، ماذا يفعل العسكري سعيد البسطامي الآن؟ هل يجلس بجوار جثة سيده ككلب مخلص، أم سيهرب مثل أي إنسان طبيعي؟

أرهقني التفكير، اللبن يفور في صدري ليذكرني بأنني أم، يجب أن أقوم بمهامي المُفترضة، ألصقتُ إياد في صدري وبدأ يسحب صفاتي وغضبي مع الحليب. تمنيتُ لو أعود إلى بيتي القديم، أحسستُ بأن لي بيتا أقدم من ذلك الذي يعيش فيه أبي وأمي وخضرا. منذ أن تركته وأنا لا أشعر بأن لي بيتين، بل بيتًا واحدًا واستراحة قصيرة.

الصداع يكاد يفتك برأسي، ومخلوقات تمر في دماغي، تحادثني ولا أستطيع أن أبادلها الحديث، دماغي ثقيلة ومشدودة للأرض، كل بضع ثواني تقع رأسي فوق رأس إياد، دفء بشرته الناعمة يسحبني لعالم لا أشعر فيه بكرسي الميكروباص ولا بالطريق، أراني وقد خرجتُ بملابس وردية، فرأيتُ عمي في الطريق، يمشي ورأسه تصل

للسحاب، يربط أبي في حبل ويسحبه كمحارب يأسر فأرًا، وبيده الأخرى يحمل أمي كرضيعة، يسير على شاطئ مليء بالأشجار، وأنا أنتظره في نهاية الطريق بفستاني الوردي، أنتظر بقلق، يقترب أبي ولا أرى ملامحه لفرط صِغره، وتقترب أمي وأرى ملامحها ممتعضة وتريد النزول، لكنها تخاف لأن صدر عمي شاهق الارتفاع، يترك أبي يجري بالحبل في رقبته، ويحاول أن يرفعني بيده الأخرى لأصبح في محاذاة أمي، أرفض، ويجري الكائن الكبير ورائي، يركض وأمي تهتز فوق صدره العريض، لا يلحق بي، أغوص في مياه البحر، وهو لا يزال يركض، يوقفه الماء عن التقدم نحوي بسرعة، وأنا أغوص، لا أشعر إلا بشهقة طويلة تقف في زوري، المياه تغمرني من كل اتجاه، عمي الخنزير من خلفي والموج المخيف أمامي، ويصبح عليّ الاختيار، لا وقت للتفكير، أجري في الاتجاه نفسه، اتجاه الغرق، رئتايَ تتوقفان عن سحب الهواء، وأشهق، أرفع رأسي عاليًا، أنتفض فأجد شيئًا يعضني، صدري، إياد، ورذاذ يخرج من فمي، ويد غريبة تمتد لي بزجاجة ماء.

يتوقف الميكروباص، وأرى الكوبري، أصبح بيني وبين حجرة خضرا عشر دقائق مشيًا، تركتُ الشريط الأسفلتي الطويل. عبرت الكوبري وخطوت أولى خطواتي إلى قراري المكين.

51

ذهبتُ أولًا إلى بيتنا، قبل أن أطرق الباب أو أرنّ الجرس رأيتُ ليلى، تقف في شرفتها وتنظر إليّ، كأنها تنتظرني منذ مدة، لم تتكلّم، فقط نظرات لم أستطع تفسيرها، ثم دخلت وكأنها كانتْ طيفا.

توقفتُ بإياد طويلا عند السنديانة، رأيتها شامخة رغم الظلام الذي يلفها، شممتُ بعض الروائح التي أعرفها جيدا، حرق عيدان القش، أريج الطمي المشبع بجذور زرعها الأسلاف وطعم الندى، عبق الزهر المتبرعم من حولي في الغيطان البعيدة. كطفل صغير، كإياد، تلبستني حالة من الشفافية لا أدري أين كانتْ، يكفي أن أسمع أي صوت بشري يوجه إليّ حتى أنخرط في البكاء.

أي فيلم يشبه ما يحدث لي؟ لا أتذكر.

اقتربتُ من غرفة خضرا، نقرتُ شيش الشبّاك بتوتر، النافذة الوحيدة في غرفة خضرا، ثم تذكرتُ بأنها لن تسمعني، دفعتُ الشيش الضعيف بقوة خوفي فانفتح، ألقيتُ خضرا بحصوة صغيرة، صوبتها إلى إصبع قدمها الصغير الذي يركب فوقه الإصبع المجاور، استيقظتْ وهي تفرك عينها وتستوعب ملامحي «طومة. طومة»، ربما كانتْ ترى

نصغي أمامها ونصغي الآخر خارجًا من أحلامها، تشير بيدها إلى باب الغرفة، وأطلب منها الخروج، وأن تقابلني هي، ترتدي شالها وتخرج، أمد يدي إليها بإياد، تحمله وتبوسه وهو لا يزال نائمًا، تقول عينها كلامًا كثيرًا لا أجد عندي وقتًا لتفسيره، ملَستُ على جبين إياد السابح في الملكوت وطلبتُ منها باللغة التي تفهمها أن تحافظ عليه، وألاّ توقظ أمي أو أبي إلا عندما يسمعان صراخًا يخرج من بيت عمي مختار، هرولتْ خضرا من خلفي وهي تحمل إياد، ركضتُ فركضت ورائي، أنا أتكلم وهي تُخرج من بين شفتيها أصواتًا مُتَّصِلة، لا تفصلها الحروف والتفسيرات. «طومة. طومة» أشرتُ لها بعدم السعي ورائي فتوقَّفت، أخذتْ تلوح بذراعها من بعيد، في الظلام تبتعد صورتها بسرعة، لم أعد أراها ولا أرى إياد بعد عشرة أمتار فقط.

كان مقصدي هو القلعة الحصينة المُضاءة بالفوانيس.

توقَّفتُ في الطريق قليلا ولا أعرف لماذا، الريح تضرب وجهي، تشيلني ولا تحطني، كورقة شجرة جافة تبحث عن فرع تلتصق به، تنتمي إليه. حاولتُ العودة إلى صوابي الريفي، إلى الأصول وما يصح وما لا يصح، لكن دون جدوى، عندما انقطعتُ عن قريتي انقطع حبل سري غير مرئي، كانت المشاعر الإنسانية في الأفلام تبكيني، ثم لم يعد قتل إنسان يعنيني.

تعجَّبت من التغيرات الكثيرة في القرية، غبتُ أربع سنوات فقط، لم تعد البيوت هي البيوت، ولا الأرض المنزرعة، حتى الرائحة،

تغيرت، وطعم الهواء، ثم قلت في نفسي: «هل تركتِ قريتك محفوظة في علبة؟».

شعرت برعدة تسري في سلسلة ظهري، وخشونة ياقة البلوزة حكت قفاي، لا أعرف هل بسبب الحر وطواف الهوام أم الخوف؟ طفرتْ قطرتا عرق بين ثديي، وضغط اللبن على الحلمتين بشكل مؤلم، لا يوجد وقت ملائم لأن أُرضع إياد، أكملتُ المسير ونحيتُ جانبا كل ما يمكن أن يعطلني عن أداء ما تبقى من مهمتي.

قابلني الحارس النعسان الذي يعلق في رقبته بندقية، سمح لي بالدخول بعد أن أشار له سيده الكبير، كانتْ طرقات البيت الكبير كلها مُضاءة بشموع ملونة، كأن زائرًا مهمًّا كان هُنا قبل مجيئي، ورأيته، الخنزير، عمي مختار، يجلس على حشية مرتفعة ويفرك بين أصابعه مسبحته الكهرمان ذات التسع وتسعين حبَّة، أمامه طبق الفاكهة كما هو، لا يزيد ولا ينقص، كأن الزمن لا يمر عليه. كان همي كله منحصرًا في أن أناله بالسكين نفسها:

«لماذا أردتَ أن أتزوج من خالد؟».

«اجلسي يا فاطمة».

«لماذا خالد بالذات؟ لماذا أردت أن توقعنا في خطيئة ليس لنا فيها أي ذنب؟».

«خطيئة؟ يبدو أنكِ لم تنامي جيدًا».

كان هدوء ردوده مغريًا بالفعل لأن أهدأ، لكني حاولتُ الإبقاء على الوتر مشدودًا قدر استطاعتي، بدأتْ عينه تبرق، تكاد تخرج من محجرها، ودون أن يتكلم توصل نظراته المعاني والرغبات بلا كلمة واحدة، لكنه تكلم:

«اسمعي يا فاطمة. لولاي لفسدتْ هذه القرية، والقرى المجاورة. فلا تتعدي حدودك معي وتذكَّري بأنني عمك. فأنا لا تفرق مسألة النسب كثيرًا معي».

بدأ عدد غير قليل من الحرَّاس يتجمعون حوله، يرفعون البنادق ويصوِّبونها باتجاهي. أخرجتُ من طيات عباءتي السكين التي غاصت في بطن خالد منذ ساعات، وقبل أن أتجه نحو عمي وأعاجله بطعنة تنهي كل شيء في لحظة؛ وقع شالي من فوق رأسي، دستُ عليه ولم ألتفتُ إلا لهدفي الذي ابتعد فجأة، وأمسكتْ يدٌ خشنة كفي بالسكين، لم أتأكد من أنه الحارس الذي سمح لي بالدخول منذ قليل، بل لم ألحظ ملامح أحد، فقد هجموا عليّ مرة واحدة، ثم لم أعُد أشعر بشيء. لم أدرِ كم من الوقت مرَّ عليَّ هُنا، أفقتُ وأنا أحاول تحديد ملامح من أراهم، كنتُ نِصف مُغمضة نصف يقظة، الوجوه من حولي تغلفها شبورة دخانيّة، أحجامهم كبيرة بعض الشيء. ونصفهم الأسفل غير موجود، كأنهم عبارة عن رؤوس فقط، ثم غامت الرؤية تمامًا.

وكما يحدث في الأفلام، يُقطع مشهد ويبدأ مشهد آخر لا علاقة له بما فات، رأيتُ رأسي مُنحنيًا، ويد تضغط عليها ثم تُدخلني سيارة جيب، جلستُ على أريكة خشبيّة طويلة، رمت يدٌ إليّ بشال لأضعه فوق شعري، انزلق ولم يصل لرأسي، حاولتُ ضبطه ولم أستطع، فقد كانت إحدى يدي مربوطة بالأخرى، وأحاول التذكُّر، مَن الذي ألبسني هذا القيد؟ ولا أتذكّر شيئًا.

52

«بطة عروسة. بطة عروسة»

ما أراه وأنا مغمضة العينين يتماهى مع ما أراه وأنا مفنجلة أحدق في السجّانة، بطة لم تعد عروسة، بطة مسجونة، أيقظني ارتجاج الأرض، والخطوات المهرولة بالخارج، لا أفهم ماذا يحدث، بعد قليل، تختفي الحركة، ولا أرى إلا ظلًّا كبيرًا ومصباحًا ضعيف الإضاءة وغطاء رأس لامرأة تجلس بالخارج.

أشعر كأني في قبو، ليس بسبب السلالم الكثيرة التي نزلتها، لكن لضيق التنفس، كأن رئتي تحت ضغط الماء، وعمودي الفقري متيبس، أو ترك مكانه في ظهري، وعظام صدري ويديّ كأنها مطحونة، لا أشعر إلا بوجود الظلام والجوع والقمل.

ليس بالضرورة أن ينتمي شعوري وخيالي لأشياء تحدث من حولي بالفعل، فكل ما يحدث لي لا يعود إلى زماني أو مكاني، اجتهدت كثيرًا لأستكشف أين بالفعل جرَتْ هذه الأحداث التي وقعتْ؟ وكم من الوقت قضيته في هذا المكان الغريب؟ فشلتُ حتى الآن في

الإجابة على مثل هذه الأسئلة، لكني لوهلة، أحسستُ أنها مرت فقط في رأسي، ولم تنتقل بعد إلى الواقع.

كان الحجز انفراديا.

خيرا فعلوا، لا أعرف العواقب لو أن معي أحدًا في هذا المكان الضيق، وحدتي كان ينقصها شيء، أين إياد؟

غياب شمس النهار عن عيني لأيام طويلة جعلني لا أقوى على الرؤية، جفناي يرفّان كجناحي ذبابة تتعرض للخطر، تملك عيني إمكانية الرؤية بقوة ألف فولت، ورغم ذلك لا يخطر على بالي ما أود رؤيته، كان غياب الأصوات عني يُعيدني إلى أرضي البعيدة، أستمع لصوتي الداخلي، نفسي تحادثني بأشياء لم أعرفها من قبل. وأعود إلى هناك، قبل أن تقذف بي مؤخرة شاحنة زرقاء، وتدفعني أيادٍ غليظة إلى ملامح أغلظ، تلقي الملامح في وجهي بملابس بيضاء، يأخذون ما معي من متعلقات ويعطوني ما معهم من تعليمات. ثم يقودوني إلى باب كبير له غرفة صغيرة، لا أعرف الوقت بسبب الظلام، مصباح صغير في السقف العالي مُضاء ليلا ونهارا، محصن من كل اتجاه بغبار وبقايا حشرات، كنتُ أسأل ملامح أخرى تقف خلف الباب عن الوقت، وعرفت من كلامها أنني هْنا منذ ثلاثة أشهر.

كلما ضغطت عليّ أفكاري غطستُ في نومي، أرتمي على بقعة سوداء مستديرة، وأتناسى ما تسعى عليها من حشرات.

53

الوحيدة خارج دائرة عائلتي التي زارتني في محبسي كانت كريمة شوقي، لم أصدق نفسي عندما رأيتها، كيف أمكنها أن تدخل إليّ بهذه السهولة؟ فهذا المكان لا يدخله إلا شخص واحد فقط، السجانة، هي التي تحادثني، وهي أيضا التي تُقدِّم لي الوجبات. على أية حال، سأرى وجهًا آخر مليئًا بحيوية الحياة في هذا المربع الكئيب، فتحت السجانة باب الزنزانة وأدخلتها، تعرفتُ عليها بعد فترة، هل ضعف نظري خلال الأيام القليلة الماضية؟ كريمة شوقي، هي بالفعل، لكن شحوب إضاءة الزنزانة أظهر في وجهها تهدلات واحتقانات أراها للمرة الأولى، شعرها الأصفر المصفف على جانب واحد هو أكثر ما يوحي لمن لا يعرفها بأنها بالفعل نجمة سينما.

عندما ضمتني إليها وقبّلتني أحسستُ أنها قريبة مِنّي لكنها تنتمي إلى كوكب مختلف، فهي عجوز مُعطرة ونظيفة، فيها من الحيوية ما يكفي لشخصين، أمّا أنا فباردة مثل الجدران الضيّقة من حولي، لم أُبدِّل ملابس الحبس الاحتياطي منذ أسدلوها على بدني، تفوح منها رائحة كالمنبعثة من القبور. لمحتْ كريمة خاتم الزواج وهو لا يزال في إصبعي. شردتُ منها وهي تسألني:

«ألا زلتِ تلبسين خاتم خالد؟».

لم أرد، كيف نسيتُ خاتمه في إصبعي طيلة هذه الأيام، حاولتُ خلعه ورفض، أو لم أقدر على نزعه بسبب الوهن ورعشة أصابعي، لا أستطيع في الوقت نفسه سماع اسمه على لسان أي إنسان، لا أعرف كيف نسيته في إصبعي حتى الآن؟ هدأتُ كي لا أُفسد تأملاتي لزيارة جارتي المُمثلة، لا أنكر دهشتي لمجرد أن واحدة في مكانتها الاجتماعية تزورني، كانت مُحملة بطعام طازج وخزين بقالة أكثر من اللازم، تحاورنا بشكل مُقتضب عن الدنيا وأحوالها، حدثتني أنها لم تنس ما حدث لابنتها التي ألقت بنفسها من شرفة شقتها؛ كانت تتكلم بأسى رغم مرور فترة زمنية طويلة على الحادث، ثم أضافتْ أن عمارتنا أصبح فيها قتيلان، ولمّا انتبهتْ لأن كلامها يمكن أن يضايقني توقفتْ وفتحتْ موضوعًا آخر.

ما لفت نظري في زيارتها أن علاقتي بها كانتْ سطحية، لا تسمح بكل هذا الكرم، كيف تزورني وتُكلف نفسها هذا العناء؟ تأملت الزنزانة جيدًا في صمت، توقّفتْ بعينها طويلا عند فتحة صغيرة تُرسل شُعاع شمس شحيحًا من البعيد، ثم مسّت بإصبعها جدار الزنزانة كأنها تتفحّصه، ودقّتْ كعبيها على الأرض المنبعجة، وفي حركة مُباغتة رمتْ نفسها مرّة واحدة على فرشتي المُتسخة، اختبرتْ ملمسها بأصابعها. ظلّتْ كريمة شوقي لمدة طويلة دون كلام.

الوقت يمر والصمت بيننا يزيد الزنزانة ضيقًا، لم تجد ما تقوله ووقت الزيارة أوشك على الانتهاء. كانت الممثلة تهم بالكلام ثم

تصمت قبل أن تقول شيئًا، كأن بداخلها ما تخشى قوله، هل لديها أخبار سيئة عن إياد؟ هل استولى أحد أقارب خالد على الشقة ورمى متعلقاتي في الشارع؟ لم تتكلم كريمة شوقي، لكنها قامت من مكانها، هيأتُ نفسي لمصافحتها، رسمتُ ابتسامة تأهبًا لوداع وشيك، فربما لا تتقابل وجوهنا قريبًا، وربما لا تتقابل أبدًا. لم تبدُ عليها علامات الضيق من المكان، بل كانتْ تتأمّل السقف والأركان كشخص يعاين منزلًا سيشتريه عن قريب.

وقع شيء من ملابسي على الأرض، ركّزتْ كريمة نظرها عليه، انحنيتُ والتقطتُ ما وقع، صورة إياد، قَبّلْتُها ووضعتها في عِبّي كما كانت، أمسكتْ كريمة كتفيَ وهزتهما برفق:

«تماسكي يا فاطمة. شدة وستزول عن قريب».

ثُم اتجهتْ ناحية الباب دون كلام، فتحت السجّانة باب الزنزانة فدخل ما لا يقل عن خمسة أشخاص، اثنان منهم مثقلان بكاميرات كبيرة لها فلاش وزوم، وقفتْ كريمة شوقي إلى جواري وهي تقول: «نأخذ صورة مع بعض يا فاطمة»، لم أدر بنفسي إلا وأنا أعض يدها بتهور وحش كاسر، ثم ضربتُ بعشوائية جميع الوافدين الجدد من حولي، أصابتْ يدي كاميرا أحدهم فطارت على أرضية الزنزانة، أصبحت كثور هائج في ثوانٍ، دخل شخص لا أعرفه تابع لضيوفها يمسك قلمًا وورقة، لطمته على وجهه هو الآخر فطار قلمه ووقعت ورقته، انزوى بعيدًا بجوار الباب الحديدي، كل ذلك جرى قبل أن

تنتبه السجّانة لطبيعة ما يحدث على الأرض، عندما انتبهتْ جرتْ بسرعة في اتجاهي وهي تحمل مفاتيحها في يدها. دارتْ بي الجدران وتداخل سقف الزنزانة مع أرضها وغابت الألوان، غامت الوجوه واختلطت الملامح، وقبل أن أقع على الأرض سمعتُ اسمي على لسان السجانة بعد أن بهتت ملامحها: «ماذا حدث يا فاطمة؟ هل جُننتِ؟ فاطمة. فاطمة..».

مرّ زمن لا أعلم مداه، ثم وجدتني جالسة على كرسي، أسند كوعي إلى مكتب وأمامي شخص لا أعرفه يحدثني: «فاطمة. كيف تتهجمين على امرأة جاءتْ لزيارتكِ؟». لم أرد، كان اتزاني العقلي يخونني كلما حاولتُ التفكير في رجاحة الكلام، تناثرت الحروف وأصبحت فتاتًا في رأسي، لا أستطيع تجميع كلمات ولضمها في جُمل، فأعاد الرجل سؤاله بطريقة أخرى: «كريمة شوقي ممثلة معروفة، كانت فقط تريد أن تلتقط معكِ صورة».

ثم شممت رائحة دخان سجائر يقترب منّي:

«معها كُتاب ومصورون كي تعمل فيلمًا عن المصيبة التي أوقعتِ نفسكِ فيها، سيكون الفيلم عِبرة وتوعية للناس».

كنتُ أسمع الكلمات وأستوعبها جيدًا، ولكنني لا أقدر على الرد، لا أستطيع النطق، بداخلي طوفان من المشاعر لا تستوعبه الكلمات المُتاحة على لساني، كريمة شوقي، كنتُ أعتبرها جارة طيبة، جاءت

لتزورني في محنتي، بأي عقل تفكر هذه الممثلة؟ لماذا لم تصنع فيلمًا عن انتحار ابنتها، فهي قصة أكثر إثارة من قصتي؟ هي لا تريد أن ترى حقيقتها، لا تريد أن تقوم بدور أم قتلت ابنتها؛ لأن مثل هذا الدور سيذكرها بدورها في الحقيقة، أما قصتي أنا فبعيدة عنها تمامًا، ستمثل دوري وهي مطمئنة، ستصعد سلم النجومية المطلقة على أشلائي، لأن اسمها كريمة شوقي، أما أنا فاسمي فاطمة. سمعتُ صوتي جيدًا، لم أدر كم مرة كررت نطق اسمي، كل ما أتذكره أنني قلبتُ المكتب فوق رأس محدثي، طاوعني المكتب وخفَّ وزنه، عندما رفعتُه طار في الهواء بسهولة، ورغم المسدس المحشو بالرصاص الذي يرشقه ذلك الشخص في جنبه؛ فقد خاف مني وجرى باتجاه الباب، خرج جريًا في جري من مكتبه؛ أطحتُ بكل ما حولي حتى وجدت ذراعيّ مشبوكتين في ذراعين أشد، لم أشعر إلا بحذائي مجرورًا في وضع الزحف، بوزه يكنس كل ما يقابله، ركبتاي تقتربان من الأرض، لا أعرف كم مترًا جرّوني، كم كيلو مترًا، كم ساعة أو كم يومًا؟ وجدتُ نفسي في مكان ثالث لا أعرفه، يقترب من رأسي حديد بارد، وأسمع طرقعة منتظمة، وأرى خُصلات شعري تقع في حجري، جذبوني لأعلى وحاولتُ القيام، لم أستطع دون مساعدة أحدهم، قُمتُ فتناثر تحت قدمي شعري المحلوق، انحسر الشال عن رأسي، وقع، تحسست ما تبقى من شعري، كانت الجروح تملأ فروة رأسي، ورأسي بلا شعر، لا تظهر لي معالم أنثى، بأصابعي أتحسس ملامحي، أنفي

كما هو، ربما تضخّم قليلاً، وفمي، لسان حار وشفتان جافتان، وأعود فأتحسس أذني، تصطدم أصابعي بحلق تشكَّلتْ فردتاه الذهبيتان على شكل ورقتي نعناع، تركوه لي ليذكّرني بأنني أنثى.

دخل ثلاثة رجال أشداء وكبّلوني، أعادونـي مجرورة إلى زنزانتي الانفرادية من جديد، الزنزانة التـي كنتُ فيها منذ ساعات مع كريمة شـوقي، وقبل أن أغيب عن الوعي مرة أخرى سمعتُ صوتًا غريبًا يعبر باب الزنزانة من الخارج ويدخل إليّ واضحًا:

«أليسـتْ هذه هـي فاطمة طاهر؟ آخـر ليلة لها هنا. فجلسـة النطق بالحكم غدًا».

* * *

دفعتني يده بعنف.

لـم أهتم كثيرًا باقترابي من القفـص، تجاهلتُ الجلبـة وتصويب الكاميـرات تجاهي. المـكان أمامي مكتظ بالناس الذيـن يتناوبون بين الهمس والضجيج، أسمع أصواتهم متداخلة، مشوّشة، وكأن كل ذلك يحدث على سطح كوكب آخر.

بحثت في رأسي عن صور قديمة لتُخرجني من هذا المشهد بأقصى سرعة، كنت في مكان يشـبه القاعة، يتكدس أمامي أشخاص يشبهون البشر، وأنا أقف أمامهم متهمة.

تخيلـت أن لـي حياتيـن، واحدة أتمنـى حدوثها، وأخـرى تحدث لـي بالفعـل، الخـط الوهمي الفاصـل بينهما يهتز بشـكل دائم، يذوب ويتلاشـى كلما تأملتُ الناس من حولي، محاولات التركيز المسـتمرة جعلتني أتأكد أنهم موجودون بالفعل، وأنني لسـتُ سـابحة في دهاليز حلم. لوهلة، أحسسـتُ بأني أعيش كابوسًا طويلًا متقطعًا، يتم توزيعه على الأيام بلا إنصاف.

فـي الحيـاة التـي أتمنّاهـا أرى نفسـي لا أزال طفلـة، تنسـدل على كتفيهـا ضفيرتـان طويلتان، يغلـف الكون من حولهـا غموض جميل.

جميع الكائنات منسوجة من خيال شفاف، تتحرك من حولي ألوان متداخلة كأنها فاضت عن أحلام بعيدة، ورود حمراء وزرقاء منثورة فوق سحابة برتقالية بعيدة.

أما في الحياة التي تحدث لي بالفعل فأنا مُكبَّلة، أمامي قضبان حديدية سوداء، أرى رؤوس الجالسين موجّهة ناحيتي بثبات، عيونهم تحدق فيَ، نظراتهم تليق بامرأة مُتهمة في جريمة قتل. لم أبدُ أمام نفسي سيئة. كنت كمن سقطت في لعبة خيالية ولم يعد باستطاعتي العودة للواقع مرة أخرى. فك عسكري قيدي ودفعني باتجاه القفص، ثم أغلق الباب الذي بلا سقف.

تمت

شكر خاص

لـ/ عماد العادلي

وأشرف العشماوي

وإبراهيم عبد الرحمن

وإبراهيم محمد علي



«لم أتكلَّم عن نفسي بشكل كافٍ حتى الآن. اسمي فاطمة، لا أعرف على وجه الدقة لماذا اختار لي ذلك الاسم؟ واختار لي كذلك اسم الدلع «فَطّومة». يعتقد مَنْ حولي بأنني مُنطوية لقلّة كلامي، ولكن الواقع كان غير ذلك بالمرّة، فالعالم الذي ينمو بداخلي لا تسعه السماء بكواكبها ولا الأرض بطبقاتها».

***

تدخل بك هذه الرواية إلى المنطقة التي ترى فيها الحلم يتماهى مع الحقيقة حتى تصبح الحياة سلسلة من الأوهام اللذيذة، حيث نُلبس الآخرين من حولنا ثيابًا من فيض خيالاتنا تحوّلهم إلى كائنات ملائكية وأطياف هائمة.. فإذا فقدت ذلك الخيط الرفيع بين الوهم والحقيقة تساوى لديك ما تراه وأنت مغمض العين مع ما تراه واقعًا!



عمرو العادلي كاتب مصري وباحث في علم اجتماع الأدب.. صدر له ثلاث مجموعات قصصية: "خبز أسود" 2008، و"جوابات للسما" 2009، و"حكاية يوسف إدريس" 2012 .. وخمس روايات: "إغواء يوسف" 2011، و"كتالوج شندلر" 2013، و"الزيارة "2014، و"رحلة العائلة غير المقدسة "2015، و"مجموعة عالم فرانشي". حاز على جائزة ساويرس فرع كبار الأدباء عن مجموعة " حكاية يوسف إدريس"2015، وحصد جائزة الدولة التشجيعية عن رواية "الزيارة " 2016.



9 789777 951135



للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

الدار المصرية اللبنانية